الباب الخامس

الحــــرب

الأمة تصنع البـــطل

لكـــن البـــطل

لا يصنـــع الأمـــة

الفصل الأول

مكامن الخطر !

[١]

أجرى «جمال عبد الناصر» حساباته وبنى تقديراته للآثار والعواقب بدقة وبصيرة، وفى الحقيقة فقد كانت تلك واحدة من أعظم لحظات حياته. وقد استعاد دوره كضابط أركان حرب وكتب كل شىء على الورق. كانت أمامه فى ذلك اليوم مجموعة من سبع صفحات فى حجم نصف «الفولسكاب» بدأت كما يلى:

الهدف: «تأميم شركة قناة السويس، وهذا يحقق إمكانية تمويل السد العالى كما أن التأميم يلبى حقا مصريا يراود أحلام كل المصريين، وهو أيضًا يؤكد الاستقلال المصرى الكامل بما فيه استقلال الإرادة السياسية، كما أنه يضيف أهمية القناة إلى أرصدة مصر الإستراتيجية».

تقدير الموقف: وقد استغرق هذا الجزء من الورقة معظم ماتبقى من صفحاتها فقد بدأ بأن **«قرار التأميم سوف يؤدى إلى تعبئة جماهير الشعب المصرى وجماهير الأمة العربية حوله ويلهم الجميع بمعنى الاعتماد على النفس. وتاميم شركة القناة أيضًا سوف يكون ردا كاملا على سياسة الغرب وفى مقدمته الولايات المتحدة الأمريكية وسوف يبين لهم أننا قادرون على الحركة متحملون لمسئولياتها وأنهم لايستطيعون بعد الآن أن يقرروا مصائرنا فضلا عن أن يقوموا بتوجيه الإهانات لنا.**

لكن الغرب لن يسكت وسوف يواجهنا بالتهديدات وبحملة سياسية ونفسية

ضارية، وفى الغالب فإننا سنواجه بتهديدات عسكرية يمكن أن تتحول إلى حرب بالفعل ما لم نستعمل كل إمكانياتنا بحذر وحرص..».



حتى هذه اللحظة كان «جمال عبد الناصر» يقرأ فى الأوراق التى كتبها فى الصباح الباكر من ذلك اليوم. ثم نحى الأوراق جانبا وراح يستكمل بقية تقديره للموقف شفويا. كان رأيه أن احتمال التدخل العسكرى هو ما يجب أن نتحوط له ونتفاداه بكل وسيلة إلا التراجع عن تأميم القناة إذا اتخذ القرار نهائيا وأعلن. وقد استعرض موقف كل الأطراف المعادية لمصر وأيهم يمكن أن يصل به رد الفعل إلى حد الحرب المسلحة. وقدر أن الجميع «نظريا» سوف يفكرون فى التدخل العسكرى كرد فعل أولى، لكن أطرافا عديدة بينهم سوف تعيد التفكير وتتردد:

● **الولايات المتحدة** سوف تتردد فى الغالب لأن تدخلها العسكرى ضد دولة صغيرة مثل مصر يعتبر إفلاسا سياسيا كما أنه سيؤدى إلى إحراجها بشدة أمام أطراف عربية صديقة لها فى المنطقة وبالذات السعودية.

● **فرنسا** لا تستطيع أن تتدخل بمفردها فهى مشغولة بحرب الجزائر ووضعها العالمى كله خصوصا بعد هزيمة الهند الصينية لايمكنها من عمل مسلح حاسم ضد مصر.

● **إسرائيل** قد تفكر فى التدخل عسكريا ولكنها لا تستطيع أن تتخذ من تأميم شركة ذريعة لشن الحرب، ثم إن تدخل إسرائيل عمليا ضد مصر سوف يجعلها حربا ضد الأمة العربية كلها وهذا يفرض على أمريكا محاولة «فرملة» إسرائيل. ثم إن إسرائيل من مصلحتها أن تنتظر لكى ترى صراع مصر مع الغرب كله يشتد ويعنف.

● **وأخيرًا**، فإن بريطانيا هى الطرف الذى يخشى من تدخله فعلا، ومن هنا فإن الموقف البريطانى هو مفتاح الموضوع كله، وإذن كيف يمكن أن تتصرف بريطانيا وكيف يمكن أن يتصرف «إيدن»؟



كان تقدير «جمال عبد الناصر» أن «إيدن» فى «موقف ضعيف، والضعف هو الذى سيغريه بالعنف، ثم إن منطقة الشرق الأوسط كانت هى المنطقة التى يعتبر «إيدن» نفسه خبيرا بشئونها وكان طموحه أن يقوم هو بترتيبها، ثم إن خروج «جلوب» من الأردن قد جعل «إيدن» يعتبره («جمال عبد الناصر») عدوه الرئيسى فى المنطقة، وقد فكروا فى عمليات اغتيال وفى تدبير اغتيال ولم ينجحوا حتى الآن ولكنهم فى حالة تعبئة نفسية ضد مصر وضده شخصيا حتى الذروة. وخطوة مثل تأميم قناة السويس سوف تكون القشة التى تقصم ظهر البعير، وسوف يكون «إيدن» تحت ضغوط نفسية من داخله وضغوط سياسية من حزبه ومن الرأى العام البريطانى تدفعه كلها للعمل المسلح ضد مصر، خصوصا وأن الجو الدولى العام الذى يمكن أن تصنعه دعاياته حول تأميم قناة السويس سوف يعطيه الأرضية الصالحة للتدخل المسلح».

وكان تقدير «جمال عبد الناصر» أن هذا «الجو الدولى العام نفسه هو الذى يتحتم على مصر أن تستغله وتستفيد منه لتفويت فرصة السلاح على الذين يفكرون فيه».

وكان تقديره أيضًا أن «إيدن» لابد أن «يتصرف بسرعة وأن يضرب الحديد وهو ساخن وإلا فإن المناخ العام للأزمة سوف يهدأ وسوف يبرد».

وكان تقديره كذلك أن «احتمال التدخل العسكرى ضد مصر سوف يكون محققا بنسبة ٨٠٪ خلال الأسبوع التالى للتأميم. فإذا انقضت هذه الفترة الحرجة تناقصت احتمالات التدخل».

فى الأسبوع الثانى والثالث من أغسطس سوف يكون الخطر بنسبة ٤٠٪.

خلال شهر سبتمبر سوف يكون الخطر بنسبة ٢٠٪.

حتى نهاية أكتوبر سوف يكون الخطر بنسبة ٢٠٪ ثم يبدأ فى التلاشى بعد ذلك لأن الفرصة قد تكون قد أفلتت تماما.



وسألنى «جمال عبد الناصر» وإن كان فى الحقيقة قد بدأ وكأنه يسائل نفسه: «كيف يمكن إذن أن نكثف عملنا السياسى للفترة الأولى لتفويت فرصة التدخل

العسكرى ضدنا؟ كيف نستطيع أن نكسب وقتا تبرد فيه الأزمة ويتعود العالم على التأميم؟» ثم مضى يطرح سؤالين:

١ـ ما هى فرص نجاحنا فى تنفيذ تأميم قناة السويس؟ وكان رده على هذا السؤال أن الفرص كبيرة لأن عملية قناة السويس فى صميمها عملية إدارة فالقناة كلها خدمة (Service) وهى فى هذا تختلف عن تأميم البترول الإيرانى الذى هو عملية إنتاج وتسويق (Production & Marketing) . والخدمة تعتمد على كفاءتها وأما الإنتاج والتسويق فهما يعتمدان على آخرين.

وإذا رآنا العالم نؤدى له خدمة القناة بكفاءة فلن يصغى إلى أصوات التدخل الحمقاء خصوصا إذا استطعنا كسب الوقت. وكان ظنه أن مصر تملك كفاءة إدارة الحركة فى قناة السويس.

٢ـ أما السؤال الثانى وهو أكثر تعقيدا فقد كان عن حجم القوات الجاهزة فى منطقة الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض مما يستطيع «إيدن» استعماله فى عملية عسكرية فورية ضد مصر.

«إذا كانت لديه قوات كافية فمعنى ذلك أن التدخل المسلح ضدنا حتمى.

وإذا لم تكن لديه قوات كافية جاهزة فما هو الوقت الذى سيمضى من الآن وحتى تجهز قواته؟

وإذا لم تكن لديه قوات جاهزة وبالتالى سوف يضطر إلى الانتظار ـ فما هى المبادرات السياسية التى تستطيع مصر أن تقوم بها لتفويت الفرصة عليه قبل أن تستعد قواته؟».



ثم حاول «جمال عبد الناصر» فى تقديره العام للموقف أن يستعرض أشكال التدخل العسكرى المحتمل. فبحث احتمالات الهجوم على القناة أو ضرب الإسكندرية أو التوجه مباشرة إلى القاهرة بعملية إنزال جوية. ثم استعرض قواعد

العمل العسكرى: البحر مباشرة من مالطة أو جبل طارق، أو القواعد العسكرية البريطانية فى ليبيا، أو قبرص.

ووصل إلى النقطة المحورية التى يلخصها سؤال حيوى هو: ما هو حجم القوات البريطانية القريبة منا وما هى درجة استعدادها؟ ثم ركز فى النهاية على قبرص مستبعدا القواعد البريطانية فى ليبيا لأنها بعيدة، ولأن الزحف منها يرغمها على التقدم مساحات شاسعة فى الصحراء المكشوفة، إلى جانب أنه سوف يؤدى إلى ثورة شعبية فيها.

وهكذا اقتصر بحثه الأساسى فى النهاية على قبرص، وتصرف على الفور، فقد بعث برسول إلى الأسقف «مكاريوس» الزعيم الوطنى القبرصى وإلى الجنرال «جريفاس» القائد العسكرى للمقاومة الوطنية فى قبرص، يطلب منهما كل معلومات متاحة عن حجم القوات البريطانية ودرجة استعدادها فى قبرص.

كانت مصر من قبل على اتصال بحركة التحرر الوطنى القبرصية التى نشطت ضد الاستعمار البريطانى للجزيرة. وقد قدمت مصر لها ما كانت تحتاج إليه من مساعدات فى ظروفها الصعبة وارتبطت معها بعلاقات وثيقة.

وكانت الثورة القبرصية وقواتها المسلحة «أيوكا» مستعدة لرد الجميل. وبالفعل فإن الجنرال «جريفاس» - كما قال فيما بعد فى رسالة لـ «عبد الناصر» - «عبأ كل رجل وامرأة وطفل لجمع المعلومات وكلف بعض رجاله الموثوقين أن يعززوا معلوماتهم بصور فوتوغرافية من داخل القواعد البريطانية فى قبرص» (١).

(ولكن «جريفاس» شأنه شأن أى «سياسى» - ! - لم يتورع عن استغلال الموقف بعد ذلك لصالح قضيته، فقد عرض على الإنجليز هدنة فى قبرص طوال فترة أزمة السويس إذا قبلت الحكومة البريطانية ببعض شروط حركة المقاومة القبرصية!!).

---

(١) استطاع المكتب الثانى فى الجيش السورى (المخابرات العسكرية) بقيادة العقيد «عبد الحميد السراج» أن يحصل على كمية لا بأس بها من المعلومات عن القوات البريطانية فى قبرص وبعث بها «السراج» فى ذلك الوقت إلى القاهرة.

[٢]

كان «جمال عبد الناصر» يستعد بخطابه التقليدى فى عيد الثورة يوم ٢٣ يوليو. وخطر له أنه قد يستطيع إعلان قرار التأميم فى هذا الخطاب. وحان موعد الخطاب ولم تكن ردود «مكاريوس» و «جريفاس» قد وصلت بعد. وهكذا ألقى «جمال عبدالناصر» خطابا عاديا فى هذه المناسبة أثناء حضوره حفل افتتاح خط جديد لأنابيب البترول بين السويس ومسطرد. لكنه حقق شيئا آخر أثناء إلقاء هذا الخطاب، فقد وقع بصره فى الصف الأول من حضور الحفل على المهندس «محمود يونس» وهو مسئول هيئة البترول المصرية والرجل الذى أشرف على بناء الخط. واستقر رأيه وهو يلقى خطابه على اختيار «محمود يونس» لإدارة قناة السويس.

وأخذه معه إلى بيته بعد انتهاء الاحتفال وأفضى إليه بالسر الكبير وكلفه بمسئولية التنفيذ. وكان المشهد مؤثرا لأن «محمود يونس» قفز من مقعده يحاول تقبيل «جمال عبد الناصر» لأنه بهذا القرار يحقق العزة والكرامة بالفعل لمصر. ثم راحت دموعه تجرى على خديه فرط تأثر وحماسة، وطلب إليه «جمال عبد الناصر» أن يتمالك مشاعره لأن أمامه أياما عصيبة فكل شىء بعد إعلان القرار سوف يكون متوقفا عليه.

وفى صباح الأربعاء وصلت تقارير «مكاريوس» و «جريفاس» من قبرص:

● هناك حاملة طائرات بريطانية واحدة فى البحر الأبيض وهى راسية الآن فى مالطة، وهناك مدمرة واحدة تقوم بأعمال الدورية فى مثلث يمتد بين قبرص والإسكندرية وحيفا، وهناك فى قبرص قوات برية. تقدر بثلاثة ألوية (لواء الحرس من الفرقة الثالثة مشاة ـ لواء الكوماندوز الثالث ـ لواء مظلات).

● تقدير الجنرال «جريفاس» أن القوات البريطانية لا تستطيع فى أوضاعها الراهنة القيام بعمليات عسكرية واسعة خارج الجزيرة لانشغال معظمها بمواجهة الثورة القبرصية.

● مما يدل على دقة هذه المعلومات عن حجم القوات البريطانية ودرجة

استعدادها أنها قبل فترة قصيرة طلبت مددا إضافيا يلحق بها لأنها وحدها لاتستطيع مواجهة الثورة القبرصية.

كان معنى هذا كله أن بريطانيا وحدها لا تستطيع بسرعة، والثغرة التى تتبقى هى ما إذا كانت بريطانيا على استعداد للتحالف مع أطراف أخرى ودفعها للاشتراك معها: فرنسا أو إسرائيل. **واستبعد «جمال عبد الناصر» إمكانية تحقق ذلك وكان هذا هو الخطأ الظاهر الذى شاب تقديره للموقف.**



واستقر رأى «جمال عبد الناصر» على إعلان قراره التاريخى فى خطابه التقليدى الثانى فى أعياد الثورة وهو خطابه فى الإسكندرية يوم ٢٦ يوليو. وصباح ذلك اليوم دعا إلى اجتماع مشترك بين أعضاء مجلس الثورة (الذى حل نفسه بعد انتخاب «جمال عبد الناصر» رئيسا للجمهورية) ومجلس الوزراء بكامل هيئته وانعقد الاجتماع فى بيت على شاطئ «جليم» بالإسكندرية كان «جمال عبد الناصر» قد استأجره لتقضى فيه أسرته أجازة الصيف فى الإسكندرية.

وفى الاجتماع طرح «عبد الناصر» لأول مرة وعلى نطاق أوسع قرار تأميم قناة السويس. وحين سمع حضور الاجتماع عرض «جمال عبد الناصر» للموضوع كان رد فعلهم الأول هو التصفيق وكانت هذه هى أول مرة يسمع فيها تصفيق فى اجتماع مجلس الوزراء. كانت قناة السويس جرحا فى ضمير كل مصرى وكانت استعادتها لمصر حلما من أكبر الأحلام وإن بدا أكثرها استحالة، ولذلك ترك الوزراء أنفسهم لشعورهم الوطنى الطبيعى. ثم جاء رد فعلهم الثانى الذى يحسب ويقدر ويتخوف ويحذر أمام احتمالات الخطر وتعدد مصادره. وطرحت أسئلة واقتراحات مختلفة:

● سأل أحد الوزراء ما إذا كان من الأفضل الفصل بين سحب أمريكا لعرض تمويل السد العالى وبين قرار تأميم شركة قناة السويس لأن الربط بينهما قد يكون استفزازا للولايات المتحدة يدفعها إلى حماقة أخطر؟ وكان رد «جمال عبد الناصر» أن الربط بين الأمرين ضرورى «لأن هناك اعتبار كرامة يقتضى الرد على الإهانة

الأمريكية. ومن ناحية أخرى فإن الربط سوف يقوم به الآخرون حتى وإن حاولنا نحن أن نفصل. وكذلك فإن ضرورات تمويل السد العالى سوف تكون هى سندنا فى حتمية التأميم».

● **وسأل أحد الوزراء** عما إذا كان من الأفضل توجيه إنذار بالتأميم إذا لم ترجع الولايات المتحدة فى قرارها بالانسحاب من المساهمة فى تمويل السد العالى؟ وكان رد «جمال عبد الناصر» على ذلك بأننا «بهذا سوف نعطيهم فرصة لاستكمال استعدادهم ثم إن توجيه إنذار من هذا النوع سوف يكون فيه نوع من التسول أو الابتزاز على أحسن الأحوال وهوموقف لا ضرورة له».

● **وسأل أحد الوزراء** ما إذا كان ممكنا أن يكتفى بتأميم نصف أسهم الشركة بدلا من تأميمها بالكامل حتى لا يجن جنون الغرب؟ وكان رد «جمال عبد الناصر» هو أن «المخاطر الناجمة عن تأميم ٥٠٪ هى نفسها المخاطر التى يمكن أن تنجم عن تأميم ١٠٠٪ من الأسهم. فما سوف يثير غضب الآخرين هو قدرة مصر على ممارسة إرادتها الحرة. ولهذا فلا فائدة من الوصول إلى منتصف الطريق».



واتجهت المناقشات بعد ذلك إلى احتمالات التدخل العسكرى ومن الذى يتدخل؟ وشرح «جمال عبد الناصر» تقديره للموقف ثم وصلت المناقشات إلى أوضاع الاستعداد العملى للمرحلة المقبلة، وكان تقرير الدكتور «كمال رمزى ستينو» وزير التموين هو أهم ما أراد «جمال عبد الناصر» أن يسمعه لأن مخزون السلع المتوافرة للاستهلاك داخل السوق المصرية كان بين النقط الحساسة فى القرار.

وكانت النقطة الحساسة الثانية هى تقرير الدكتور «عبد المنعم القيسونى» وزير الاقتصاد عن أرصدة مصر المالية فى العالم الخارجى. وسأله «جمال عبد الناصر» ما إذا كان يستطيع تحريك بعضها بسرعة. وقال الدكتور «القيسونى» إنه سيبذل كل جهده.

وانتهى الاجتماع بأن قال «جمال عبد الناصر» للمجتمعين:

«إننى أريد أن أكون منصفا لكم جميعا فاسجل هنا أننى أتحمل مسئولية قرار تاميم شركة قناة السويس، وللشعب المصرى وللتاريخ أن يحاسبونى عليه فلست أريد لأحد منكم أن يتحمل بمسئولية قرار خطير لم يعرف به إلا قبل إعلانه بوقت قصير!».

□

ولم يكن أحد خارج هذه الدائرة المحدودة يعرف حتى هذه الساعة ما هو رد «جمال عبد الناصر» على الإهانة التى تضمنها البيان الأمريكى بسحب عرض المساهمة فى تمويل السد العالى ولا كيف يمكن لمصر أن تمول هذا المشروع وتنفذه معتمدة على نفسها كما أعلن «جمال عبد الناصر» فى خطابه يوم ٢٢ يوليو حيث قال **«إننا سنبنى السد العالى بأيدينا ولو بالمقاطف»!** .

وكانت هذه الأسئلة هى موضوع تكهنات كل الدبلوماسيين الأجانب فى القاهرة وكل المراقبين السياسيين والصحفيين فيها ولم يخطر ببال أحدهم أن الرد سوف يكون بتأميم قناة السويس. **لكن سفيرًا واحدًا فى القاهرة أحس بالاتجاه الصحيح للضربة وكان هو السفير الفرنسى الكونت «أرمان دو شايلا»! «ومع ذلك فالراجح أنه لم يكن متاكدا من صدق حدسه فإنه لم يخطرشركة قناة السويس سواء فى مقرها الرسمى فى الإسماعيلية أو فى مركزها الفخم فى القاهرة. وقد اكتفى السفير الفرنسى بأن بعث بتصوره لما يمكن أن يفعله «جمال عبد الناصر» فى برقية إلى وزارة الخارجية الفرنسية فى باريس، ووصلت برقيته وجرى حل شفرتها بعد أن كان «جمال عبد الناصر» قد أعلن فعلا تاميم شركة قناة السويس. وأشر «كريستيان بينو» على التقرير بكلمتين كتب فيهما: «متأخر جدًا»** (Trop Tard).



كانت تعليمات «جمال عبد الناصر» إلى «محمود يونس» أن يكون مستعدًا للتحرك والاستيلاء على كل مكاتب ومرافق شركة قناة السويس فى القاهرة وبورسعيد والسويس والإسماعيلية فى اللحظة التى يسمعه فيها يذكر أثناء خطابه فى الإسكندرية اسم «فرديناند ديليسبس».

وقف «جمال عبد الناصر» فى ميدان المنشية فى الإسكندرية أمام مؤتمر شعبى حاشد ليلقى خطابه التاريخى. فعرض لمفاوضات مصر مع البنك الدولى والولايات المتحدة وبريطانيا حول تمويل السد العالى، ثم شبه «يوجين بلاك» رئيس مجلس إدارة البنك الدولى بـ «فردينانِد ديليسبس» الذى انتزع جزءا من السيادة المصرية بالضغط والإغراء، ثم حرص على أن يكرر اسم «ديليسبس» فى خطابه ١٣ مرة حتى يتأكد أن «محمود يونس» تلقى الإشارة المتفق عليها وتحرك.

والحقيقة أن «محمود يونس» بدأ تحركه من اللحظة التى سمع فيها اسم «ديليسبس» لأول مرة. وعندما تلى «جمال عبد الناصر» أثناء خطابه «**قرار رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس**» كان «محمود يونس» **قد احتل مبنى الشركة الرئيسى فى الإسماعيلية، كما كانت المجموعات التى شكلها قد أمسكت بالمرفق الحساس كله وسط صدمة أصابت مديريها وموظفيها جميعًا**» !(١).

[٣]

كان إعلان تأميم شركة قناة السويس فرحة كبرى عمت مصر كلها وفاضت على العالم العربى وامتدت تأثيراتها إلى بعيد فى أسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

وقد تحقق تقدير «جمال عبد الناصر» فى أن قرار التأميم سوف يعبئ الشعب المصرى والأمة العربية على نحو غير مسبوق من قبل.

وتوالت رسائل التأييد من كل العواصم العربية وكان فوران المشاعر من المحيط إلى الخليج متدفقا كما هو فى القاهرة. ولم تكن الحماسة حالة عاطفية فحسب، وإنما برزت معها وعلى نحو لا يقبل الشك إرادة أمة أحست أنها صانت كرامتها وحققت إرادتها.

---

(١) لقد كتب كثيرون عن تفاصيل الطريقة التى تم بها تنفيذ قرار التأميم، كما أن معظم هذه التفاصيل أصبح شائعا ومعروفا، ولهذا فإنى آثرت ألا أعيد تكرار ما تعرض له هؤلاء الذين تفضلوا بالكتابة غيرى. أو تكرار ما هو شائع ومعروف.

ورغم بعض التحفظات والمخاوف التى ساورت بعض مراكز الحكم والسلطة فى العالم العربى، فإن موجة التأييد الشعبى دفعت الكل على طريق واحد.

وذهب السفير السعودى فى القاهرة إلى رئاسة الجمهورية يحمل رسالة تلقاها من الملك «سعود» نصها:

«قابل حالا السيد الرئيس وارفع له باسمنا تاييدنا الكامل للخطوة التى خطاها فى تاميم شركة القناة ونحن واثقون أن الرئيس يعرف موقفنا واتجاهنا وتاييدنا المطلق له فى شتى مجالات التعاون، وارفعوا لسيادته تحياتنا وتمنياتنا الطيبة (١).

توقيع

سعود»



وكان «جمال عبد الناصر» ينتظر باهتمام رد فعل الاتحاد السوفيتى. لكن رد الفعل السوفيتى تأخر ثمانية وأربعين ساعة لأن السوفييت كعادتهم كانوا يحسبون الأمور بطريقتهم الخاصة، وقد أدركوا خطورة قرار تأميم شركة قناة السويس. واجتمعت القيادة السوفيتية عدة مرات قبل أن تصدر بيانا هادئا يقول: **«إن القناة ملك لمصر وإن تاميمها إجراء قانونى عادى لصالح اقتصاد مصر»** .

ولم يكن ذلك رد الفعل فى لندن وباريس وواشنطن وتل أبيب.

---

(١) صورة الرسالة منشورة فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٢٠) .

الفصل الثانى

لقد حان الوقت !

[١]

فى لندن مساء الخميس ٢٦ يوليو كان «إيدن» يقيم حفل عشاء فى مقر رئيس الوزراء البريطانى (رقم ١٠ داوننج ستريت) تكريما للملك «فيصل» ملك العراق الشاب ومعه السيد «نورى السعيد» رئيس وزرائه. وكان العشاء فى قاعة الطعام الرئيسية فى الدور الثانى من البيت. وكان «إيدن» قد دعا إلى العشاء عددا من كبار وزرائه بينهم اللورد «سالسبورى» واللورد «هيوم» و«سلوين لويد».

وكان الحديث (١) معظم الوقت على العشاء يدور حول أوضاع العالم العربى بما فى ذلك آخر التطورات فيه وأهمها قرار «دالاس» بسحب العرض الأمريكى بالمساهمة فى تمويل السد العالى. وكان «إيدن» مهتما بأن يشرح لزواره **«كيف أن الأمريكان رأوا الضوء أخيرا وساروا معه فى سياسته التى رآها منذ البداية وهى ضرورة إيقاف «ناصر» عند حده وحصر خطره تمهيدا لتصفيته»**.

وعلق «نورى السعيد» على ذلك بقوله **«إن صيغة البيان الأمريكى لا تترك مجالا للشك فى أن هدف السياسة الأمريكية أصبح إسقاط «جمال عبد الناصر»** . ثم تطرق الحديث على المائدة إلى ما يمكن أن يفعله «جمال عبد الناصر» بـ «سده العالى». وكان

---

(١) كل التفاصيل الواردة فى هذا الجزء تعتمد على تقارير «أنتونى ناتنج» وزير الدولة البريطانى واللورد «مونتباتن» قائد الأسطول البريطانى فى ذلك الوقت، وكذلك على شهادة اللورد «سالسبوى» واللورد «كيلموير». وكذلك على تقرير «ويليام كلارك» المستشار الصحفى لرئيس الوزراء البريطانى.

تعليق «إيدن» أن الروس لا يستطيعون مساعدة «جمال عبد الناصر» لأن الكتلة الشيوعية بما فيها الصين سوف تثور عليهم إذا قدموا لمصر مساعدة بهذا الحجم وهم لا يحصلون على مثلها». وإلى جانب ذلك فإن «إيدن» أضاف «أن حجم المشروع أكبر من حجم المساعدات الخارجية التى يقدمها الاتحاد السوفيتى للعالم كله عشرين مرة»

وفى الساعة التاسعة والنصف بتوقيت لندن كان العشاء قد قارب نهايته- حين دخل إلى القاعة على غير انتظار رئيس السكرتارية الخاصة لـ«إيدن» يحمل إليه برقية عاجلة حملتها وكالات الأنباء على الفور من القاهرة. وقرأ «إيدن» البرقية واحتقن وجهه بطريقة لفتت أنظار ضيوفه جميعا وقال لهم **«إن الطاغية أعلن الآن أنه أمم شركة قناة السويس ليبنى بدخلها «سده العالى»».**

انقضت صاعقة على قاعة العشاء. ولوهلة كان الكل يتكلم وليس هناك من يستمع إلا ملك العراق الشاب الذى لم يفتح فمه بكلمة واحدة، وأما رئيس وزرائه «نورى السعيد» فقد بلغ به الهياج مبلغه وراح يقول لـ «إيدن» **«إن بريطانيا يجب أن تضربه وأن تضربه الآن وأن تضربه بقسوة»** (١) .

وفى هذه اللحظة كان طبق الحلو وهو سلطة فواكه بالآيس كريم يوضع أمام الضيوف ولم يكن لدى أحد منهم استعداد للمسه. ولعل العراقيين أحسوا أن ضيافتهم قد انتهت لأن مضيفهم البريطانى أمامه ليل طويل حافل.

وهكذا انفض الحفل.



واستبقى «إيدن» من كانوا معه من وزرائه على العشاء وطلب استدعاء بعض الوزراء الآخرين بالإضافة إلى المارشال «تمبلر» رئيس أركان حرب الإمبراطورية والأميرال اللورد «مونتباتن» ، وكذلك طلب دعوة السفير الفرنسى «شوفيل» والقائم

---

(١) كل المصادر والشهادات أجمعت على أن هذه كانت كلمات «نورى السعيد» بالحرف.

بالأعمال الأمريكى «فوستر»، ثم طلب فتح قاعة اجتماعات مجلس الوزراء لكى ينتقل الكل إليها لمناقشة آخر التطورات.

ويروى اللورد «كيلموير» فى شهادته أن مشهد اجتماعهم كان عجيبا، فقد كانوا جميعا فى ملابس السهرة التى حضروا بها العشاء، كما كانت النياشين على صدورهم احتفالا بضيفهم الملكى، بل كان أحدهم وهو اللورد «سالسبورى» يرتدى الزى الخاص الذى يرتديه حملة وشاح «ربطة الساق» (١)!

وكان ما يلفت النظر أن السفير الفرنسى «شوفيل» وصل إلى رئاسة مجلس الوزراء البريطانى، وقد اصطحب معه «جورج بيكو» المدير العام لشركة قناة السويس، ورجاه «سلوين لويد» بناء على طلب من «إيدن» أن يجعله ينتظر خارج قاعة الاجتماع لأن حضوره مناقشات على مستوى وزارى ودولى قد يثير فى هذا الوقت أقاويل لا داعى لها.

وطبقا لوثائق وزارة الخارجية الأمريكية فإن القائم بالأعمال الأمريكى «فوستر» بعث بتقرير إلى وزارة الخارجية الأمريكية فى الساعة الخامسة صباحا بعد انتهاء الاجتماع، وبالتالى فإن تقرير «فوستر» يعطى صورة دقيقة من داخل الاجتماع لتفاصيل ما جرى فيه.

كان نص (٢) تقرير «فوستر» كما يلى:

[« أرسل إلىّ «إيدن» يدعونى إلى اجتماع فى رقم ١٠ داوننج ستريت وقد وصلت إلى هناك فى الساعة الحادية عشرة ووجدت نفسى مشتركا فى اجتماع طوارئ عقده مجلس الوزراء البريطانى وحضره رؤساء أركان الحرب بالإضافة إلى السفير الفرنسى ـ لمناقشة ما قام به «ناصر» من تاميم لقناة السويس.

---

(١) وسام «ربطة الساق» هو أعلى وسام بريطانى وهو يمنح فى الغالب لأمراء الأسرة المالكة ورؤساء الوزارات وهو يقتضى من حامله زيا تقليديا بالغ الفخامة والأبهة.

(٢) مجموعة وثائق الخارجية الأمريكية لشهر يوليو ١٩٥٦ وقد أبيح الاطلاع عليها قبل الموعد القانونى لفتح ملفات هذه السنة بمقتضى قانون حرية المعلومات.

إن المجلس كان يسوده شعور بخطورة الموقف كما كانت تتملكه مشاعر قوية خصوصا لدى «إيدن» الذى قال صراحة «إنه لا يمكن لنا أن نسمح لـ«ناصر» أن يهرب بغنيمته». وعندما نوقش الجانب القانونى فإن الرأى السائد كان أن «ناصر» وإن كان قد أخل بعقد الالتزام الممنوح لشركة القناة فإن قرار التأميم لايشكل خرقا لمعاهدة القسطنطينية ١٨٨٨».

ولكن المشكلة سوف تقع فى الغالب إذا اختلت حركة الملاحة والصيانة وغيرها من العمليات فى القناة.

وقد وافق المجلس على أن اللجوء إلى مجلس الأمن مخاطرة قد تؤدى إلى تعطيل الموقف وتجميده. وكان إجماع المجلس على أنه مهما كانت حجج القانون الدولى - فإن حكومات الغرب لابد أن تبحث الإجراءات الاقتصادية والسياسية والعسكرية ضد مصر لكى تضمن سلامة قناة السويس وحرية المرور فيها برسوم معقولة. وكانت المشكلة التى تواجه المجلس الليلة هى بالطبع المدى الذى يمكن أن تذهب إليه الولايات المتحدة فى تأييد - والاشتراك فى - موقف حازم ضد «ناصر» فى مجال العقوبات الاقتصادية ثم الحربية بعد ذلك إذا كان لازما.

وقد قلت إن الولايات المتحدة بالتأكيد تعتبر الموقف خطيرا وإننى سوف أسعى بطريقة فورية للحصول على مؤشرات من حكومتى بصدد موقفنا. وقد حدد لى «إيدن» و «سلوين لويد» موعدا للعودة إلى مقابلتهما فى الساعة الخامسة من مساء اليوم (الجمعة) على أمل أن أكون قد تلقيت فى ذلك الوقت تعليمات منكم.

ولقد اقترحت أثناء الاجتماع ضرورة أن تواصل الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا مناقشاتهم وأن يشركوا فيها بعض الحكومات الصديقة كأعضاء الكومنولث وكبار مستخدمى القناة كالنرويج مثلا، وقد أوضحت أنه لا داعى للعودة إلى قائمة الدول الموقعة على ميثاق القسطنطينية ١٨٨٨ . ورد على «إيدن» بقوله إنه يفضل أن تقتصر المشاورات فى الوقت الحاضر على

واشنطن ولندن وباريس. وكان من الواضح أن فى ذهنه عقد مؤتمر وزارى بين الدول الثلاث فى وقت قريب جدا.

وقد تلقى المجلس أثناء اجتماعه برقية من السفير البريطانى فى القاهرة يسأل الحكومة عما يمكن أن يكون عليه تصرف شركة قناة السويس، لأن الشركة اتصلت به تسأله عن الطريقة التى ينبغى أن يتصرف بها موظفوها وخصوصا المرشدون إزاء قانون التأميم، خصوصا وأنهم أبلغوا بأن الشركة كلها وضعت تحت الأحكام العسكرية، وأن أى واحد منهم يمتنع عن العمل أو يقدم استقالته سوف يتعرض للعقاب.

وكان رد فعل «إيدن» على الفور إزاء هذه البرقية هو «أننا لا نستطيع أن ننصح هؤلاء جميعا بمواصلة العمل حتى وإن تعرضوا للسجن، ثم إن بقاءهم فى أعمالهم معناه الرضوخ لابتزاز «ناصر»، وعلى أى حال فإن القرار النهائى فى هذا الشأن قد تأجل إلى اليوم».

وقرر مجلس الوزراء فى حضورنا أن ترفع القوات البريطانية درجة استعدادها فى البحر الأبيض المتوسط، ثم أصدر رئيس الوزراء تعليمات إلى رؤساء أركان حرب أن يقدموا له على وجه السرعة تقريرا عن حجم القوات المتاحة للقيام بعمل عسكرى يتم به الاستيلاء على قناة السويس. وقرر المجلس أيضا فى حضورنا إصدار البيان الرسمى التالى:

«إن القرار التعسفى الذى أصدرته الحكومة المصرية بتأميم شركة قناة السويس بدون إخطار سابق وخلافا لعقد الامتياز - يمس المصالح الحيوية لأمم كثيرة. إن حكومة صاحبة الجلالة الملكة فى تشاور عاجل مع بعض الحكومات المهتمة بالأمر فى صدد الموقف الخطير الناشئ عن تأميم شركة قناة السويس، وما يمكن أن يكون له من أثر على عملياتها من جراء هذا القرار التعسفى».

وبعد الموافقة على هذا القرار فى حضورنا قال «إيدن» لى وللسفير الفرنسى إنه يأمل أن تصدر حكوماتنا بيانات مشابهة. وحين كان الاجتماع

ينفض اتجه «سلوين لويد» نحوى وقال لى «إنه وصل إلى نتيجة مؤداها أن الحل الوحيد هو إقامة إدارة دولية لقناة السويس يتم فرضها بالقوة المسلحة إذا كان ذلك لازما».

إننى أرجوكم أن تردوا علىّ بسرعة بخصوص إمكانيات إصدار بيان أمريكى مشابه للبيان البريطانى، أو بما يمكن أن أذكره عن موقفنا لكل من «إيدن» و «سلوين لويد» .

إمضاء

فوستر»]

وتعطى شهادة (١) الأميرال اللورد «مونتباتن» . صورة الجانب الآخر وهو الجانب العسكرى فيقول فى شهادته المكتوبة ضمن مجموعة أوراقه والتى نشرها مؤرخه الرسمى «فيليب زيجلر»:

[«إن قيادات القوات كانت بالطبع تعرف حقائق الوضع السياسى فى الشرق الأوسط. ولم أكن شخصيا متفقا مع تقدير «إيدن» لـ «ناصر» بانه «هتلرى» أو «شيوعى» وإنما كنت أعتقد باستمرار أن «ناصر»، وطنى يضل طريقه مرات ويتخذ سياسات تصعب فى بعض الأحيان متابعتها.

وفى مساء ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ كنت أتناول العشاء مع «باتريشيا» (ابنته) فى فندق «سافوى» ولمحت أحد ضباط وزارة الدفاع يجيل بصره فى القاعة بحثا عن شىء وأدركت أنه يبحث عنى وشعرت أن المتاعب قد انطلقت من عقالها. وبعد ربع ساعة كنت فى رقم ١٠ داوننج ستريت. وهناك وجدت رئيس الوزراء ومعه عدد من أعضاء المجلس كما أن كلا من السفير الفرنسى والقائم بالأعمال الأمريكى وصلا بعدى بقليل. وكان الجنرال «درموت بويل» رئيس أركان حرب الطيران قد سبقنى إلى مقر رئيس الوزراء، كما أن المارشال «تمبلر» لم يلبث أن لحق بنا والتفت إلىّ رئيس الوزراء وسألنى ما هو العمل

---

(١) صفحة ٥٣٧ . أوراق «مونتباتن» .

العسكرى الذى نستطيع القيام به فورًا ضد «ناصر؟» وقلت له إنه «إذا كانت الحكومة تفكر فى الاستيلاء على قناة السويس بعمل مفاجئ فإن لدينا ١٢٠٠ جندى بحرية مظلات جاهزون فى مطار مالطة، ولا أظن أنه سيكون من الصعب عليهم أن يهبطوا على المنطقة ويستولوا على المرافق الهامة فى الممر المائى ويحافظوا على مواقعهم لمدة ٢٤ ساعة. وأما أكثر من ذلك فأنا لا أعتقد أنهم يستطيعون الصمود أمام المقاومة المصرية، وإذن فإن النقطة التالية التى تواجهنا هى كيف يمكن تعزيز هذه القوات بسرعة؟، واعترض المارشال «تمبلر» بـ «أنه لايوافق على إرسال قوات مشاة بحرية مظليين لايحملون إلا أسلحة خفيفة بطبيعة الحال وبالتالى لايمكنهم الصمود أمام الدبابات المصرية» . وعلق الجنرال «ستوكويل» (١) بعد ذلك «إن قوات المظليين البحرية ليست مؤهلة فى أوضاع تدريبها الحالى للقيام بمثل هذه العملية»(٢). وأحسسنا أن رئيس الوزراء ليس سعيدا بما سمعه منا، فقد طلب إلينا أن نعود إليه فى الساعة التاسعة والربع من صباح اليوم التالى ومعنا خطة عسكرية كاملة للعمل ضد مصر. وقدمنا له مقترحاتنا فى الموعد المقرر ولكن تنفيذها يقتضى إعدادا يستغرق ما بين ستة إلى ثمانية أسابيع على الأقل. واتصل بى رئيس الوزراء بعد ذلك تليفونيا يسألنى عن مصير مدمرتين كان مقررا أن يقوم الأسطول الملكى البريطانى بتسليمهما إلى مصر التى اشترتهما منذ عدة سنوات، وقال لى «إيدن» إن هاتين القطعتين لا يمكن تسليمهما للمصريين» . وقلت «إن عدم تسليمهما الآن قد يعطى المصريين فكرة عن نوايانا، وقد يكون من الأفضل تسليم القطعتين وبدون ذخائر». ووافق رئيس الوزراء على مضض ثم شجعنى بعد ذلك قائلا لى إنه سعيد لأننى سأكون بجانبه فى الأزمة المقبلة. وقلت له «بالطبع إن كل رئاسة الأركان

---

(١) أصبح فيما بعد قائدًا لقوات الغزو الثلاثى أثناء حرب السويس.

(٢) يروى مستشار «إيدن» الصحفى «ويليام كلارك» أن رئيس سكرتارية «إيدن» الذى كان يتولى كتابة محضر الجلسة بعث إليه فى هذه اللحظة بورقة يلفت نظره فيها إلى أن الاجتماع تشترك فيه أطراف أجنبية لايصح أن تعرف بدخائل السياسة البريطانية على هذا النحو ولكن «إيدن» لم يتنبه !

سوف تنفذ ما تطلبه». وبعد تفكير عميق قررت أن أكتب له خطابا شخصيا كصديق قديم وليس كبحار محترف. فقد وجدت من حقه عليّ أن يعرف بحقيقة تفكيرى فى هذه اللحظة العصيبة من التاريخ البريطانى. فكتبت له فى خطاب سرى ما نصه :

«إن الاعتبار الأول فى المواجهة الحالية واحتمالاتها القادمة سوف يرتهن بقدراتنا على تعبئة الرأى العام الدولى إلى جانبنا. ولدينا ستة أسابيع لتحقيق ذلك «وناصر» أيضا لديه نفس المدة، وإذا كان مصابا بجنون العظمة كما نظن، فقد يكون من الأوفق أن نطبق عليه عقوبات اقتصادية وأنواعا أخرى من الضغوط ريثما ينكشف موقفه أمام الرأى العام العالمى والرأى العام البريطانى أيضا. فالمأزق الذى نواجهه فى هذه اللحظة هو أن «ناصر» يتصرف بحرص شديد، ويضع تصرفه فى إطار من المشروعية القانونية تعطيه ميزة فى الحرب النفسية الدائرة على كسب ضمير العالم. وما لم نتصرف بتعقل فإن خشيتى أن تبدو معركتنا ضده وكأنها حرب استعمارية»] .

وقبل أن يرسل «مونتباتن» خطابه خطر له أن يتشاور فى شأنه مع المارشال «تمبلر» رئيس هيئة أركان حرب الإمبراطورية، ونصحه «تمبلر» أن لا يقدم الخطاب لأنه يحمل شبهة رأى سياسى يتدخل به العسكريون فى صميم عمل السلطة التنفيذية، وحتى إذا كان يقصد إلى أن يكون الخطاب شخصيا من صديق إلى صديق فإن «إيدن» فى هذه الظروف ليس مستعدا أن يسمع من أحد.

ولم يقتنع «مونتباتن» بنصيحة «تمبلر»، وإن كانت قد أوحت إليه أن يضيف فى خطابه إلى «إيدن» فقرة أخرى يقول فيها:

[«إذا كنا نحارب عدوا ظاهرا يريد أن يفرض سيطرته على الشرق الأوسط بقوة السلاح لوقفت وراءك بغير حدود، ولكن الحقيقة أنه لا يوجد عدو من هذا النوع فى الشرق الأوسط. إن المعركة الدائرة فى الشرق الأوسط فى جوهرها حول أفكار ومشاعر وولاءات وكلها أشياء لا يمكن أن تصل إليها الحراب. فأنت

لا تستطيع أن تحارب الأفكار بالقوات المسلحة. وحتى إذا تراجعت هذه الأفكار أمام السلاح فإنها لاتلبث أن تكر عائدة عندما تنسحب القوات»] .

وأرسل «مونتباتن» خطابه إلى «إيدن» فى نفس اليوم الذى ذهب فيه رؤساء الأركان إلى مقر رئاسة الوزارة البريطانية لكى يعرضوا على «إيدن» خطة العمليات الأولى، وقد اختاروا لها الاسم الرمزى «الفارس» (Musketeer)، وكانت خطوطها الرئيسية هجوما بحريا على الإسكندرية تعقبه عملية إنزال واسعة النطاق ثم تتقدم فيه القوات صوب القاهرة، وبعد ثلاثة أيام من بدء هذا الهجوم، وحين تكون مصر قد ركزت قواتها العسكرية لصده يحدث الإنزال الثانى على منطقة قناة السويس فيحتلها ويعزل القوات المصرية فى سيناء عن قواعدها فى بقية مصر.

وأثناء الدراسات الأولى لهذه العملية نشأت مشكلة الطريقة التى تحكم بها مصر بعد الاحتلال، وقرر «إيدن» أنه لا لزوم لإضاعة الوقت فى هذه النقطة الآن **فالسلطة فى المراحل الأولى سوف تكون فى يد القيادة العسكرية البريطانية العليا وسوف ينصاع لأوامرها الجهاز الإدارى المصرى، وفى الوقت المناسب تستطيع السفارة البريطانية فى القاهرة أن تبحث عن «من يكون مستعدا من الساسة المصريين المامونين لتولى الحكم فى مصر».**

[٢]

كتب السفير الفرنسى فى لندن «شوفيل» إلى «كريستيان بينو» وزير خارجيته برقية عن تفاصيل الاجتماع الذى حضره مع «إيدن»، ولم تكن تخرج فى إطارها عن التقرير الذى بعث به «فوستر» القائم بالأعمال الأمريكى - الذى حضر نفس الاجتماع - إلى وزير خارجيته « د الاس». واقترح «كريستيان بينو» أن يطير على الفور إلى لندن ليجتمع مع الزعماء الإنجليز. واقترح «بينو» على «سلوين لويد» عندما التقى به فى لندن أن يطلبا من «دالاس» أن ينضم إليهما فى لندن فالأزمة خطيرة إلى حد أنه لا يمكن التعامل معها على مستوى السفراء أو بالبرقيات.

وصل «بينو» إلى لندن يوم ٢٨ يوليو وأرسل بالاشتراك مع «لويد» دعوة إلى «دالاس». وفى نفس الوقت كتب «إيدن» لـ «أيزنهاور» خطابا «شخصيا (١) يقول له فيه: «إن الوقت قد حان لعمل حاسم ينهى مشكلة «ناصر» وإلا فإن المصالح الغربية فى الشرق الأوسط سوف تصاب بنكسة لن تقوم منها، كما أن مصالح كل الدول البحرية سوف تضار لأن المصريين لا يملكون الكفاءة اللازمة لإدارة مرفق معقد كقناة السويس». وختم «إيدن» خطابه بقوله «**إن الضرورات تفرض الآن على الغرب إعادة «ناصر» إلى صوابه بالقوة وطرده من مصر بعد إرغامه على «استفراغ» القناة التى حاول بلعها**».

كان «دالاس» خارج واشنطن فى أجازة حملته إلى أمريكا اللاتينية وطلب إليه «أيزنهاور» أن يقطع أجازته ويعود، ثم قرر إزاء إلحاح حلفائه الإنجليز والفرنسيين المجتمعين فى لندن فى انتظار وزير خارجيته أن يوفد إليهم على الفور «مورفى» مساعد الوزير، لكى يمثل وزارة الخارجية الأمريكية وحتى يتمكن وزيرها - «دالاس» - من اللحاق بالاجتماع بنفسه.

ولم يكن «سلوين لويد» و «كريستيان بينو» فى انتظار زميلهما الأمريكى ساكتين، فقبل أن يصل «مورفى» كمقدمة لوصول «دالاس» اتفقت الحكومتان البريطانية والفرنسية على توجيه احتجاج شديد اللهجة إلى مصر بسبب تأميمها لشركة قناة السويس.

ورفضت مصر تسلم الاحتجاج من أساسه.

ثم قررت الحكومتان البريطانية والفرنسية تجميد أرصدة مصر وودائعها فى البنوك البريطانية والفرنسية.

وتبعتهما الولايات المتحدة فى هذا الإجراء .



---

(١) مجموعة أوراق لورد «آفون» (إيدن) فى كلية «سان أنتونى».

ودعا الرئيس «دوايت أيزنهاور» - مساعد وزير الخارجية الأمريكية «روبرت مورفى» إلى مقابلته قبل أن يطير إلى لندن. وطبقا لمجموعة أوراق «أيزنهاور» الخاصة فإن تعليمات الرئيس الأمريكى لـ «روبرت مورفى» كانت كما يلى:

١ - عليك أن تعطل الوصول إلى أية قرارات قبل أن يحضر إليكم فى لندن وزير الخارجية «دالاس».

٢ - عليك أن تبلغ «أنتونى» أننى لا أرى داعيا لكل هذه الهستيريا التى تبدو فى التصرفات البريطانية، فالصحف ووكالات الأنباء والإذاعات ملأى بأخبار صادرة من لندن عن استعدادات عسكرية وعن خطط وعن نوايا، ومثل هذا المناخ سوف يؤثر سلبيا ومسبقا على أية قرارات قد نتوصل إليها.

٣ - لا ينبغى أن يبدو أى عمل نقرر القيام به وكأنه تجمع عدوانى من «نادى الثلاثة الكبار» ضد «ناصر» . وبمعنى أصح - فإنه لا يصح أن نتصرف وحدنا فى الأمر نحن الثلاثة.

٤ - عليك أن تحذر الفرنسيين من محاولة الخلط بين استيلاء «ناصر» على القناة وبين الصراع العربى الإسرائيلى.

٥ - لكى تتمكن من كسب الوقت بسهولة فلك أن تنقل لهم عنى اقتراحا بدعوة كل الدول البحرية التى يهمها أمر القناة إلى مؤتمر موسع لدراسة مستقبل القناة.»(١).

ووصل «مورفى» إلى لندن وقابل «إيدن» كما حضر اجتماعا مشتركا مع «سلوين لويد» و«بينو»، ثم أرسل تقريرًا مبدئيا إلى «أيزنهاور» عما وجده فى العاصمة البريطانية.

ومرة أخرى وطبقًا لمجموعة أوراق «أيزنهاور» الخاصة فإن «مورفى»» وجد «إيدن» مصمما على «تحطيم» «ناصر» بالقوة المسلحة، وأنهم يرتبون للبدء فى

---

(١) تظهر مجموعة أوراق «أيزنهاور» أن هذه التعليمات صدرت بعد مناقشات فى مكتب الرئيس الأمريكى شارك فيها رئيس أركان حربه «بيدل سميث» ومستشاره السياسى «شيرمان آدامز».

العمليات فى مدى ستة أسابيع ولم يمنعهم من البدء فى العمليات فورًا إلا اكتشافهم أن قواتهم فى البحر المتوسط لا تستطيع القيام بالمهمة فى الوقت الحاضر، كما أن احتياطيهم من البترول كان يكفيهم لستة أسابيع من السلام ولعدة أيام من الحرب، وكان هذا هو السبب فى أن «إيدن» غير رأيه ونصح شركة قناة السويس بأن تترك موظفيها وإدارييها ومرشديها يعملون تحت الإدارة المصرية الجديدة لقناة السويس».

وعقد الرئيس «أيزنهاور» اجتماعا حضره «جون فوستر دالاس» الذى عاد من أجازته وبدأ يستعد لمواصلة السفر إلى لندن ـ كما حضره شقيقه «آلان دالاس» مدير المخابرات المركزية والأميرال «أيرلى بيرك» مدير العمليات فى الجيش الأمريكى والجنرال «جون باستير» المساعد العسكرى للرئيس . ثم عرض عليهم تفاصيل ما يجرى فى لندن كما يظهر أمامه من التقرير المبدئى لـ «مورفى». وعلق «أيزنهاور» فى بداية الاجتماع على تقرير «مورفى» قائلاً : «إنه يستغرب من حماقة «إيدن» الذى يدق طبول الحرب دون أن يكون جاهزًا لها ويريد أن يتدخل عسكريا فى مناطق إنتاج البترول دون أن يكون لديه الاحتياطى الذى يستغنى به حتى يتمكن من تحقيق أهدافه».

وفى هذا الاجتماع حدد «أيزنهاور» خطوط السياسة الأمريكية فى المرحلة المقبلة على النحو التالى :

● إن الحكومة البريطانية تتصرف بطريقة «غير عاقلة» ولا تستطيع الحكومة الأمريكية أن تسايرها فى ذلك.

● إن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تشترك فى عمل عسكرى إلا بموافقة مسبقة من الكونجرس، وهو ليس واثقا من إمكانية الحصول على مثل هذه الموافقة فى ظل الظروف الحالية.

● إن التفكير البريطانى فى هذه الأزمة متخلف عن العصر، فهو يفكر فى وسائل فات وقتها ويمكن إدانتها أمام بقية شعوب العالم كنوع من المغامرات الاستعمارية فى القرن التاسع عشر.

● إن العمل فى المنطقة ضد «ناصر» يجب أن يأخذ فى حسابه منابع البترول التى يعتمد عليها الغرب هناك، فإنه إذا توقف إمداد أوروبا الغربية ببترول الشرق الأوسط، فمعنى ذلك أن أوروبا سوف تطلب من الولايات المتحدة إمدادها بالبترول من الاحتياطى الأمريكى وهى لاتستطيع أن تفعل ذلك لأن معناه أنها ترضى باستهلاك البترول الذى ينتج فى أمريكا، بينما هو يعتبر المخزون الإستراتيجى الذى يتحتم الحرص عليه.

وتدخل الأميرال «بيرك» مدير العمليات قائلا للرئيس «إن هيئة أركان الحرب المشتركة من رأيها أنه لابد من كسر «ناصر» . ورد عليه «أيزنهاور» بـ «**أنه لايختلف معه فى الهدف وإن كان يختلف فى الوسيلة، فالتصدى لـ «ناصر» عن طريق العمل العسكرى سوف يثير ضدنا العالم الثالث كله ومن «داكار» إلى «الفلبين»، ومن الأفضل أن نبدأ بعزل العرب وخصوصا السعوديين عن مصر وعن «ناصر» وبعدها ننظر فى الأمر».**

وقال «جون فوستر دالاس» إنه يفهم منطق الرئيس وفى نفس الوقت فإنه يرى أن «ناصر» قام بعمل من أعمال اللصوصية ولابد أن يؤخذ منه ما سرقه». ورد عليه «أيزنهاور» بـ «أن ناصر قد استطاع بطريقة غريبة أن يضع سرقته داخل دائرة مايبدو أنه حقه القانونى». وأثار الأميرال «بيرك» «أن استيلاء مصر على قناة السويس بهذه الطريقة قد ينعكس على قناة بنما» . وقال «أيزنهاور» إنه يوافق على ذلك ويذكر المجتمعين معه بأنه لا يختلف فى الهدف ولكنه يختلف فى الوسائل». ثم راح يكرر «**أنه لابد من عزل مصر و«ناصر» أولا عن العرب عامة وعن السعوديين بصفة خاصة، وبعدها يمكن بحث المشكلة فى ضوء جديد، لأننا إذا كنا لا نريد عالما تحكمه القوة الاستعمارية القديمة فنحن فى نفس الوقت لانريد عالما يتحكم فيه الضعفاء والفقراء**» . ثم طلب فى نهاية الاجتماع «أن تركز أجهزة الخارجية والدفاع والمخابرات أبحاثها على دراسة ردود الفعل المحتملة للاتحاد السوفيتى فى كل درجة من درجات الأزمة فى الشرق الأوسط» (١).

---

(١) مجموعة أوراق «أيزنهاور» ـ الجزء الرابع.

[٢]

وصل «جون فوستر دالاس» إلى لندن يوم ٣٠ يوليو لينضم إلى «مورفى» ويشارك فى اجتماعات «سلوين لويد» و «كريستيان بينو» ـ والتقى مع «أنتونى إيدن» وطرح عليه اقتراح «أيزنهاور» بالدعوة إلى مؤتمر للدول البحرية. ولم يكن «إيدن» مقتنعا بالفكرة تماما، فقد خشى أن تؤدى إلى إطالة الوقت وتمييع المواقف وإدخال أطراف قد لا يكون من المستحسن إدخالها فى نطاق المؤتمر المقترح. وكان رأيه أنه لو أن مثل هذا المؤتمر جرت الدعوة إليه وانعقد فلا يمكن منع الاتحاد السوفيتى من حضوره لأن روسيا كانت إحدى الدول الموقعة على معاهدة القسطنطينية التى تنظم حرية الملاحة فى قناة السويس. وفضلا عن ذلك فإن الولايات المتحدة نفسها لم تكن بين الدول التى وقعت هذه المعاهدة. وكان رأى «دالاس» أن هذه قضايا إجراءات يمكن حلها، وفى كل الأحوال فإنه ليس هناك ضرر من حضور الاتحاد السوفيتى، ففى وسط تجمع الدول البحرية وغيرها من الدول التى يهمها أمر الملاحة فى قناة السويس كالهند مثلا ـ فإن الاتحاد السوفيتى سوف يجد نفسه فى وضع أقلية تفرض عليه الأغلبية ولا تخضع لها.

واقترح «دالاس» رغبة فى إغراء «إيدن» أن يكون انعقاد المؤتمر الدولى الموسع فى لندن. وأن يكون الثلاثة ـ بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ـ هم الداعين إليه. وأضاف «دالاس» «أن انعقاد مثل هذا المؤتمر حتى لو استغرق أسبوعين أو ثلاثة يعطى للكل فرصة الاستعداد لما بعده».

واقتنع «إيدن» وتبعه «سلوين لويد» بطبيعة الحال ولكن «كريستيان بينو» ظل على عناده مصمما على «أن تقديرات العسكريين البريطانيين لحجم القوات المطلوبة لغزو مصر وإسقاط «عبد الناصر» مبالغ فيها، وأن الانتظار طويلا يحقق أغراض «ناصر» ويمكنه من استمالة قطاعات كبيرة من الرأى العام العربى والدولى».



وقبل أن يغادر «دالاس» لندن استقبل فى مبنى السفارة الأمريكية فى لندن «كيرميت روزفلت». وخرج «كيرميت روزفلت» من اجتماعه مع «دالاس» متوجها

إلى السعودية.



وطلب «بايرود» موعدا عاجلا مع الرئيس «جمال عبد الناصر» وذهب إلى لقاء معه استغرق ساعة ونصف الساعة. وفى هذا اللقاء أبلغ «بايرود» «جمال عبدالناصر» رسالة من «دالاس» (١) شرح فيها العواقب الخطيرة التى يمكن أن تترتب على تأميم قناة السويس. ثم أوضح أن الولايات المتحدة تتصدى لرغبات حلفائها فى حل الموضوع عسكريا مع أن الجميع يلقون عليه المسئولية المباشرة فى الأزمة، باعتبار أنه صاحب قرار سحب العرض الأمريكى بالمساهمة فى بناء السد العالى. ورغم هذا الإحراج فإن «دالاس» صامد فى موقفه فى لندن. وهو الآن يريد أن يطرح على الرئيس «عبد الناصر» فكرة خطرت له، وإذا كانت مقبولة منه فإنها سوف تساعد على تخفيف جو التوتر الذى يسيطر على الموقف. **ومؤدى هذه الفكرة التى ما زالت فى مرحلة جنينية هو أن الولايات المتحدة سوف تكون مستعدة لإعادة النظر فى تمويل السد العالى إذا قبل الرئيس «عبد الناصر» إنشاء هيئة دولية من المنتفعين من قناة السويس تتولى مسئولية حرية الملاحة فى قناة السويس».**

وكان «جمال عبد الناصر» يرى أهمية الموقف الأمريكى المختلف عن موقف بريطانيا وفرنسا، ولذلك فإن رده على «بايرود» لم يكن رفضا قاطعًا وإنما كان باقتراح مقابل. فقد قال «جمال عبد الناصر» إنه «فى الوقت الذى يعتقد فيه بأنه لا يمكن أن تكون هناك مسئولية لأحد غير مصر لضمان حرية الملاحة فى قناة السويس - فإنه قد يكون مستعدا **لبحث إنشاء هيئة استشارية من مستعملى القناة تتشاور معها الإدارة المصرية فيما ترى استطلاع رأيها فيه كمشروعات توسيع القناة وتعميقها وزيادة كفاءتها لاستقبال الناقلات الأكبر».**



---

(١) مذكرة أملاها الرئيس «جمال عبد الناصر» بعد اجتماعه بـ «هنرى بايرود» وأصلها فى أرشيفه الخاص فى منشية البكرى.

وفى جو قعقعة السلاح الذى نشرته لندن ودفعته إلى درجة من الحمى العالية تكلم الزعيم السوفيتى «نيكيتا خروشوف» لأول مرة عن الأزمة فحذر الغرب من القيام بأى عمليات حربية «غير حكيمة».

وفى نفس اللحظة كان هناك متحدث رسمى عسكرى أمريكى يعلن أن الأسطول الأمريكى السادس فى البحر الأبيض يقوم قرب شواطئه الشرقية بمناورات بحرية لاعلاقة لها بأزمة تأميم قناة السويس!

وفى يوم ٢ أغسطس انتهى اجتماع وزراء الخارجية الثلاثة فى لندن وأصدروا عن اجتماعاتهم بيانا مشتركا دعوا فيه إلى مؤتمر دولى حول قناة السويس تدعى إليه ٢٤ دولة بينها مصر، وحددوا موعدا لانعقاده فى ظرف أسبوعين (١٦ أغسطس). وأشار البيان فى إحدى فقراته إلى أن استخدام القوة ضد مصر مستبعد «إلا كملجأ أخير». (As a last resort).

ولم تكد تمضى ساعات على إعلان هذا البيان حتى لحقه بيان من «أنتونى إيدن» ألقاه فى مجلس العموم وأعلن فيه أن الملكة وقعت قرارًا باستدعاء طبقات من الاحتياطى. وأضاف «إيدن» أمام مجلس العموم أن هذا الإجراء لا يعنى الحرب وإنما يعنى الاستعداد لكل الطوارئ. وصاح فيه «هيو جتسكيل» رئيس حزب العمال المعارض قائلا: **«أنت تتصرف بهستيريا، وجنون السويس الذى أصابك قد يورط بريطانيا فى حرب فعلية»**.



وعاد «كريستيان بينو» من لندن إلى باريس بعد انتهاء المؤتمر وقدم تقريرا فى جلسة عقدها مجلس الوزراء برئاسة «جى موليه» عن تفاصيل محادثات لندن.

وفى يوم ٥ أغسطس وصل «شيمون بيريز» إلى باريس. وفى يوم ٧ أغسطس دعاه وزير الدفاع الفرنسى «بيرجس مانورى» إلى لقائه فى مكتبة وفاجأه بقوله بالحرف (١):

---

(١) يوميات «شيمون بيريز» المنشورة سنة ١٩٧٠ (صفحة ١٨٥).

«كم من الوقت تعتقد أن جيشكم يحتاج إليه لعبور شبه جزيرة سيناء والوصول إلى السويس؟».

ورد عليه «بيريز» بقوله **«إن العسكريين فى جيشنا يقدرون أن الأمر يحتاج على الأرجح إلى ما يتفاوت بين خمسة أيام وسبعة»**.

ومضى «مانورى» يسأل «بيريز» : **«هل تفكر إسرائيل فى القيام بعمل فى وقت ما بطول حدودها الجنوبية وإن كان الأمر كذلك فأين بالضبط؟»**.

ورد عليه «شيمون بيريز» بقوله : «إن - **سويسنا** - (Our Suez) هى إيلات، ثم إن أى عمليات تقدم عليها إسرائيل سوف تكون بهدف فتح الممرات الملاحية».

وحين بعث «شيمون بيريز» بتقريره عن مقابلته مع«مانورى» - إلى «ديفيد بن جوريون» سارع رئيس وزراء إسرائيل إلى إطلاع «ديان» عليه وقال له طبقا لرواية «ديان» **«لقد وجدت إسرائيل أخيرًا حليفًا كبيرًا على استعداد لخوض الحرب معها ضد الدكتاتور»**.

وفى نفس اليوم ٥ أغسطس استدعى «إيدن» الجنرال «ستوكويل» وكلفه بقيادة عمليات الخطة «الفارس» (Musketeer) ضد مصر على أن يكون يوم التنفيذ فى موعد لا يتعدى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٦.



وفى يوم ٨ أغسطس قررت المخابرات الفرنسية زيادة عدد الساعات المخصصة لإذاعة (مصر الحرة التى تشرف عليها وتديرها أسرة أبو الفتح) على موجهات إذاعة أوربا رقم (١) من مونت كارلو.

الفصل الثالث

الفارس والفرسان !

[١]

بعد أن ألقى «جمال عبد الناصر» خطاب تأميم شركة قناة السويس اختار أن يبقى بعض الوقت فى الإسكندرية، فقد ظن أن العواصم المعنية بالشرق الأوسط سوف تحتاج إلى عدة أيام تبحث فيها أبعاد القرار وآثاره، ومن ثم فإن فترة البحث سوف تكون فى نفس الوقت فرصة الهدوء الوحيدة المتاحة أمامه للتفكير فى خطة المواجهة للأيام والأسابيع القادمة.

وفى اليوم التالى مباشرة لإعلان التأميم - الجمعة ٢٧ يوليو - كان «جمال عبدالناصر» يركز على موضوع واحد وهو حركة المرور فى قناة السويس، فقد كان يريد أن يطمئن إلى نتائج يوم الامتحان الأول للإدارة المصرية، ومع ذلك فإنه لم يتصل فى ذلك اليوم بـ «محمود يونس» مباشرة لأنه وجد أن مثل هذا الاتصال «سوف يشغله ويربكه». ولم يكتف بذلك وإنما طلب من كل معاونيه أن لا يبادروا بطلب «محمود يونس» ولو حتى بالتليفون فلا ينبغى لأحد أن يقطع عليه فى هذا الوقت شواغله ولا ينبغى أن يجعله يحس بأن هناك من يساورهم القلق وراءه. ولقد قال للجميع إن «محمود يونس» له حق الاتصال بمن يشاء فى أى وقت يشاء ولكن هذا الحق له وحده ولا ينبغى أن يترتب عليه حق مماثل لأحد. وأجرى معه «محمود يونس» اتصالا تليفونيا وحيدا فى هذا اليوم سأله فيه عن مشكلة تقابله وهى أن بعض البواخر العابرة للقناة ترفض دفع الرسوم للهيئة الجديدة. ورد «جمال عبدالناصر» عليه بأن يدعها تمر وأن يرسل إلى كل باخرة منها مذكرة بإضافة

الرسوم إلى حسابات شركاتهم لكن الملاحة لابد أن تستمر وأن يتواصل مرور كل البواخر بغير تعطيل لاستيفاء الحسابات أو لغير ذلك من أسباب، لأن تعطيل باخرة واحدة فى هذا اليوم «سوف يكون الذريعة التى ينتظرونها».

وفى يوم السبت ٢٨ يوليو قسم «جمال عبد الناصر» وقته لدراسة موضوعين: **الاحتمالات العسكرية** (قرر «جمال عبد الناصر» ضرورة سحب مجموعة الجيش المصرى الرئيسية من سيناء إلى الدلتا لمواجهة احتمالات التدخل) - **والموقف الاقتصادى** على أثر تجميد الودائع والأرصدة المصرية فى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية.

وفى الليلة التى كان مقررا فيها صدور بيان اجتماع لندن (بين «دالاس» و«لويد» و«بينو») - كان «جمال عبد الناصر» ينتظر نص البيان، فقد كان مؤكدا أن عباراته سوف تحمل إشارات عن نوايا الغرب. واختار أن يذهب إلى إحدى دور السينما فى الإسكندرية يشاهد فيلما (سينما «مترو» والفيلم اسمه «موعد فى لاس فيجاس») (وقد سألته من القاهرة خلال اتصال تليفونى كيف يستطيع أن يشاهد فيلما بينما أفكاره كلها فى مكان آخر؟ ورد علىّ بقوله: «إننى لا أريد أن أجلس أقرض أظافرى فى انتظار أن يفرغ المجتمعون فى لندن من عملهم ويصدروا بيانهم، والأفضل أن أشغل نفسى بشىء وعندما أعود قرب منتصف الليل سوف يكون بيانهم قد صدر وسوف أتصل بك فور عودتى لتقرأ لى نصه كما حملته وكالات الأنباء»).

واتصل «جمال عبد الناصر» بالدكتور «محمود فوزى» وزير الخارجية يطلب منه إصدار رد على البيان الثلاثى، وأعلن الرد المصرى بالفعل قبل منتصف الليل وقد ركز على النقاط التالية:

- إن مصر لا تقبل أى تدخل خارجى فى إجراء يدخل فى صميم سيادتها.
- وقد تصرفت وفقا لنصوص وروح الاتفاقيات والمعاهدات الدولية التى لايمكن أن تمنع مصر من تأميم شركة مصرية حتى وإن حمل اسمها مجازًا وصف «العالمية».

- إن مصر هى المسئولة عن حماية حرية الملاحة فى قناة السويس وليس شركة القناة ولا أى قوة أجنبية.

- إن مصر قررت التأميم مرتبطا بمبدأ التعويض.

- إن العالم كله يشهد أن الملاحة فى القناة تسير بطريقة طبيعية منذ يوم التأميم.

- إن مصر لا تكره موظفى شركة القناة السابقة على العمل فى إدارة القناة الجديدة.

- إذا كان لابد من انعقاد مؤتمر دولى لبحث قضية الملاحة فى القناة فمن المنطقى أن ينطبق هذا على كل الممرات المائية فى العالم وأولها قناة بنما.



وعاد «جمال عبد الناصر» من الإسكندرية إلى القاهرة وشاغله الأساسى فى هذه المرحلة هو تحديد موقف مصر تجاه مؤتمر لندن الموسع الذى دعت إليه الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا. وكانت أول نقطة فى تفكيره هى بناء جبهة مؤيدة لمصر داخل المؤتمر. وقد تصور هذه الجبهة بالدرجة الأولى مكونة من الاتحاد السوفيتى والهند وإندونيسيا ثم أضاف إليها إسبانيا واليونان من الدول الأوروبية الحريصة على الصداقة مع العرب. لكنه بدأ يشعر بقلق من موقف الهند فقد أحس أن «نهرو» يتعرض لضغوط غربية تتهمه بأنه كان يعرف بقرار تأميم قناة السويس، فقد كان قبل قرار التأميم مباشرة مع «جمال عبد الناصر» فى بريونى وفى القاهرة.

وتأكد شعوره بالقلق حينما حمل إليه سفير الهند فى القاهرة خطابا من «نهرو» جاء فيه ما يلى:

[«عزيزى الرئيس ...

فور عودتى إلى دلهى من القاهرة وبيروت علمت بقرارك بشأن قناة السويس ولما كنت لم تذكر لى ذلك أثناء محادثاتنا فى بريونى والقاهرة فقد اعتقدت أن هذا القرار لابد وأن يكون قد اتخذ بعد أن بارحت القاهرة. وقد أكد

سفيرنا فى القاهرة ذلك بعد محادثة أجراها مع الوزير «على صبرى». وقد ساعدنى هذا على معرفة هذا الجانب من الأمر. وقد تسلمت من سفيركم فى دلهى نسخة من بيانكم الصادر فى ٣١ يوليو وإنى لأشكركم على ذلك.

٢- أننى حتى الآن لم أدل باية تعقيبات على هذه التطورات عدا القول فى البرلمان أن هذا الأمر لم يبحث بيننا فى بريونى أو القاهرة. ولقد كنت آمل أن تكون لدى معلومات أكمل عن المستقبل حتى أتمكن من إصدار بيان من برلماننا. إن مسالة من هذا النوع لها أصداء دولية وأريد أن يكون بيانى فى البرلمان مفيدًا بقدر الإمكان. إن اهتمامنا المباشر يرجع إلى أننا أحد المنتفعين بالقناة مثل آخرين ولكننا مهتمون بطبيعة الحال أيضا بالتوصل إلى تسوية ودية.

٣- أننا نواجه هنا دون شك حقا سياديا لمصر، ونذكر الموقف الذى اتخذته أنت عام ١٩٥٤ وهى أن قناة السويس البحرية والتى هى جزء لا يتجزأ من مصر ممر مائى ذو أهمية اقتصادية وتجارية وإستراتيجية دولية. وأنك أعربت عن التمسك بالاتفاقية التى تضمن حرية الملاحة فى القناة الموقعة فى القسطنطينية سنة ١٨٨٨.

٤- واعترافا بالحق السيادى لمصر كما أسلفت وترحيبا ببيانك الصادر فى ٣١ يوليو بأن موقفك الحالى لا يؤثر باى طريقة أو باى درجة على التعهدات الدولية لمصر (١٨٨٨ - ١٩٥٤) فإنى لأعرب عن الأمل فى أنك ستقرر اتخاذ المبادرة بنفسك لتجمع معا أولئك المهتمين بالجوانب الدولية لهذا التطور على أساس سيادة مصر».].

ثم مضى «نهرو» حتى وصل إلى تسعة (١) بنود فى خطابه وكان آخرها قوله: «وإننى سأكون ممتنا للغاية لتلقى وجهات نظرك».



---

(١) النص الكامل لخطاب «نهرو» بتاريخ ٣ أغسطس إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٢٨).

وعندما فرغ «جمال عبد الناصر» من قراءة خطاب «نهرو» كان قلقه فى الحقيقة هو صدى للقلق الذى أحس به فى سطور الخطاب.

إن سطور خطاب «نهرو» كانت تكشف ثلاث حقائق فى موقف الهند:

- أنها أحد مستعملى القناة وبالتالى فإن التأميم يضعها أمام مجهول لاتستطيع تقدير إمكانياته.
- إن الهند كإحدى دول الكومنولث عليها التزامات.
- إن «نهرو» يحس بحرج أمام أطراف دولية مختلفة لأنه كان مع «جمال عبدالناصر» قرب زمن اتخاذ القرار ولم يعرف به أو أنه عرف وتستر.

وفى الخطاب كان «نهرو» فوق ذلك يتقدم باقتراح لـ «جمال عبدالناصر» بأن يتولى هو الدعوة إلى مؤتمر دولى حول قناة السويس.

ولم يقتنع «جمال عبد الناصر» بفكرة الدعوة إلى مؤتمر دولى بدلا من ذلك كتب إلى «نهرو» يبدى مخاوفه، ثم يسأله رأيه فيما يجب أن تكون عليه خطاه التالية، ثم يرجوه أن يدرس معه فكرة عرض الأزمة أمام الأمم المتحدة، ثم يناقش معه تصوره وتصور مصر للأزمة كلها(١).

وبدا أن «جمال عبد الناصر» نجح فى التغلب على هواجس صديقه الهندى الكبير. فقد كان «نهرو» يسعده دائما أن يطلب أصدقاؤه نصيحته. خصوصا وقد أحس فعلا أن «جمال عبد الناصر» لم يخف عنه شيئا. وهكذا كتب يوم ٥ أغسطس إلى «جمال عبدالناصر» رسالة ثانية بدأها كما يلى:

[« ١ - إننى أشعر بالامتنان لكم لردكم الودى على رسالتى وأقدر تأكيدكم بأنكم تفعلون كل شىء لاتباع نهج سلمى. وأود أن أعرب عن الأمل فى أن يظل موقفكم توفيقيا ثابتا برغم الاستفزاز.

---

(١) نص رد الرئيس «جمال عبد الناصر» على خطاب «نهرو» منشور بالكامل فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٢٩).

(...........................) (١)

٢ ــ إننا نقوم بدراسة مقترحكم (عرض الأزمة على الأمم المتحدة) وسوف نرسل لكم الرد حالا.

(...........................)

٣ ـ وبالنسبة لموقفى إزاء الدعوة البريطانية الموجهة للهند لحضور مؤتمر لندن ـ فإننا لم نرسل لهم ردا حتى الآن وننظر فى الأمر ولن نقبل بأى حال هذه الدعوة بدون إبداء تحفظات على الحجج المعلنة فى البيان المشترك (بيان «دالاس» ـ «لويد» ـ بينو»).

(...........................)

٤ ـ ولن نقبل إضعاف موقفكم .

(...........................) »].

□

وفى اليوم التالى ٦ أغسطس أدرك «جمال عبد الناصر» أنه استطاع أن يتغلب تمامًا على أية رواسب قد تكون عالقة بمشاعر «نهرو»، فقد تلقى منه يوم ٦ أغسطس خطابًا من ثلاث صفحات وضع فيه نفسه مكان «عبد الناصر» تماما وراح يعرض عليه تقديراته للموقف ومقترحاته . ووصل به الأمر إلى حد أنه اقترح على «جمال عبد الناصر» طريقة التعبير عن مشاعره فقال فى البند الثالث (٢) من خطابه :

[« إننى أقترح أن تعرب عن دهشتك لدعوة المملكة المتحدة إلى عقد مؤتمر بشأن قضية قناة السويس دون التشاور معك أو حتى الإشارة إلى مصر وانفرادها بتقرير البلدان التى ستدعى إليه ..»].

□

---

(١) النص الكامل لرسالة «نهرو» بتاريخ ٥ أغسطس منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٣١).

(٢) نص خطاب «نهرو» لـ «عبد الناصر» بتاريخ ٦ أغسطس منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٣٢).

وقدر «جمال عبد الناصر» إنه إذا كان ذلك هو موقف «نهرو» فلا بد أن يكون على نحو أو آخر موقف «تيتو» . وكتب إلى الرئيس «تيتو» خطابا يشرح له فيه وجهة نظره فى كل عملية تأميم القناة وكيف توصل إلى قراره بالتأميم وما يترتب على ذلك القرار. فكتب إلى «تيتو» خطابا (١) إضافيا بالتفاصيل على نحو ما فعل مع رئيس وزراء الهند.



ومضى «جمال عبد الناصر» خطوة بعد ذلك فقرر أن يكتب لـ «أيزنهاور» مباشرة(٢).

وربما أراد «جمال عبد الناصر» أيضا أن يخفف عن «جون فوستر دالاس» وزير الخارجية الذى كانت كل الأطراف تلقى عليه اللوم فى تفجير الأزمة بسبب صياغته الفظة لقرار سحب العرض الأمريكى بالمساهمة فى تمويل السد العالى، وكان هذا هو دافع «جمال عبد الناصر» حين أدلى بتصريح للصحفيين الأمريكيين قال فيه : **«إن قرار التاميم كان يراوده منذ سنتين وإنه لم يصدر لمجرد الرد على دالاس»**.



اطمأن «جمال عبد الناصر» إلى أنه قد أعاد ترميم بعض الثغرات فى خطوطه ومضى يفكر فى مواجهة مؤتمر لندن القادم. وقد استقر رأيه على كتابة مذكرة باسم الحكومة المصرية تشرح الموقف بكامله وتكون هى الأساس الذى تقوم عليه الجبهة المؤيدة لمصر والتى تضم الاتحاد السوفيتى والهند وإندونيسيا (وربما إسبانيا واليونان من الدول الأوربية) . وطالت مذكرة «جمال عبد الناصر» التى كتبها بخط يده فاستغرقت ثلاث عشرة صفحة (٣) .



---

(١) نص خطاب «جمال عبد الناصر» إلى «تيتو» منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٣٣).

(٢) النص الكامل لخطاب «جمال عبد الناصر» إلى «أيزنهاور» منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٣٤).

(٣) المذكرة بكاملها وبخط يد «جمال عبد الناصر» منشورة فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٣٥).

بعد تحديد الأساس راح «جمال عبد الناصر» يدرس أسلوب العمل وحدد الملامح التالية :

□ **أولا** : إن الغرب بصفة عامة سوف يركز فى مؤتمر لندن على إبراز الصفة الدولية للقناة وتصوير تأميمها وكأنه انتهاك لهذه الصفة وتهديد للملاحة فيها والتنديد بمصر لإجبارها موظفى الشركة المؤممة على الاستمرار فى العمل مما يمكن إخراجه على أنه خرق لحقوق الإنسان، والمطلب من ذلك واضح وهو وضع قناة السويس تحت إدارة دولية. وربما أرادوا مد هذه الإدارة الدولية إلى منطقة القناة بالكامل .

□ **ثانيا** : المطلب الثانى للغرب بعد ذلك هو تحويل الرأى العام العالمى ضد مصر واتخاذ المؤتمر ومناقشاته وأخباره وسيلة للتعبئة المضادة لها - لكى ينفتح الطريق مباشرة من المؤتمر لتدخل عسكرى تقوم به بريطانيا وفرنسا. وأما الولايات المتحدة فإنه من الواضح أنها تسعى للتدويل ولكن بوسائل أخرى .

ثم انتقل «جمال عبدالناصر» للتفكير فى تفاصيل أسلوب العمل وحدده على النحو التالى :

١ - انتظام سير الملاحة فى القناة هو السلاح الرئيسى فى هذه المرحلة.

٢ - لابد أن تنشط مصر بجهودها المباشرة وبجهود كل الجبهة المؤيدة لها فى المؤتمر وفى العالم العربى وفى العالم كله لشرح وجهة نظرها ولإقناع الكل بالحق المصرى بعد اقتناعهم بالكفاءة المصرية فى إدارة القناة.

٣ - يجب الاحتياط أثناء مؤتمر لندن وبعده وأن يتم التعاون إلى أقصى حد ممكن مع الاتحاد السوفيتى بشرط ألا تدخل الأزمة الناشئة عن التاميم فى شباك العلاقات بين القوتين العظميين.

٤ - ينبغى العمل على ألا يصل مؤتمر لندن إلى أية قرارات بالإجماع بحيث لايصدر عنه فى النهاية شيء محدد.

٥ - يستحسن أن تعمل مصر بمساعدة أصدقائها على إطالة مدة المؤتمر لأقصى وقت ممكن فكسب الوقت عامل أساسى.

٦ - لابد أن تكون مصر على علم يومى بما يجرى فى المؤتمر.

[٢]

فى لندن كان «أنتونى إيدن» فى حالة مخيفة من الغضب.

ويجمع كل الذين عاشوا معه فى هذه الفترة سواء من وزرائه أو مساعديه أو سكرتاريته الخاصة - أن مقر رئاسة الوزراء لم يشهد فى تاريخه ما قدر له أن يشهده فى هذه الفترة من صواعق وعواصف. ولقد تراوحت آراء كثيرين منهم فى الأسباب التى دعت «إيدن» إلى التصرف على هذا النحو منذ المراحل المبكرة لأزمة السويس.

كان فيهم من عزاها إلى حقيقة أن «إيدن» وصل إلى رئاسة الوزارة منهكا ومستنفدا بعد أن قام «ونستون تشرسل» بإذلاله وكسر كبريائه قبل أن يفسح له مكانه.

وكان بينهم من يعزوها إلى أسباب ضعف حقيقية فى تركيب شخصية «إيدن»، فقد كان شكلا خاويا من أية قوة حقيقية أو إرادة أو كفاءة، وإنما كانت الأوضاع الحزبية والعائلية هى التى وضعته فى الصف المؤدى إلى رئاسة الوزارة بدفع التقاليد البريطانية الراسخة.

وكان بينهم من عزاها إلى الكراهية التى استبدت به ضد «جمال عبد الناصر» ففى اللحظة التى ظن فيها أن آماله تحققت بدخول مقر رئيس الوزراء البريطانى ظهر له من المجهول فجأة هذا العدو العربى الذى أحرجه وكشفه أمام الدنيا بأسرها.

ثم كان هناك بينهم من عزاها إلى شخصية زوجته الشابة «كلاريسا» ورغبته فى الظهور أمامها فى دور الزعيم الحازم والصارم الذى يقود المقادير التاريخية للشعب البريطانى على مستوى عمها «ونستون تشرشل» إن لم يكن أفضل (١).



---

(١) تكشف يوميات «ويليام كلارك» المستشار الصحفى لـ «إيدن» أكثر من غيرها من وثائق تلك الفترة عن الدور المدمر الذى لعبته «كلاريسا» فى حياة «أنتونى»!!

ويجمع الكل أن «إيدن» فى هذه الفترة لم يكن يطيق معارضة لرأيه ولم يكن مستعدا لأن يسمع اسم «جمال عبد الناصر» وإنما كان يريد أن يسميه الجميع كما كان يسميه هو فى حديثه عنه بوصف «الطاغية» أو «الدكتاتور» . ويقدم المستشار الصحفى لـ «إيدن» فى ذلك الوقت وهو «ويليام كلارك» نموذجا لذلك جرى حين قام السير «إدوارد بيردجين» رئيس الخدمة العامة بمراجعة «إيدن» فى قرار كان يريد اتخاذه أثناء الأزمة ، وفوجئ السير «إدوارد» برئيس الوزراء يقول له بالحرف : «حسنا يا إدوارد إننى الوحيد الذى يحاول إنقاذ هذا البلد من الخونة من أمثالكم الذين يدفعونها إلى الهوان.. مسكينة بريطانيا .. مسكينة بريطانيا».

ولم يجد السير «إدوارد» ردًا على رئيس الوزراء غير أن يقول له بالحرف : «رئيس الوزراء ... إننى أظن أنه يتعين عليك أن تفكر فيما قلت وأن تعاود الاتصال بى مرة أخرى» . ثم وضع سماعة التليفون.

ويروى «هارولد ماكميلان» الذى كان وزيرًا للخزانة مع «إيدن» أنه دخل عليه مرة فى المكتب المخصص لرئيس الوزراء بمبنى مجلس العموم **وفوجئ بـ «إيدن» يصرخ فى وجهه قائلا : «إننى سأحطمه .. سأدمره .. سوف أمحو كل أثر له فى هذه الدنيا» . وقال «ماكميلان» إنه لم يسأل «إيدن» عمن كان يقصده فقد عرف فورًا أنه يتحدث عن «الكولونيل ناصر».**

وراح «إيدن» يركز على المقارنة بين «عبد الناصر» و«هتلر» ويعتبر أن تأميم قناة السويس يمكن أن يتحول إلى «ميونيخ أخرى» إذا لم يتم القضاء على «جمال عبدالناصر» . وتعود أن يكرر لكل من يقابله أنه هو الذى تصدى لـ «تشمبرلين» رئيس الوزراء البريطانى سنة ١٩٣٨ حينما رضخ «تشمبرلين» لابتزاز «هتلر» بعد احتلاله لتشيكوسلوفاكيا . ثم يضيف أنه لن يعيد تمثيل دور «تشمبرلين».

ويروى «ويليام كلارك» واقعة شهدها بنفسه فقد سمع «كلاريسا» تقول لزوجها «إنك يا حبيبى سوف تذهب بالطبع لتتحدث إلى الرأى العام فى التليفزيون قبل أن تأمر بإرسال القوات إلى مصر».

وبالفعل ذهب «إيدن» إلى استوديوهات التليفزيون البريطانى ليوجه خطابا للأمة يقول فى مقدمته «إن الكولونيل ناصر هو عدونا وليس الشعب المصرى».



وفى وقت من الأوقات ناقش «جمال عبد الناصر» بطريقة جدية أن يذهب بنفسه إلى مؤتمر لندن وأن يحضره ليس كمتهم وإنما كممثل للادعاء ضد الاستعمار والسيطرة. وبعد أن اطلع «جمال عبد الناصر» على خطاب «إيدن» - فى التليفزيون قرر أفضلية عدم الذهاب، واكتفى بإرسال السيد «على صبرى» ليكون مراقبا عن كثب يجلس فى السفارة المصرية ويتصل بأعضاء الوفود المؤيدة لمصر ويرسل يوما بيوم إلى القاهرة تفاصيل ما يتلقاه منهم.

وبدأ مؤتمر لندن جلساته فعلا يوم ١٦ أغسطس واشتركت فيه ٢٤ دولة بحرية وتغيبت عنه مصر.

كان رئيس الوفد السوفيتى فى المؤتمر هو «ديميترى شبيلوف» وزير الخارجية وكان رئيس الوفد الهندى هو وزير الخارجية «كريشنا مينون» وفيما بينهما تمكنا بالفعل من قيادة معركة سياسية من الطراز الأول داخل المؤتمر.

كان رئيس المؤتمر بالتقاليد هو «سلوين لويد» رئيس وفد الدولة المضيفة. واقترح «سلوين لويد» فى الجلسة الأولى أن يلتزم المؤتمر بلوائح العمل فى الجمعية العامة للأمم المتحدة وبأن يكون هناك تصويت بين أغلبية وأقلية. ورفض «شبيلوف» لأن عمل الأمم المتحدة يرتكز على مبادئ وميثاق معروف للجميع سلفا، وأما هنا فى مؤتمر لندن فإن الوضع مختلف.

واقترح «سلوين لويد» أن يكون هناك متحدث رسمى عن المؤتمر يعطى الصحافة العالمية فكرة كل يوم عن مداولاته لأن الجلسات سرية. ورفض «كريشنا مينون» فكرة المتحدث الرسمى من أساسها بمنطق أن الآراء سوف تتنوع وتتعدد وسوف يجد المتحدث الرسمى نفسه فى «أزمة توازن» وسط هذا التعدد والاختلاف. ثم اقترح أنه إذا كان مطلوبا أن يعرف الرأى العام العالمى تفاصيل ما يجرى فى المؤتمر فلتفتح الجلسات. وسقط اقتراح أن يكون للمؤتمر متحدث رسمى واحد.

ثم تقدم «دالاس» بمشروع يؤدى فى النهاية إلى تدويل قناة السويس تحت ادعاء إبعادها عن سياسة أى بلد واحد، كما ينص على إنشاء هيئة للمنتفعين بقناة السويس تشرف على إدارتها وتتولى تحصيل رسوم المرور فيها . وفى مقابل مشروع «دالاس» تقدم الاتحاد السوفيتى بمشروع مضاد شاركت فى إعداده بعض الدول الصديقة لمصر.

وانقسم المؤتمر وطالت مناقشاته سبعة أيام متواصلة ثم طرح «سلوين لويد» مشروع «دالاس» للتصويت (على عكس ما تم التفاهم عليه من إجراءات) ونال ١٨ صوتا وأصبح مشروع الأغلبية.

وأما المشروع الآخر فقد أيدته ٥ أصوات وأصبح مشروع الأقلية.

ثم اقترح «دالاس» أن يكلف المؤتمر وفدا يمثل الأغلبية تشترك فيه وفود خمس دول يسافر إلى مصر لكى يعرض عليها مشروع الثمانى عشرة دولة ـ لإدارة قناة السويس.

وتقدم وزراء خارجية الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا باقتراح اسم «روبرت منزيس» رئيس وزراء أستراليا لكى يرأس بعثة الخمسة إلى مصر.

[٣]

كانت الدول الخمس التى وقع عليها الاختيار لتكوين بعثة الأغلبية إلى مصر هى الولايات المتحدة وأستراليا وإيران وأثيوبيا والسويد.

وفى لندن أعلن «منزيس» رئيس وزراء أستراليا أنه اختار للجنته اسم «لجنة السويس» . وعقدت اللجنة اجتماعا لها برئاسته أعلن بعده أنها سوف تقترح دعوة الرئيس «عبد الناصر» إلى لقائها فى مقر الأمم المتحدة بنيويورك أو فى مقرها الأوروبى فى جنيف. ورد «جمال عبد الناصر» من القاهرة ببيان أعلن فيه أن مصر ترفض مشروع الثمانية عشر الذى أذيع فى لندن جملة وتفصيلا لأن فكرة التدويل هى الأساس فيه وهى غير مقبولة من مصر فى كل الأحوال. ثم أضاف

«جمال عبدالناصر» أنه «**لن يقابل اللجنة خارج مصر**» . وفهمت اللجنة من ذلك أن الرئيس المصرى على استعداد لمقابلتها فى القاهرة فأصدر «منزيس» بيانا فى لندن أبدى فيه «استعداد لجنته للسفر إلى القاهرة إذا طلب الرئيس عبد الناصر ذلك» . ورد «عبدالناصر» من القاهرة ببيان قال فيه «إنه لا يطلب مجىء اللجنة وإنما سوف يعطى تعليمات للسفارة المصرية فى لندن لأن تعطى لأعضاء اللجنة تأشيرات دخول إلى مصر إذا هم تقدموا إليها بجوازات سفرهم» . وقررت اللجنة أن تسافر إلى مصر. وعقب «جمال عبد الناصر» على هذا القرار من القاهرة «**بأنه يوافق على استقبال اللجنة فى القاهرة على أن يكون واضحا أن اجتماعه بأعضائها لايقيد مصر بأى شىء**».



وقبل أن تصل اللجنة إلى مصر وقعت أزمات جانبية . فقد تدخلت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية رسميا لمنع تعاقد هيئة قناة السويس المصرية مع مرشدين بحريين جدد من اليونان وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا.

....

....

وأعلنت المخابرات المصرية يوم ٢٧ أغسطس أنها قبضت على شبكة تجسس تعمل لحساب المخابرات البريطانية ويرأس هذه الشبكة «جيمس سوينبورن» نائب مدير وكالة الأنباء العربية.

ثم ظهر أن هذه الشبكة تنسق عملها مع اثنين من سكرتيرى السفارة البريطانية وأن كليهما كان على اتصال ببعض الجهات فى مصر يحاولان إقناعها ـ على أساس اتصالات جرت فى الخارج ـ بترتيب مظاهرات فى شوارع القاهرة مما يؤدى لإحداث أى شغب عام يعطى الانطباع باضطراب الأمور فى مصر.

....

....

ويوم ٢٩ أغسطس أدلى الرئيس «أيزنهاور» بتصريح في واشنطن تحدث فيه عن تدويل قناة السويس. واستدعى «جمال عبد الناصر» السفير الأمريكي في القاهرة «هنري بايرود» وأبلغه أسف الحكومة المصرية للتصريحات الصادرة عن الرئيس الأمريكي. وفي اليوم التالي تراجع «أيزنهاور» جزئيًا فأعلن البيت الأبيض أن الرئيس لم يتحدث عن تدويل قناة السويس من حيث ملكيتها **ولكنه تحدث عن التدويل من حيث استخداماتها طبقا لمعاهدة القسطنطينية ١٨٨٨ التي منحت كثيرا من الدول حقوقا في القناة وعليها. وأضاف تصريح «أيزنهاور» أن الولايات المتحدة ملتزمة بالحل السلمي للأزمة».**

....

....

وفي يوم ٣٠ أغسطس أعلنت بريطانيا رسميا عن نقل قوات فرنسية إلى قبرص لتعزيز القوات البريطانية فيها ولكي تكون الدولتان معا على أهبة الاستعداد لطوارئ أزمة السويس.

....

....

وخلال شهر أغسطس ألحت المعارضة العمالية على ضرورة دعوة مجلس العموم برغم العطلة الصيفية إلى اجتماع عاجل لمناقشة الأزمة في الشرق الأوسط. وكانت المناقشات عاصفة. وكانت مسز «بانديت» شقيقة «نهرو» هي المندوب السامي للهند في لندن وقتها، وقد قالت لعدد من الشخصيات السياسية البارزة في لندن أثناء عشاء أقامته لهم: **«إن الكومنولث سوف يتحطم إذا هوجمت مصر بالقوة لأن كل الدول الآسيوية وأولها الهند لن تبقى فيه إذا حدث عدوان على مصر»**(١). وقد اعتمد

---

(١) ذهب اللورد «مونتباتن» (وهو عم الأمير «فيليب» زوج الملكة «اليزابيث» ويعتبر بمثابة أب روحي له) إلى مقابلة الملكة «اليزابيث» ملكة بريطانيا بوصفها رئيسة الكومنولث ورجاها أن تتدخل في الأزمة فهو بخبرته كآخر حاكم عام بريطاني للهند قبل الاستقلال يخشى أنه إذا خرجت الهند من الكومنولث فإن نظامه كله سوف يقع من الأساس!

«هيو جيتسكيل» زعيم حزب العمال البريطانى على ما سمعه منها حينما وقف يقول لرئيس الوزراء **«إن الكراهية لم تعد تجعلك قادرا على تقدير خطورة ما تفعل. إننى مضطر أن أقول للمجلس مع الأسف أن رئيس وزراء المملكة المتحدة قد فقد صوابه وأن حماقاته سوف تقضى على الكومنولث»**. ورد عليه «إيدن» بـ «أن زعيم المعارضة يتحدث فيما لا يعرف، وأكد أن الحكومة البريطانية على تشاور مستمر مع كل أعضاء الكومنولث». وصاحت مجموعة من العمال البريطانيين فى وجهه **«كذاب.. كذاب»** . ثم ألقى «إيدن» فى ختام المناقشة بيانا تعرض فيه لهيئة المنتفعين التى اقترح «دالاس» تشكيلها لإدارة القناة ضمن مشروعه للتدويل. وقال «إيدن» **«إن هيئة المنتفعين سيكون لها الحق أن تشق طريقها بالقوة المسلحة إلى القناة وفيها»**.

وفى اليوم التالى اضطر «دالاس» إلى توضيح تصوراته عن هيئة المنتفعين فأدلى بتصريح قال فيه **«إنه لايتصور أن هيئة المنتفعين يمكن أن يكون لها حق شق طريقها بالقوة المسلحة إلى القناة وفيها»**. وأحس «إيدن» أن «دالاس» يسحب البساط من تحت قدميه، وقال وسط اجتماع عقد لمجلس الوزراء البريطانى «إن مشكلة فوستر (يعنى«دالاس») أنه منافق ومخادع وغشاش، فقد أضعف فكرة هيئة المنتفعين ـ وهى فى الأصل فكرته ـ قبل أن تولد وسلبها أى فاعلية أو مقدرة قبل أن يبدأ دورها»!

الفصل الرابع

«حرمنى النوم»

[١]

فى هذا الجو الملغم بالغيوم وصلت بعثة «منزيس» إلى القاهرة. ولم تكن تصريحات «روبرت منزيس» رئيس وزراء أستراليا مشجعة قبل وصوله إليها. كان «منزيس» من أعمدة الامبراطورية البريطانية وكان صديقا لـ«ونستون تشرشل» ومقربا منه، كما أنه كان واحدا من أعضاء المجلس الخاص للملكة، وكان هدفه فى هذه الظروف أن يساعد الحكومة البريطانية و«إيدن» على هدف «إزالة» عبد الناصر فقد رآه من وجهة نظره عقبة على الطريق بين قلب الامبراطورية فى لندن وطرفها القصى فى أستراليا.

ويبدو أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تخشى وقوع صدام فورى بين العنف الاستعمارى لـ «منزيس» والكبرياء الوطنى لـ «جمال عبد الناصر». ولعلها أرادت تحاشيه على الأقل فى المرحلة الأولى فى مهمة البعثة فى مصر. وهكذا فإن «لوى هندرسون» ممثل الولايات المتحدة فى البعثة وهو فى نفس الوقت وكيل وزارة الخارجية الأمريكية طلب «بايرود» السفير الأمريكى فى القاهرة ـ الذى كان على وشك مغادرة القاهرة بعد أيام قليلة ـ أن يرتب له موعدا عاجلا مع الرئيس «جمال عبد الناصر».

وقابله «جمال عبد الناصر» مساء يوم وصول البعثة مع «بايرود». وبدأ «لوى هندرسون» فقال للرئيس «إنه أراد أن يقابله مبكرا لكى يعطيه فكرة عن رئيس البعثة وعن مهمتها». ورد عليه الرئيس «عبد الناصر» بقوله «إنه يريد بالفعل أن يسمع

ما يمكن أن يقوله له «هندرسون» وهو لا يخفى عليه أن انطباعه عن «منزيس» من بعيد سيئ للغاية. فلقد جاءتنا تصريحاته كلها من لندن تهديدا ووعيدا وأنا ببساطة لا أنوى أن أتفاوض فى جو من التهديد. إننى مستعد أن أناقش وأدرس وأتفهم ولكنى لست مستعدا لقبول «**رجل يتصرف مثل بغل استرالى**» يرسله «**إيدن**» **لكى يخيفنى**». ورد «هندرسون» قائلا للرئيس «عبد الناصر» «إننى أرجوك يا سيادة الرئيس أن لا تقلق من «منزيس» وأؤكد لك أن كل عضو فى البعثة جاء إلى هنا بعقل مفتوح. وهم يريدون أن يؤدوا عملا ويريدون أن ينجحوا فيه «ومنزيس» واحد منهم وهو ليس هنا ليملى شروطا ولا ينبغى أن يخدعك منظره الطويل العريض فهو رجل له تاريخه وله شخصيته. وإذا أحس أن «إيدن» يستخدمه كساعى بريد لرفض المهمة واعتذر عنها. إنه سياسى وككل سياسى فهو يريد أن يصل بأى مسئولية يتولاها إلى نجاح يضيف إلى رصيده. وأؤكد لك أنه ليس قادما إلى مصر هذه المرة كممثل للامبراطورية البريطانية وإنما هو قادم كممثل لمجموعة من الدول المهتمة بالقناة»(١).



وصباح اليوم التالى ٣ سبتمبر ١٩٥٦ استقبل الرئيس «جمال عبد الناصر» بعثة «منزيس» لأول مرة فى قصر القبة. وقد قصد أن يقابلهم فى مكتبه كزوار وليس كوفد مفاوضات. هكذا، فقد جلس على مقعده وراء مكتبه، بينما رصت أمامه خمسة مقاعد لممثلى الدول الخمس المشتركة فى بعثة منزيس.

وأراد «منزيس» فيما يبدو أن يلطف جو المقابلة ولعله عرف أو أحس بانطباع «جمال عبد الناصر» عنه. وقد بدأ فقال موجها كلامه للرئيس «إننى أعرفك يا سيدى الرئيس معرفة كاملة فقد عشت معك يومين كاملين». واستغرب «جمال عبد الناصر» واستطرد «منزيس» يقول «إنه أراد أن يدرس الزعيم المصرى مباشرة وعن غير طريق التقارير والأوراق، ولهذا فقد طلب من هيئة الإذاعة البريطانية أن تعد له كل

---

(١) مذكرة عن تفاصيل الاجتماع مودعة فى أرشيف منشية البكرى.

الأفلام التسجيلية والإخبارية التى تحتفظ بها عن الرئيس «عبد الناصر» وأعدت له هيئة الإذاعة البريطانية بالفعل أفلاما تستغرق سبع ساعات. وكان فيها فيلم لخطاب تأميم شركة قناة السويس بأكمله. وأضاف «منزيس» أنه شاهد هذه الأفلام كلها لأنه كان يهمه أن يعرف كيف يتصرف «ناصر» وكيف يتحرك وكيف يتكلم وما هى صلته بجماهير شعبه من خلال لقاءاته العامة معها. «وهكذا فإننى أعرفك يا سيدى الرئيس أكثر مما تعرفنى، وعلى أية حال فإننى أتمنى أن نخرج من هذه الاجتماعات وقد عرفتنى كما أعرفك». وكانت البداية مشجعة.



فى الجلسة الأولى جرى الحديث عن إجراءات العمل فى المباحثات بين اللجنة والرئيس. وتم الاتفاق على هذه الإجراءات ولم يحدث خلاف إلا فى نقطة واحدة حين اقترح «منزيس» أن تكون هناك اجتماعات صباحية واجتماعات مسائية لكى تفرغ اللجنة من مهمتها فى أسرع وقت. وكان رد الرئيس «عبد الناصر» هو «أن شواغله الأخرى مع الأسف لا تسمح الا بعقد جلسة واحدة فى اليوم. فاللجنة فى مصر لديها مهمة واحدة وأما هو (أى الرئيس) فإن عليه مهام أخرى كثيرة خصوصاً فى الأجواء المتوترة التى يثيرها «أصدقاؤكم« فى لندن». وقبل أن يخرج «منزيس» من الاجتماع الأول سلم للرئيس «جمال عبد الناصر» مذكرة من اللجنة لتحديد مهمتها على أساس مشروع الـ ١٨ فى لندن.

وفى مساء ذلك اليوم أقام الرئيس «جمال عبد الناصر» للبعثة مأدبة عشاء فى قصر المنيل بالروضة. وحاول «منزيس» بكل الوسائل أثناء العشاء أن يبدو إنساناً مقبولا ولطيف المعشر وإلى درجة تجاوزت حدها فى بعض الأحيان.

بدأ فور جلوسه على مائدة العشاء بجوار الرئيس «جمال عبد الناصر» فى قصر المنيل بقوله «إننى أعرف هذا القصر فقد جئت فيه مرات عديدة لمقابلة صاحبه الأمير محمد على، وكان رجلا عجوزا يعيش فى عالمه الخاص ولا يعرف عن حقائق الدنيا شيئا لكنه كان رجلا لا بأس به». ثم لمح تمثالا نصفياً فى أحد الصالونات للخديو

«إسماعيل» - جد الأمير «محمد على» - فهرول إلى التمثال وراح يتحسس كتلة رخامه الباردة وعاد ليقول للرئيس «لقد أردت أن أقدم احترامى للرجل الذى أتاح لـ«ديليسبس» أن يشق قناة السويس».

وعندما جلس إلى مائدة العشاء بجوار الرئيس «جمال عبد الناصر» قال له «هل تعرف يا سيدى الرئيس ما هى أحسن مواهبى؟» ثم أجاب عن سؤاله بأنها «تقليد الشخصيات... هل تريدنى أن أقلد لك «تشرشل» أو «جورج برنارد شو»؟» ولم ينتظر ردا وإنما راح يقلد «تشرشل» فى خطابه المشهور عن الحرب على الشواطئ وفى كل قرية وفى كل بيت، وأنه ليس لديه ما يقدمه للشعب البريطانى غير العرق والدم والدموع. وبعد أن فرغ «منزيس» من تقليد «تشرشل» سأل «جمال عبد الناصر» عن رأيه فى المشهد الذى أداه أمامه. ورد «جمال عبد الناصر» بـ«أن مشكلته أنه لم يسمع الأصل ليستطيع أن يحكم على التقليد». ولم ييأس «منزيس» وإنما قال «إن كليمى» - زوجة «تشرشل» - سمعتنى وأنا أقلد زوجها وأقسمت لى أنها لا تجد فارقا بين الأصل والتقليد».

كانت تلك كلها مجرد مقدمات، ثم جاءت لحظة الحقيقة والصدام فى الجلسة الثالثة، فقد تطرق الحديث إلى فكرة تدويل القناة بقصد فصلها عن سياسة أى دولة واحدة. وقال «عبد الناصر» «**إن فصل القناة عن السياسة المصرية غير ممكن لأن القناة فى أرض مصر وخاضعة للحكومة المصرية منذ إنشائها، ولا يمكن أن نفصلها عن سياسة الدولة التى تملكها إلا إذا فصلناها عن سيادة هذه الدولة. ثم لماذا لم يثر هذا الموضوع قبل الآن، ولماذا لم يثر أيام وجود شركة قناة السويس مع أن القناة لم تكن خاضعة لسيادة هذه الشركة**». وعقب «منزيس» بقوله «إن الغرض هو إزالة التوتر الحادث فعلا وإن هذا الموضوع أثير فعلا وهذه حقيقة واقعة ولذلك يجب إيجاد حل له». ورد الرئيس «جمال عبد الناصر» بـ«**أن إيجاد حل رغم إرادة الشعب المصرى غير عملى، ولذلك فإن المشاكل ستبدأ فعلا إذا فرضنا هذا الحل على الشعب المصرى**».

ومال «منزيس» على المكتب الذى كان يجلس أمامه فى مواجهة الرئيس

«عبد الناصر» وركز نظره عليه وقال له «إن عدم الوصول إلى اتفاق هو الذى سيكون بداية المشاكل».

كانت نبرة التهديد واضحة ومد «جمال عبد الناصر» يده فأغلق ملفا كان مفتوحا أمامه وقال لـ «منزيس»: «**إذا قبلت وجهة نظركم فسوف تبدأ المشاكل من الشعب المصرى، وإذا لم أقبلها فسوف تبدأ المشاكل من جانبكم، وهكذا يظهر لى أننا سنواجه مشاكل فى كل الأحوال، وإذا كان ذلك فلنواجهها من الآن ونحن مستعدون لمواجهتها. إننى قبلت التحدث معكم فى مفاوضات حرة فإذا أحسست بالتهديد فإن واجبى يحتم علىّ «أن أطلب وقفها»**.

وتكهرب جو الاجتماع وحاول «منزيس» أن يوضح أنه لم يقصد أى تهديد وتبارى بقية أعضاء البعثة كل منهم ينأى بنفسه عن مظنة أى تهديد. وظلت بعثة «منزيس» فى القاهرة إلى يوم ٩ سبتمبر ولم يكن هناك حل فقد كانت الهوة شاسعة بين المطالب والغايات(١).

[٢]

أثناء وجود لجنة «منزيس» فى مصر ذهب الجنرال «ستوكويل» القائد المعين لخطة الغزو إلى مقابلة مع رئيس الوزراء «أنتونى إيدن» وعرض عليه آخر تفاصيل الإعداد للخطة. ومن ناحيته فإن «إيدن» أخطر الجنرال «ستوكويل» بآخر القرارات فى عملية الإعداد السياسى للغزو وبينها:

● إن فرنسا سوف تكون فيها شريكا على قدم المساواة، وأن النظير الفرنسى للجنرال «ستوكويل» سوف يكون الأميرال «بارجو» الفرنسى وتحته الجنرال «بوفر» قائدا للعمليات البرية بعد الإنزال. كما أن الجنرال البريطانى «كيتلى» سوف يكون هو القائد العام لقوات الحلفاء المشتركة، فى حين يتولى الجنرال «ستوكويل» قيادة الميدان (أصبح اسم الخطة «Musketeers» «الفرسان» بدلا من «الفارس»).

---

(١) نص محضر الجلسة الثالثة من اجتماعات لجنة «منزيس» مع «جمال عبد الناصر» وفيها حدث الصدام فى مهمة البعثة.

● ثم طلب «إيدن» إلى «ستوكويل» تأجيل موعد يوم الغزو من ١٥ سبتمبر إلى يوم آخر حتى تكون نتائج بعثة «منزيس» فى القاهرة قد اتضحت وظهرت أمام العالم.

● إنه سوف يقرر الموعد الجديد لبدء العمليات بالتشاور مع رئيس الوزراء الفرنسى «جى موليه» الذى يتوقع زيارة منه حتى يبحثا معا النتائج المترتبة على بعثة «منزيس» للقاهرة.

● أشار «إيدن» إلى أنه سوف يطلب من رئاسة الأركان إعادة دراسة خطة الغزو لأن «أصدقاءنا الفرنسيين يرون أن يكون المجهود الرئيسى لعملياتنا العسكرية المشتركة موجها إلى بور سعيد وليس الإسكندرية ما دام هدفنا هو قناة السويس». (كانت شركة قناة السويس قد نجحت فى إقناع الحكومة الفرنسية بإعطاء الأولوية للسيطرة على منطقة القناة، وإلا فإن مرافق القناة قد تتعرض للتخريب فى اللحظة التى يبدأ فيها الغزو من اتجاه الإسكندرية).



وأثناء وجود بعثة «منزيس» بالقاهرة قررت وزارة الدفاع الفرنسية أن تخطر إسرائيل بعملية «الفرسان» التى تخطط لها بالتعاون مع بريطانيا. وأبرق الملحق العسكرى الإسرائيلى فى باريس إلى الجنرال «موشى ديان» رئيس أركان الحرب الإسرائيلى يقول له «إن الفرنسيين يفكرون فى دعوة إسرائيل للاشتراك فى الحملة بعد بدايتها بأسبوع»(١).

وفى يوم ٧ سبتمبر وكان «منزيس» لا يزال فى القاهرة اجتمع الأميرال «بارجو» القائد الفرنسى لعملية الغزو مع الجنرال «مائير أميت» رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية ليسأله فى نقطة محددة:

«هل يمكن للطائرات الفرنسية أن تستخدم مطارات إسرائيل فى عملياتها ضد مصر؟».

---

(١) يوميات «بيريز» صفحة ٦٢، ويوميات «ديان» صفحة ٢٠.

ورد «مائير أميت» بـ «أن الأمر يحتاج إلى قرار سياسى وأنه سوف يرجع إلى الحكومة».

وفى يوم ١٨ سبتمبر كان «شيمون بيرين» فى باريس لاجتماع رتب له مع «برجيس مانورى» وزير الدفاع الفرنسى، وقال له «مانورى» إن «فرنسا تدعو إلى عمل عسكرى عاجل ضد «جمال عبد الناصر» مع أخذ الموقف فى شمال أفريقيا فى الحسبان(١) ولكن حلفاءنا الإنجليز يرون أهمية التحضير السياسى قبل بدء العمل العسكرى وهم يرون أن ذلك قد يستغرق قرابة شهرين». ثم توجه «مانورى» بسؤال صريح إلى «بيرين»: «أرجوك أن تحدثنى عما يدور فى أذهانكم بدقة». وأجاب «بيرين» بـ «أنه مضطر للرجوع إلى «بن جوريون» ليعطى إجابة دقيقة».

وبعد يومين رد «بن جوريون» بـ «أنه مستعد للتعاون سياسيا وعسكريا مع فرنسا بهدف شن حرب على مصر وهو لا يوافق على فكرة البريطانيين بالتأجيل قرابة شهرين بغية استكمال الاستعداد السياسى، وبشكل ما فإنه لا يثق فى «إيدن» ولا يظن أن فى استطاعته اتخاذ قرار نهائى لأن مصالح بريطانيا مع العرب متشابكة».



وصل «منزيس» إلى لندن عائداً من القاهرة يوم ٩ سبتمبر واجتمع مع «إيدن» فى اليوم التالى وأعطاه صورة مفصلة لمحادثاته فى القاهرة مؤداها **«أن ناصر لن يتراجع عن موقفه ولن يغير فكره إلا إذا أرغم على ذلك بالقوة».**

ويوم ١١ سبتمبر طار «جى موليه» رئيس وزراء فرنسا إلى لندن ليبحث مع «إيدن» خطوتهم التالية. وكان قرارهم الأول أن يطلبوا إلى شركة قناة السويس سحب مرشديها من العمل فى القناة لكى يتعطل سير الملاحة فيها، ويكون ذلك مبررا لإطلاق قوات الغزو.

---

(١) فى ذلك الوقت كان الفرنسيون يحضرون لعملية خطف قادة الثورة الجزائرية ويتوقعون هجوما شاملا من قوات الثوار على قواتهم.

وانسحب معظم المرشدين الأجانب من عملهم يوم ١٥ سبتمبر. ثم كانت المفاجأة أن سير الملاحة فى القناة لم يتوقف وإنما استمر على حاله الطبيعى، وكأنه لم يحدث شىء فقد كانت مصر مستعدة لهذا الاحتمال وجاهزة له، فقد تمكنت الإدارة المصرية للقناة خلال الأسابيع السابقة من استعارة عدد من ضباط البحرية المصرية دربتهم بسرعة على عملية الإرشاد، كما استقدمت عددا من الضباط البحريين تعاقدت معهم بصفة شخصية من اليونان وإيطاليا وإسبانيا.

وهكذا طاشت ضربة «إيدن» و «جى موليه» فى الهواء.



كان «أيزنهاور» فى واشنطن يتابع التطورات وقد أخطرته المخابرات المركزية الأمريكية بخطة «إيدن» و «جى موليه» لسحب المرشدين. وكان تعليق «أيزنهاور» - طبقا لأوراقه الخاصة - أن «إيدن» يتصرف بحماقة تتزايد مع كل يوم، وأن العالم قد يلومه هو إذا تعطلت الملاحة فى قناة السويس بسبب سحب المرشدين الأجانب من العمل فيها». وكتب إلى «إيدن» فى ذلك اليوم رسالة يقول فيها «إن الاجراء الذى تدعون إليه مكشوف وبدلا من أن يحرج موقف «ناصر» فإنى أخشى أن يؤدى إلى إحراجكم. وإذا كان من رأيكم أن يكون توقف الملاحة فى قناة السويس مقدمة لعمل عسكرى فإنى أود أن أقول لكم بصراحة إن الرأى العام الأمريكى لن يحبذ استعمال القوة فى هذا الظرف المفتعل. إننى مازلت أرى أن الوسيلة للخلاص من «ناصر» دون فتح الباب لقلاقل كبيرة فى المنطقة يستفيد منها الاتحاد السوفيتى - هى عزل «ناصر» عن العالم العربى». ثم أضاف «أيزنهاور» «إن لنا أصدقاء فى الشرق الأوسط وهم مثلنا يرون أن «ناصر» أصبح أكبر من اللازم وهم مثلنا أصبحوا مقتنعين بأهمية قصه إلى حجمه الطبيعى»(١).

ثم تلقى «أيزنهاور» بعد ساعات أنباء انسحاب المرشدين الأجانب من قناة السويس. وتلقى بعدها على الفور أن حركة الملاحة فى القناة تسير سيرها العادى،

---

(١) مجموعة أوراق «أيزنهاور» - الجزء الرابع.

وكان تعليقه - طبقا لرواية «شيرمان آدامز» مساعده السياسى فى البيت الأبيض - هو قوله «**لابد أن نسلم أن ابن الـ «...» هذا زعيم حقيقى لديه الأعصاب ولديه الكفاءة». ثم أضاف «الخسارة الحقيقية أنه لا يقف فى صفنا، بينما نجد فى صفنا قطعة ضخمة من اللحم اسمها سعود»**(١).



وعاد «جى موليه» من لندن بعد اجتماعه مع «إيدن» وعقد اجتماعا لمجلس الوزراء الفرنسى يوم ٢٢ سبتمبر عرض عليه آخر تفاصيل الموقف بما فيه فشل الخطة التى كانت مترتبة على سحب المرشدين الأجانب وإحساس الإنجليز أن نجاح المصريين فى تسيير حركة الملاحة فى القناة قد أفسد العذر المباشر الذى كان يمكن أن تستند عليه عملية الغزو الفورى لمصر. وكان اقتراحه على المجلس أن فرنسا لا تستطيع أن تنتظر، وأنها لابد أن تدفع الأمور بجهودها الخاصة إلى الحركة وإلا فإن الخطط الفرنسية - البريطانية قد تتعرض للتجميد. وقرر مجلس الوزراء فى هذه الجلسة الموافقة على أن تدخل فرنسا فى حلف عسكرى وسياسى مع إسرائيل استجابة لاقتراح «بن جوريون» الأخير.

وفى نفس اليوم طلبت الحكومة الفرنسية رسميا من الحكومة الإسرائيلية إيفاد وفد على مستوى عال إلى باريس لمناقشة خطة التعاون بين البلدين.

وطار إلى باريس وفد يرأسه «شيمون بيريز» وقرر «جى موليه» أن يكون وزير دفاعه «مانورى» هو المفاوض الفرنسى.

ويورد تقرير الدكتور «مايكل بريشر» صفحة من محاضر جلسات اجتماع «بيريز - مانورى» دار فيها الحديث على النحو التالى:

بيريز: أريد أن أوضح لكم أن قرار الحكومة الإسرائيلية بالتعاون معكم يعنى مشاركة كاملة على قدم المساواة.

---

(١) مجموعة أوراق «أيزنهاور» - الجزء الرابع.

مانورى: «لم يخطر ببالنا لحظة شىء خلاف ذلك».

بيريز: «ولكن ما هو الحال بالنسبة للبريطانيين وهم شركاؤكم»؟

مانورى: «نعتقد أنهم فى النهاية سوف يقبلون فإن «كريستيان بينو» عندما ظهر له تردد «إيدن» فى لندن (أثناء وجوده مع «موليه») قال لـ «إيدن» فى وجهه «يبدو أنه ليس أمامنا خيار إلا أن نتعاون مع الإسرائيليين يدا بيد». وكان رد «إيدن» عليه «بشرط ألا يضروا بالأردنيين». وهكذا نستطيع أن نستنتج أن الإنجليز لن يكون لديهم اعتراض جدى».

بيريز:إن القلق يساورنا إزاء موقف الولايات المتحدة».

مانورى: «إن فرنسا لديها وسائلها».

بيريز: «وماذا عن الاتحاد السوفيتى؟».

مانورى: «إن معلوماتنا فى هذه النقطة ليست كافية».



وعاد «شيمون بيريز» إلى تل أبيب وقدم تقريرا عن مباحثاته فى باريس إلى «بن جوريون». واجتمعت الوزارة الإسرائيلية يوم ٢٥ سبتمبر وقدم «ديفيد بن جوريون» الموضوع لمجلس الوزراء على النحو التالى(١):

«إن أمامنا قراراً إستراتيجيا ربما كان أخطر قرار مثل تاسيس الدولة، ومن رأيى قبوله فإن فرصة تعاوننا مع دولة كبرى مثل فرنسا لن تتاح لنا مرة أخرى».

ووافق مجلس الوزراء ثم تشكل وفد للمفاوضات الكاملة مع فرنسا مكون من «موشى ديان» و«شيمون بيريز» و«جولدا مائير» و«موشى كارميل».

ودارت المفاوضات الكاملة بين إسرائيل وفرنسا فى جلسات سرية عقدت فى «سان جيرمان» يوم ٣٠ سبتمبر، وكان الوفد مكونا من وزير الخارجية «كريستيان

---

(١) محضر مجلس الوزراء الإسرائيلى يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٥٦.

بينو» والجنرال «شال» قائد الطيران الفرنسى و«توماس آبل» مدير وزارة الدفاع الفرنسية، والكولونيل «لوى مانجا» السكرتير العسكرى لوزير الدفاع.

ودارت المفاوضات بسهولة ويسر، فقد كان الاتفاق كاملا بين الطرفين، وتقدمت «جولدا مائير» بثلاثة أسئلة حساسة:

«١ - كيف يكون رد فعل البريطانى إزاء عملية فرنسية - إسرائيلية مشتركة؟

٢ - كيف يمكن أن تتصرف الولايات المتحدة؟

٣ - كيف يمكن أن يتصرف الاتحاد السوفيتى؟»

وكان على «كريستيان بينو» أن يرد على تلك الأسئلة، وكانت ردوده كما يلى:

«١ - **بريطانيا**: سوف تؤيد أى إجراء يتخذ ضد «جمال عبد الناصر».

٢ - **الولايات المتحدة**: لا تستطيع أن تفعل شيئا لأنها مستغرقة فى انتخابات الرئاسة (كان «أيزنهاور» قد رشح نفسه لمدة رئاسة ثانية، وكان موعد الانتخابات هو الثلاثاء ٦ نوفمبر).

٣ - **الاتحاد السوفيتى**: سوف يقدم عونا عسكريا لمصر، ولكنه لن يتدخل بصورة مباشرة وإلا أدَّى ذلك إلى مواجهة الولايات المتحدة.

وتقدم الوفد الإسرائيلى فى نهاية الجلسة بقائمة طويلة من الطلبات العسكرية. وعاد الوفد الإسرائيلى إلى تل أبيب وأصدر الجنرال «ديان» أمرا إنذاريا إلى القيادة العامة للجيش الإسرائيلى بالاستعداد لبدء هجوم عسكرى على مصر، وأعطى فترة لاستكمال الاستعداد لا تزيد على ثلاثة أسابيع وكان تاريخ هذا الأمر الإنذارى يوم ٢ أكتوبر ١٩٥٦.



كان «إيدن» فى لندن لا يزال يحاول تمهيد الجو السياسى بعد أن فشلت عملية انسحاب المرشدين الأجانب من قناة السويس.

وتوصل بالاتفاق مع «دالاس» إلى أنه قد يكون من المناسب دعوة مؤتمر لندن إلى الاجتماع مرة ثانية لكى يسمع تقرير لجنة «منزيس» التى أوفدها إلى مصر.

واجتمع مؤتمر لندن فعلا يوم ١٩ سبتمبر، ثم أنهى أعماله بثلاثة بيانات:

١ - بيان بالدعوة إلى عرض الأزمة على الأمم المتحدة فى وقت مناسب ما دام الاتصال المباشر مع مصر لم ينجح كما أثبت فشل بعثة «منزيس».

٢ - بيان بالمضى فى تأليف هيئة للمنتفعين بقناة السويس تتصل بمصر وتتفاوض معها إذا أمكن.

٣ - بيان برغبة الولايات المتحدة فى الانضمام إلى هيئة المنتفعين.

وسجل «كريستيان بينو» فى المؤتمر رسمياً أن **«فرنسا ترى أن مؤتمر لندن الثانى قد تصرف على نحو يؤدى إلى تمييع الموقف، وكل ما نجح فيه هو أن يعطى فرصة للكولونيل «ناصر» ليكسب وقتا جديدا وأرضا إضافية».**

وكان «بينو» يعرف بالطبع ما جرى ويجرى فى باريس فى هذه الفترة.

[٣]

فى القاهرة كان «جمال عبد الناصر» يواصل تدعيم الجبهة المؤيدة لمصر، وكتب إلى «نهرو» يبلغه بتفاصيل محادثاته مع «منزيس» ويستطلع رأيه فى الخطوات التى يمكن أن يقوم بها فى الأيام القادمة. وقال لـ «نهرو» فى خطابه إنه يريد مشاورته فى فكرة تدرس الآن فى القاهرة بتوجيه نداء إلى مجلس الأمن يطلب إليه بحث التهديدات والتحركات العسكرية البريطانية - الفرنسية.



كان «جمال عبد الناصر» مهتمًا بموقف المملكة العربية السعودية على وجه التحديد، فقد كان يرى المحاولات الأمريكية للوقيعة بين البلدين ويتحسب لها.

كان الملك «سعود» فى البداية قد كتب إلى «جمال عبد الناصر» يؤيد قراره التاريخى بتأميم قناة السويس.

وبعد أن بدأت التهديدات والتظاهرات المسلحة ضد مصر ـ ساورت الملك مشاعر خوف فبعث إلى القاهرة برقية جاء فى مقدمتها:

«حالا أبلغوا الرئيس جمال عبد الناصر أن موقف الدول الغربية وبالأخص بريطانيا وفرنسا من مصر قد أزعجنى وأقلقنى وحرمنى النوم(١)

....

وبعد أيام بعث الملك إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» بصورة من تقرير قدمه إليه الأمير «فيصل» وزير الخارجية عن تفاصيل الاتصالات التى قامت بها المملكة العربية السعودية مع الولايات المتحدة الأمريكية، بما فى ذلك رسالة تلقاها الأمير «فيصل» من «دالاس»(٢).

ثم تلقى «جمال عبد الناصر» رسالة من الملك «سعود» قدمها السفير السعودى فى القاهرة للسيد «على صبرى» مدير مكتب الرئيس «عبد الناصر» كان عنوانها كما يلى: «برقية(٣) ملكية مستعجلة للغاية». وفى هذه البرقية كان الملك «سعود» يقترح أن يقوم بدور الوسيط بين الولايات المتحدة ومصر. وقال الملك فى نهاية رسالته «فإن نجحنا فى العمل فهو المطلوب لأن المقصد من ذلك هو مواصلة السعى وجعل الباب مفتوحًا حتى نصل إلى ما نرجوه».

وأحس «عبد الناصر» بشىء من القلق من هذه البرقية. فقد كان طول الوقت على علم بالمحاولات الأمريكية التى تبذل للتفريق بين مصر والسعودية. وها هو الملك

---

(١) النص الكامل لبرقية الملك «سعود» إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٣٨).

(٢) رسالة الملك «سعود» المتضمنة تقرير الأمير «فيصل» منشورة بكاملها فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٤٠).

(٣) نص البرقية «الملكية» من «سعود» إلى الرئيس «عبد الناصر» منشورة بالكامل فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٣٩).

«سعود» يتصرف على نحو قد يوحى بأنه على وشك أن يتحول من حليف إلى وسيط.

وكتب إلى الملك «سعود» يقترح عليه ضرورة عقد اجتماع بينهما بعد كل ما جرى من تطورات.

وفى يوم ٢٣ سبتمبر طار «جمال عبد الناصر» إلى مطار «الظهران» فقد اقترح الملك أن يكون الاجتماع فى «الدمام» عاصمة المنطقة الشرقية، ولعله أراد أن يكون الاجتماع بعيدًا عن المدن الكبرى فى السعودية كجدة أو الرياض أو غيرهما من مواقع التجمعات السكانية الكبيرة، حتى لا تتحول زيارة «جمال عبد الناصر» إلى مظاهرة جماهيرية كبرى فى مناخ الحماسة والتعبئة المسيطر على العالم العربى كله.



وعقد أول اجتماع بين الاثنين فى حضور الأمير «فيصل» وعدد من الأمراء السعوديين، وفى حضور الوفد المصرى الذى كان يرافق الرئيس، واستمر الاجتماع أكثر من ثلاث ساعات، جرى خلالها استعراض جوانب الأزمة برمتها.

لكن وصول «جمال عبد الناصر» إلى «الدمام» تحول رغم كل شىء إلى مظاهرة جماهيرية لم تشهد لها السعودية مثيلاً. فقد زحفت جماهير غفيرة من كل أرجاء المملكة، كما توجهت قبائل بقضها وقضيضها إلى «الدمام» للترحيب برجل أصبح رمزًا لنضال أمة بأسرها.

وأحس «جمال عبد الناصر» بالحرج فقد وقعت مشاهد يمكن أن تؤدى إلى حساسيات إنسانية لا سبيل إلى دفعها. ففى لحظة من اللحظات كان على الملك «سعود» وولى عهده الأمير «فيصل» أن يشتركا مع الحرس المدنى بأيديهما فى صد الجماهير التى كانت تندفع كالسيل تريد أن تلمس «جمال عبد الناصر» شخصيًا.

وانتقلت المحادثات إلى داخل أسوار القصر الأحمر مقر الملك «سعود» فى الرياض، واقترح «جمال عبد الناصر» أن يعقد مع الملك جلسة ثنائية لا يحضرها غير الأمير «فيصل» لأنه يريدها جلسة «مكاشفة» تتحدث فيها القلوب.

وبعد لأى وتلعثم وعبارات تبدأ ثم لا تكتمل أو يستهلها «سعود» ويستكملها «فيصل» استطاع «جمال عبد الناصر» أن يفهم بطريق غير مباشر أحيانًا وبالاستنتاج أحيانًا أخرى أن الملك لديه أسباب لخصها جمال عبد الناصر بعد ذلك فيما يلى:

١ - « أن الملك عاتب لأنه فوجئ بقرار تأميم شركة قناة السويس وكان من حقه أن يعرف مسبقًا قبل إعلان القرار كأخ وصديق».

٢ - « أن الملك متخوف من أن اللجوء إلى التأميم خطر بعد تجربة «مصدق» وهذا الخطر لا يقتصر على مصر وحدها لأن ما يصيبها - لا سمح الله - يصيبنا جميعًا».

٣ - «أن الملك قلق من أن تأميم قناة السويس قد يطرح فى أذهان الناس فكرة تأميم البترول العربى وهذا فوق طاقاتنا واحتمالنا».

٤ - «أن الملك يشعر أن عملية التاميم وما صاحبها من التعبئة النفسية فى العالم العربى قد خلقت جوًا مشحونًا لدى «العامة» و «البسطاء» من الناس وهذا مصدر خطر».

٥ - «أن الملك يشعر أن الحملة النفسية التى صاحبت التاميم اقتضت تركيز الهجوم على حلف بغداد، وفى التركيز على حلف بغداد فإن الحملة ضغطت بشدة على دور الملوك الهاشميين، ثم إن الكلام عن الملوك الهاشميين تجاوز حده فى بعض الأحيان فوصل رذاذه إلى الملوك جميعًا بدون استثناء أو تمييز و «سيادة الأخ يرى أن نظام الحكم فى السعودية ملكى، وأى حملة عامة على الملوك تسيء إليه».

وحين فرغ الملك بمساعدة الأمير «فيصل» مما لديه - كان أول تعليق لـ «جمال عبد الناصر» أنه أبدى سعادته لأن الملك فتح قلبه بإخلاص كما ينبغى أن يفعل الشقيق مع شقيقه. ثم راح يرد على مخاوف الملك وشكوكه واحدة بعد واحدة لافتًا النظر إلى أنه يعرف أن الهدف الثابت للولايات المتحدة الأمريكية هو الوقيعة بين مصر والسعودية وبينه وبين الملك «سعود» شخصياً، وأنه يعرف - مع الأسف - أن

هناك بعض الجهات فى السعودية لها مصالح مع الولايات المتحدة، وأنها تستمع كثيرًا إلى رجال من أمثال «تيرى ديوس» (رئيس مجلس إدارة شركة «أرامكو» التى تحتكر البترول السعودى) ومن أمثال «كيرميت روزفلت» الذى نعرفه جيدًا فى مصر.

ثم اقترح «جمال عبد الناصر» ضرورة إيجاد تنسيق أكبر بينه وبين الملك وتشاور مبكر فى كل الأمور ومصارحة مستمرة تكشف محاولات الوقيعة أولاً بأول.



وفى هذه الفترة الحافلة من تاريخ العالم العربى كان حلف بغداد - باشتراك العراق وفى عاصمته - مشغولاً بدراسة خطة عسكرية لتدمير القوات السوفييتية فى حالة حرب عالمية، كما أن اللجنة السياسية التابعة له كان تضع خطة كاملة لاستغلال موسم الحج القادم للقيام بدعاية ضد الشيوعية تركز بالذات على الحجاج القادمين من سوريا ومصر واليمن.

وكانت اللجنة تقرر اعتمادات مالية هائلة لإرسال آلاف من «**الحجاج السياسيين**»[1] من دول الحلف - تركيا وإيران والعراق وباكستان - وتعد لهم برنامج تدريب يمكنهم من القيام بالمهمة شرط أن لا يظهر أنهم رسل موفدون من حلف بغداد وبأمواله.



وفى يوم ٤ أكتوبر تقدمت بريطانيا وفرنسا بشكوى إلى مجلس الأمن ضد مصر تقوم على أساس أن مصر استولت تعسفا على قناة السويس، خرقًا للاتفاقيات الدولية مما يعرض حرية الملاحة فى هذا الممر الحيوى البحرى لأخطار داهمة.

---

(١) التعليمات المعطاة لهؤلاء الحجاج - وهى أيضًا وثيقة تم العثور عليها ضمن الوثائق السرية للحلف بعد سقوطه - منشورة بنصها فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٣٧).

ومن واشنطن بعث الدكتور «أحمد حسين» بتقرير يقول فيه إن «أحد كبار دبلوماسيي السفارة المصرية فى واشنطن كان يتحدث مع مسئول من وزارة الخارجية الأمريكية أمس. وبعد حديث ممتد عن آخر التطورات قال الدبلوماسى المصرى: «لننتظر ما تجىء به الحوادث فى الأسبوع القادم». وكان رد المسئول الأمريكى عليه هو قوله: **«فى الأسبوع القادم لن توجد مصر»**.»



وفى يوم ٣ أكتوبر كانت هناك خطتان جاهزتان لغزو مصر:

- عرضت لجنة التخطيط الفرنسية - الإسرائيلية خطة كاملة وافق عليها «بن جوريون» و «موليه» لهجوم ضد مصر يبدأ بعملية خداع على الجبهة الأردنية لمجرد تحويل الأنظار، وفيما الكل منشغل بالأردن ينطلق الهجوم على مصر وتكون البداية فيه **ضربة جوية ضد سلاح الطيران المصرى**.
- عرضت لجنة التخطيط البريطانية - الفرنسية خطة «الفرسان» «Musketeers» المعدلة، وكانت البداية فيها أيضاً **ضربة جوية ضد سلاح الطيران المصرى**.

وشعر «والتر مونكتون» وزير الدفاع البريطانى أن الأمور سائرة فى طريق لا يرضى به فقدم استقالته إلى «أنتونى إيدن» وأعلنت يوم ١٠ أكتوبر.

الفصل الخامس

معركة الأمم المتحدة

[١]

وانتقلت بؤرة الحوادث مؤقتًا إلى مقر الأمم المتحدة فى نيويورك بعد أن قدمت كل من بريطانيا وفرنسا شكوى ضد مصر بسبب تأميمها لقناة السويس وردت مصر بشكوى مقابلة ضد الدولتين على أساس أنهما تهددانها بالعدوان المسلح لأنها مارست حقوق سيادتها وأممت شركة تجارية.

ولم يكن أحد يعرف على وجه القطع كيف يكون مسار المناقشات ولا ما هو الهدف المرجو فى النهاية بعدها. فالأزمة معقدة والانقسامات فيها حادة وهى بالتأكيد لا تتبع خطوط الحرب الباردة التقليدية، فالغرب ليس طرفًا واحدًا، وليس بكامله واقفًا فى صف واحد، والعالم الثالث مختلف، بل إن العالم العربى ذاته معسكران أو ثلاثة.



واستعدادًا للمعركة المنتظرة فى مجلس الأمن توصل «جمال عبد الناصر» إلى نتيجة مؤداها أن جبهة المعركة القادمة فى مجلس الأمن سوف تكون جبهة واسعة بل إنها قد تصبح أكثر اتساعًا من قاعة اجتماعات مجلس الأمن نفسه. وهكذا قرر:

● أن يتولى الدكتور «محمود فوزى» وزير الخارجية بنفسه تمثيل مصر فى مناقشات مجلس الأمن وفى الاتصالات السياسية التى سوف تجرى بالتأكيد فى قاعاته وكواليسه.

● أن يسافر السيد «على صبرى » إلى نيويورك لكى يكون مسئولاً عن الاتصال بين نيويورك والقاهرة.

● أن يسافر الدكتور «حلمى بهجت بدوى» رئيس مجلس إدارة هيئة قناة السويس الجديدة إلى الولايات المتحدة لكى يقوم بمهمة موازية لمناقشات مجلس الأمن غرضها إجراء لقاءات مع دوائر شركات الملاحة والبنوك لطمأنتها إلى خطط مصر المستقبلية بالنسبة لقناة السويس ومشروعات توسيعها وزيادة كفاءتها.

وكان علىّ أن أسافر أنا الآخر إلى نيويورك للاتصال بالصحافة الأمريكية والعالمية المهتمة بالأزمة.



وقبل أن تنعقد الجلسة الأولى تلقت القاهرة برقيتين[1] من السفير «عمر لطفى» المندوب المصرى الدائم فى الأمم المتحدة:

□ **البرقية الأولى:** تحدث فيها عن مقابلة بينه وبين «كابوت لودج» المندوب الأمريكى الدائم بالأمم المتحدة قال له خلالها «أنه لا يعرف كيف يتصرف فى مجلس الأمن لأن وزير الخارجية «دالاس» فوجئ على ما يبدو بالشكوى البريطانية الفرنسية ضد مصر ولم يرسل له أية تعليمات حتى هذه اللحظة».

□ **والبرقية الثانية:** يقول فيها «أن السفير «جلال عبده» المندوب الإيرانى فى مجلس الأمن أبلغه حيرته، فقد سمع أن فرنسا قررت أن تترك رئاسة جلسات مجلس الأمن فى هذه الدورة لإيران. كان الدور على فرنسا وفقا للترتيب الطبيعى لكن فرنسا وقد تحولت إلى دولة شاكية فى الدورة تنازلت ـ وفقا للقواعد ـ عن رئاسة الدورة للدولة التى تليها فى الترتيب وكانت إيران والسفير «جلال عبده» لا يتصور إنسانيا أنه يستطيع أن يرأس جلسة ـ يحتفظ فيها بحياده كرئيس ـ

---

(١) نص برقيات «عمر لطفى» من مجلس الأمن منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت أرقام (١٤٦ـ ١٤٧ـ ١٤٨ـ ١٥٠ـ ١٥١ـ ١٥٢ـ ١٥٣ـ ١٥٧ـ ١٥٨ـ ١٦٠ـ ١٦١ـ ١٦٤ـ ١٦٥ـ ١٦٦ـ ١٦٧ـ ١٦٨ـ ١٦٩ـ ١٧٠ـ ١٧١ـ ١٧٢).

إذا كان موضوعها يخص بلدا إسلاميا كبيرا مثل مصر؟ والمشكلة أنه فى الوقت نفسه يشعر بضغوط عليه من طهران وهو يطلب أن تتصل القاهرة ـ إذا كان ذلك ممكنا ـ بالعاصمة الإيرانية وتطلب إليها رسميا تأييد موقفها».



ووصل الدكتور «محمد فوزى» إلى نيويورك وتوجه على الفور لمقابلة[1] «داج همرشولد» السكرتير العام للأمم المتحدة. ولم يكن «همرشولد» حائرا فقط وإنما كان قلقا أيضا من الموقف المتوتر على الحدود بين الأردن وإسرائيل وقال لـ «فوزى» «إننى على اتصال مستمر بـ «جوريون» وقد بدأت أرى شعاعا واحدا من الأمل». ثم قال: «همرشولد» لـ «فوزى» **«لكن ما يؤرقنى حقيقة هو أزمتكم وأنا أرى أن اليهود المتطرفين متعطشون للعمل العسكرى ضدكم وأتمنى ألا تعطوهم فرصة. وبالنسبة للقناة فإنكم كسبتم الجولة الأولى لكن الموقف قد يتحول، فإذا شعر العالم أنكم لا تريدون قبول حل وسط تخلى عن تأييدكم».**

الدكتور «فوزى» معه صراحة فقال له «إن نوايا البريطانيين والفرنسيين مبيتة على عدم الاتفاق، وكل هذه المناقشات مجرد واجهة». وقال «همرشولد» لـ «فوزى» «إنه يريد أن يفرق بين موقف بريطانيا وموقف فرنسا، وأنه يعرف «سلوين لويد» من زمن بعيد وهو واثق أن «سلوين لويد» فى صميم قلبه يرغب فى الوصول إلى حل بعكس كل ما يمكن أن توحى به المظاهر، والخطر هو «إيدن» المتحفز لاستخدام القوة ولكن «إيدن» سوف يجد أن يده مقيدة إذا سبقناه نحن هنا بحل. وهو (همرشولد) يعتقد أنه كلما طال الوقت، بعد احتمال إقدام الإنجليز على استخدام القوة. وأما الفرنسيون...».

وسكت «همرشولد» ولم يكمل عبارته عن فرنسا واكتفى بإشارة بيده تعنى

---

(١) كل مجموعة برقيات الدكتور «محمود فوزى» من نيويورك إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» فى القاهرة طوال فترة عرض الأزمة على مجلس الأمن ـ منشورة بالكامل فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت أرقام (١٤٩ ـ ١٥٤ ـ ١٥٥ ـ ١٥٦ ـ ١٥٩ ـ ١٦٢ ـ ١٦٣ ـ ١٧٣ ـ ١٧٤ ـ ١٧٥).

صعوبة الأمر ثم أضاف «فوق ذلك فإن الفرنسيين لديهم مشاكلهم الداخلية وهى كثيرة».



وبدأ الدكتور فوزى» مقابلاته مع وزراء خارجية الدول الكبرى الذين هرعوا فى ذلك الوقت إلى نيويورك. باجتماع مع «ديميترى شبيلوف» وزير خارجية الاتحاد السوفيتى، وكانت لدى «شبيلوف» شكوكه فقد قال للدكتور «فوزى» **إن مصر سوف تخطئ إذا تصورت أن هناك خلافا بين الانجليز والفرنسيين فهم متفقون فى هدف السيطرة على مصر واختلافهم هو فى الوسائل فقط». ثم أضاف «إنكم تخلصتم من الإنجليز لكن الأمريكيين إذا تدخلوا فى الأمر فلن يخرجوا بسهولة لأن أملهم أن يحلوا محل الفرنسيين والإنجليز».** ثم توجه «شبيلوف» بسؤال إلى الدكتور «فوزى» وهو «أنه قرأ فى الصحف أن رئيس هيئة قناة السويس الجديدة (وهو الدكتور «حلمى بهجت بدوى») موجود الآن فى نيويورك وأنه يجرى اتصالات مع بعض شركات الملاحة والبنوك»؟ وشرح له الدكتور «فوزى» مهمة رئيس مجلس إدارة هيئة قناة السويس وكان تعليق «شبيلوف» أنه «لا بأس مع ذلك إذا كان من باب التكتيك وليس من باب الاستراتيجية».

وقبل أن ينتهى اليوم الأول للدكتور «محمد فوزى» فى نيويورك عاد إليه مرة أخرى السفير «جلال عبده» ليقول له «إن الضغط عليه بلغ حد الوقاحة، وأنه بعث لطهران ببرقية يطلب فيها مجىء وزير خارجية إيران السيد «انتظام» لكى يرأس جلسات مجلس الأمن فهو لا يريد أن يجلس على منصة الرئاسة فى هذه الجلسات وإذا وجد أنه مضطر لذلك فسوف يفكر فى الهرب، وإن كان لا يعرف كيف وإلى أين؟» وفجأة توجه للدكتور «فوزى» باقتراح فكر فيه لحل الأزمة وحل مشكلته الشخصية فى نفس الوقت كرئيس للدورة. وكان اقتراحه هو «أن تفكر الحكومة المصرية فى تعيين مفوض سامى يمثل الدول المستعملة للقناة، ويشير على الحكومة المصرية فى شأنها». ونصحه الدكتور «فوزى» أن «لا يفكر فى مثل هذا الاقتراح لأنه

إهانة لمصر إلا إذا عينت الأمم المتحدة مفوضًا ساميًا فى كل القنوات والممرات المائية الأخرى فى العالم».



والتقى الدكتور «محمود فوزى» مع «جون فوستر دالاس» وزير الخارجية الأمريكى وكان اجتماعهما أول لقاء بين مسئول مصرى وبين وزير الخارجية الأمريكى بعد قرار سحب عرض المساهمة الأمريكية فى تمويل السد العالى. وكان لا بد أن يتطرق الحديث إلى مسئولية «دالاس» عن تفجير الأزمة. وتحمل «دالاس» مسئوليته، وقال للدكتور «فوزى» إنه «لا ينكر أنه هو الذى أشار على الرئيس «أيزنهاور» بسحب العرض الأمريكى لأن مشروع السد بضخامته كان أكبر من طاقة الاقتصاد المصرى، وأن فترة تنفيذ المشروع سوف تجعل الشعب المصرى يشعر بالضيق. وهم لا يريدون أن تكون أمريكا موجودة فى مشروع يصاحبه مثل هذا الضيق. ولذلك لم يكن لديه مانع من قيام الروس بهذه المهمة الثقيلة إذا أرادوا». ثم أضاف «دالاس» «وقد تغير الموقف الآن فلم يعد هناك داع للروس لأنه من الممكن تمويل السد من دخل القناة».

ومن هذا المدخل تطرق «دالاس» إلى مطالب الغرب فى إدارة قناة السويس. وقال للدكتور «فوزى» إنه «يريد أن تساعده مصر على حصر الموضوع، فهناك كثيرون فى بريطانيا وفرنسا لا يريدون حلاً سلميا».

وفى مقابلة تالية بين «فوزى» و«دالاس» همس «دالاس» بنصيحة فى أذن الدكتور «فوزى»، وحاول أن يجعلها حميمة فقال له «حاولوا أن تأخذوا «لويد» من «بينو» فإن فرنسا تريد عرقلة أى اتفاق حتى تدخل الحرب، وأما انجلترا فإن طبيعة الأحوال فيها تجعل «إيدن» يجر قدميه».



بينما كان الدكتور «محمود فوزى» يخوض معركة مجلس الأمن كان الدكتور

«حلمى بهجت بدوى» يخوض معركة لا تقل خطورة عنها فى مواقع السيطرة الاقتصادية والمالية فى نيويورك.

وفى ذلك الوقت تقاطر على نيويورك معظم رؤساء مجالس إدارات شركات البترول وشركات الملاحة التى تملك أساطيل الناقلات. ووصل إليها ضمن من وصلوا «شارل رو» رئيس مجلس إدارة شركة قناة السويس (السابق) ومعه «جورج بيكو» مديرها العام.

وإذا كانت معركة مجلس الأمن قد تحولت إلى مبارزة بين «فوزى» من ناحية و«بينو» و«لويد» من ناحية أخرى مع قيام «همرشولد» بدور الحكم - فإن المعركة الأخرى تحولت إلى مبارزة بين الدكتور «بدوى» من ناحية و«شارل رو» من ناحية أخرى وحاول «يوجين بلاك» مدير البنك الدولى أن يقوم بدور الحكم.

كان المنطق الذى استخدمه «يوجين بلاك» مع الدكتور «بدوى» مختلفا:

«أنه سوف يكون من الصعب عليكم أن تصلوا إلى اتفاق مع دول، فهذه الدول لها مصالح معقدة ومتشابكة وربما كان الأسهل عليكم أن تتفقوا مع شركات وبنوك لأن المصالح فى هذه الحالة ظاهرة ومباشرة».

ثم قصد «يوجين بلاك» إلى اقتراحه المحدد فسأل الدكتور «بدوى» «ماذا لو أن البنك الدولى دخل ليعقد مع مصر اتفاقية لتحسين وتطوير قناة السويس بدلا من اتفاقية تمويل السد العالى؟ وإذا كان ذلك ممكنا فهل يمكن التوصل إلى نظام يحل فيه البنك الدولى محل هيئة المنتفعين فيقوم بتحصيل رسوم المرور فى القناة ويخصم منها أقساط مشروعات تحسين وتطوير القناة، ثم يقدم الصافى بعد ذلك إلى مصر تبنى به السد العالى؟».

والتقى الدكتور «بهجت بدوى» مع ممثلين لشركات البترول يتقدمهم «تيرى ديوس» رئيس مجلس إدارة شركة «أرامكو» - صاحبة احتكار البترول السعودى - الذى قال له إنه «لا يمكن إيجاد بديل لقناة السويس، وأن القناة يجب أن تستعد لعصر الناقلات العملاقة وأن عبء إعداد قناة السويس لعصر الناقلات العملاقة

سوف يستنفد كل الرسوم التى تحصلها مصر من القناة، وسوف تكتشف مصر فى «آخر النهار» أنها إما أن تبنى السد العالى على حساب مستقبل القناة، أو تهتم بمشروعات القناة المستقبلية على حساب أى أمل فى بناء السد العالى. والتوفيق بين المطلبين اعتمادا على الرسوم من القناة استحالة كاملة. ولذلك فمن الخير أن تكون هناك وسيلة تقوم فيها شركات البترول بدور ما فى مستقبل القناة، وأن هذا الدور مفتوح لمختلف التصورات».

وهكذا كان على مصر طبقا لهذا كله أن تسلم القناة إما لسيطرة بريطانية فرنسية - أو تتركها رهينة لدى البنك الدولى - أو تقدمها لشركات البترول ترعى مستقبلها!

وكانت تعليمات «جمال عبد الناصر» للدكتور «بهجت بدوى» أن «لا يقبل شيئا ولا يرفض شيئا، وإنما يستمع باهتمام ويسجل نقاطا ويطلب مذكرات تطرح «للبحث» حينما يعود إلى القاهرة».



وجرت مقابلة بين «على صبرى» و«كيرميت روزفلت» بناء على طلب من على صبرى وقال له «كيرميت» إن «الانجليز والفرنسيين يريدون أن يصلوا بالمناقشات فى مجلس الأمن إلى مشروع قرار يعترض عليه السوفييت بحق «الفيتو» بحيث تظهر مصر وكأنها فى أحضان السوفييت». ورد عليه «على صبرى» بأن «هذه سياسة فرنسا وإسرائيل وما تقول به الإذاعات السرية الموجهة من الاثنين إلى الشعب المصرى». **ثم أطلعه على منشور بهذا المعنى وزع فى أروقة مجلس الأمن يحمل توقيع «محمود أبو الفتح» الذى يدير تنظيم «مصر الحرة» بالتعاون مع المخابرات الفرنسية من باريس.**

واقترح «كيرميت» على «على صبرى» أن يسافر إلى واشنطن لمقابلة «آلان دالاس» ورد «على صبرى» بأنه «لا يستطيع أن يتحرك إلا إذا حصل على إذن من القاهرة». وبعث «على صبرى» إلى الرئيس «عبد الناصر» باقتراح «كيرميت روزفلت» وفى ظرف ساعتين تلقى تعليمات بالرفض.



أثناء هذا كله كانت المناقشات محتدمة فى مجلس الأمن وبدت كلها جدلا عقيما لن يؤدى إلى شىء. واقترح «همرشولد» أن يتحول عمل المجلس إلى جلسات سرية «لتقليل النزعات الخطابية الموجهة إلى جماهير أخرى خارج مجلس الأمن»، ولكن النتيجة لم تتغير فى الجلساتِ السرية عما كانت عليه فى الجلسات العلنية.

واقترح «همرشولد» تجربة الدبلوماسية الهادئة عن طريقة جلسات مغلقة تعقد فى مكتبه وتقتصر على الأطراف المباشرين.

وهكذا بدأت سلسلة من الجلسات المقفلة فى مكتب «همرشولد» شارك فيها الدكتور «محمود فوزى» عن مصر. و «سلوين لويد» و «كريستيان بينو» عن بريطانيا وفرنسا.

ولم يكن الروس سعداء بهذا الترتيب، وذهب وزير الخارجية السوفيتى «ديميترى شبيلوف» يقول للدكتور «فوزى» إنهم «يفهمون مناورات الغرب لإبعادهم عن المحادثات لكنهم يخشون على مصر وعلى أى حال فإنهم لا يمانعون، بل لعلهم يرحبون ويتمنون أن يوصل هذا الأسلوب الذى اقترحه «همرشولد» إلى نتيجة إيجابية». وأضاف «شبيلوف» يقول لـ «فوزى» إن «الاتحاد السوفيتى يكبح جماح نفسه ولو تركوا أنفسهم ومشاعرهم لقالوا الكثير للغرب ولكنهم لا يفعلون ذلك رغبة فى تسهيل الأمور أمام مصر».

ولم يكن وزير خارجية الهند «كريشنا مينون» سعيدا بنفس المقدار وربما أكثر. فقد كانت لـ «مينون» فى ذلك الوقت شخصية النجوم وطباعهم وكان هواه أن يكون هو باستمرار بطل المسرح وفى وسطه. ولم تكن علاقته طيبة لا بالدكتور «محمود فوزى» ولا بـ «داج همرشولد» السكرتير العام للأمم المتحدة، وكان «مينون» يعتبر أن شخصية الاثنين خالية من أى وهج أو بريق. كثيرا ما كان يصف «فوزى» بأنه «همرشولد مصرى» و«همرشولد» بأنه «فوزى سويدى». وقد أحس «مينون» أن الجلسات المقفلة فى مكتب السكرتير العام للأمم المتحدة تستبعده من الصورة ولم يخف عن أحد مشاعره إلى درجة أن «شبيلوف» نفسه قال للدكتور «فوزى»

«إننى لا أفهم داعيا لوجود «مينون» فى نيويورك، فالوضع مختلف الآن عما كان عليه فى مؤتمر لندن الأول، فمؤتمر لندن الأول لم تشترك فيه مصر، وبالتالى كان يمكن لـ «مينون» ولو بالإيحاء أن يتصرف على أنه يمثل مصر. أما اليوم فلا داعى لمثل هذا النشاط المسرحى لأن مصر ممثلة». ثم يقول «شبيلوف» «إننى لا أفكر فى أن أتصرف على هذا النحو لأن مصر موجودة، أما «مينون» فإنه لا يفهم ذلك والحقيقة أن أفكار «مينون» خطرة ولكن غروره الشخصى أخطر من أفكاره».

ولعل «مينون» كان يستثير حساسية الكثيرين بقدراته الخطابية وقوة شخصيته وقربه الشديد من «نهرو». وقد وصل الأمر بـ «كريشنا مينون» إلى حد أنه أرسل ورقة بعد إحدى الجلسات إلى الدكتور «محمود فوزى» لكى ترسل بالشفرة إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» فى القاهرة وفتح الدكتور «فوزى» رسالة «مينون» التى يطلب إرسالها إلى الرئيس «عبد الناصر» فإذا نصها «إننى أريد أن أستأذنكم فى العودة إلى الهند إذا كانت المحادثات ستظل محصورة فى مكتب «همرشولد» إن الجميع يقولون بأن «فوزى» و«داج» يريدان إبعادى عن الموضوع». وأشر الدكتور «فوزى» على الرسالة «ترسل بالشفرة إلى الرئيس فى القاهرة».

كان الجو فى مكتب «همرشولد» مفعما بالتوتر معظم الوقت. وكتب الدكتور «فوزى» برقية إلى القاهرة بعد الجلسة الأولى يقول فيها «إن «كريستيان بينو» متضرر طول الوقت وقرفان وهو يعقد كل شىء، وأما «سلوين لويد» فقد كان على أعصابه معظم الوقت». وقد حدث أثناء المناقشات أن قال «سلوين لويد» للدكتور «فوزى» لماذا لا تقبلون إحالة الأزمة إلى محكمة العدل الدولية أو إلى التحكيم؟ وكان رد «فوزى» أن **«الأزمة ليست ناشئة عن خلاف بين دول، وإنما ناشئة عن إجراء اتخذته مصر لحقوق سيادتها وهو تاميم شركة مصرية فكيف تقبل فيه محكمة أو تحكيما؟»** وقال «سلوين لويد» إن «العالم كله يجمع على أن قناة السويس يجب عزلها عن سياسة أى دولة واحدة وأن إدارتها يجب أن يشارك فيها المنتفعون بها وبالفعل فقد أنشأنا هيئة للمنتفعين بموافقة أغلبية الدول البحرية». وقال له الدكتور «فوزى» إنه **«لا يعرف شيئا اسمه هيئة**

المنتفعين». و«انفعل «سلوين لويد» وقال للدكتور «فوزى» «**لا بد أن تعرفوا أن هيئة المنتفعين ولدت لتبقى**». ورد الدكتور «فوزى» بأنه «**لم يسمع عن مولود اسمه هيئة المنتفعين**». ورد «سلوين لويد» وقد زادت عصبيته «**إن المولود أمام عيونكم وقد اعترفت به أغلبية العالم**». وسأله «فوزى» «**ألا تقولون لنا أولا إذا كان المولود ولدا أم بنتا؟**» وفقد «سلوين لويد» أعصابه وشكا لـ «همرشولد» من أن «**وزير خارجية مصر يسخر منه**»!.

وفجأة أثار «كريستان بينو» مشكلة منع السفن الإسرائيلية والبضائع الإسرائيلية من المرور فى قناة السويس وقال موجها كلامه إلى الدكتور «فوزى» «إنه يصعب على مواجهة إسرائيل بالوصول معكم إلى حل دون أن يتضمن ذلك الحل تسوية لحقوقها فى استعمال القناة». ورد الدكتور «فوزى» بأن «الأزمة معقدة بما فيه الكفاية ولا داعى لزيادة تعقيدها بإقحام موضوع إسرائيل».



وبعد عدة اجتماعات مقفلة قال «همرشولد» إنه وقد شارك فى كل المناقشات حتى الآن يقترح عرض ورقة توصل إليها. وطرح «همرشولد» بالفعل ست نقاط عن حرية الملاحة فى القناة وعن مستقبلها وعن ضمان استقلالية إدارتها وعن دورها الحيوى فى تجارة العالم - وكانت المبادئ مجملة وعامة.

وفى اليوم التالى ١٣ أكتوبر طرح «همرشولد» نقاطه الست أمام اجتماع مفتوح لمجلس الأمن ولم يعترض عليها أحد. وتقدم كل من «سلوين لويد» و«كريستيان بينو» بملحق لها تضمن مشروع الدول الثمانى عشرة فى لندن. واعترض عليه الاتحاد السوفيتى فسقط ولم يتبق غير نقاط «همرشولد» الست.



وكان «همرشولد» أول من يعرف أن نقاطه الست - التى لم يعترض عليها أحد - هى مجموعة مبادئ عامة، وبالتالى فإنه بداية وليست نهاية - لمفاوضات طويلة وهكذا دعا وزراء الخارجية الثلاثة - «فوزى» و«لويد» و«بينو» - إلى اجتماع أخير فى

مكتبه، وكان رأيه أن نقاطه الست وموافقة مجلس الأمن عليها تخلق مناخا جديدا يمكن أن تجرى فيه مفاوضات جديدة بعيدا عن أجواء الحدة والتوتر.

واقترح أن تدور المفاوضات على أساس النقاط الست فى جنيف بعد أسبوعين. يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر. ثم عرض أنه «رغبة فى تسهيل المفاوضات المقبلة فسوف يعد ورقة عمل يبعث بها إلى الوزراء الثلاثة ليدرسوها مع خبرائهم ومن ثم ينفتح الطريق لحل سلمى».



وذهب «شبيلوف» إلى مقابلة الدكتور «فوزى» مودعا قبل عودته إلى موسكو وقال له «**إننى أعتقد أن خطر تدخلهم العسكرى ضدكم قد زال، فالقطار الآن على قضيب الحل السلمى**».

وفى نفس الليلة التقيت بالمستر «هارى كيرن» نائب رئيس تحرير مجلة «نيوزويك» (مدير جهاز مخابرات شركات البترول الأمريكية العاملة فى الشرق الأوسط). فإذا هو يقول لى «**إنه عائد من لندن وإن «إيدن» مصمم على الحرب وإن الجنرال «كيتلى» قد عين قائدا عاما لقوات الغزو**».

لكن كل الدلائل الظاهرة كانت تؤيد ما ذهب إليه «شبيلوف» من أن الأزمة جاوزت نقطة الخطر.

[٢]

يوم ١٣ أكتوبر ١٩٥٦ صدرت قرارات مجلس الأمن وهى النقاط الست التى لم يعترض عليها أحد، بينما سقطت الإضافة التى ألحقتها بريطانيا وفرنسا بالنقاط الست واعترض عليها الاتحاد السوفيتى.

وبصرف النظر عن كل المظاهر الدبلوماسية وعن تفاصيل ما دار فى الاجتماعات التى عقدت فى مكتب «همرشولد» وما بدا بعدها من مؤشرات على انفراج الأزمة. فإن العاصفة الحقيقية كانت على وشك أن تهب.

مساء يوم ١٣ أكتوبر وقبل أن يغادر «سلوين لويد» و«كريستيان بينو» كلاهما ـ نيويورك عائدين إلى لندن وباريس. عقدا معا اجتماعا لم يشاركهما أحد فيه. وقد أشار إليه «سلوين لويد» فى مذكراته ولم يورد شيئا عن تفاصيل ما دار فيه. وأما «كريستيان بينو» فقد كان أكثر صراحة من زميله البريطانى فروى من تفاصيل ذلك الاجتماع أنه قال لـ «لويد» إن «مناقشات مجلس الأمن انتهت كما كان متوقعا بـ«فيتو» سوفيتى وهذا يفرض على البلدين ضرورة العمل المباشر وإلا كان عليهما التسليم بضياع مركزهما فى الشرق الأدنى بل وفى العالم كله». ثم أضاف أن «كل الخطط جاهزة والإسرائيليون على استعداد وقد تركناهم معلقين فى الهواء طويلا. وبصراحة فإنهم على وشك أن يفقدوا كل ثقة فيكم». وكان رد «سلوين لويد» «المشكلة أن حكومة صاحبة الجلالة الملكة فى حاجة إلى ذريعة يقبلها الرأى العام البريطانى ولا يغضب لها الكومنولث خصوصا أعضاءه الآسيويين».



وعاد «كريستيان بينو» إلى باريس وكان «شيمون بيريز» شبه مقيم دائم فيها. فقد كانت قيادة الجيش الإسرائيلى قد وضعت قواتها فى حالة طوارئ، واستدعت كل بعثاتها العسكرية من الخارج وأصبح من الضرورى اتخاذ قرار فى ظرف أيام وليس أسابيع.

وحضر «بينو» صباح يوم ١٤ أكتوبر اجتماعا للجنة الوزارية الخاصة للتنسيق مع إسرائيل. وكان أهم موضوع تعرض له الاجتماع هو موقف بريطانيا الذى مازال متأرجحا بين مختلف النزعات والضغوط. وفى هذا الاجتماع وجه «بينو» إلى «بيريز» سؤالا قال فيه «لنفرض أن بريطانيا تراجعت فهل إسرائيل على استعداد لدخول الحرب ضد «ناصر» بالتحالف مع فرنسا؟» وكان «ديان» هو الذى تولى الرد فقال بسرعة من «صميم قلوبنا». وكانت «جولدا مائير» مشغولة بسؤال آخر «لنفرض أننا انتهزنا فرصة الحرب مع «ناصر» وقمنا باحتلال الضفة الغربية للأردن، فهل تعتقد أن الحكومة البريطانية سوف تساعد الأردن ضدنا التزاما بالمعاهدة الأردنية ـ البريطانية؟» وكان رد «كريستيان بينو» على «جولدا مائير»

هوقوله «سيدتى إنك تطلبين منى أن أقرأ الغيب». وكان السؤال الثانى لـ «جولدا مائير» «هل ترون إخطار «دالاس» باتفاقنا؟» وكان رد «بينو» «لا أظن أن هناك داعيا لذلك وإذا تصرفنا بسرعة وحزم فإن «دالاس» لن يعلق فى رقبته ربطة عنق سوداء حزنا على «ناصر»».



وعقد «جى موليه» رئيس الوزراء الفرنسى - بعد خروج المندوبين الإسرائيليين - اجتماعا خاصا لمساعديه أعادوا فيه تقدير الموقف على ضوء محادثاتهم مع حلفائهم الجدد. واقترح الجنرال «موريس شال» قائد الطيران الفرنسى إمكانية القيام بمسعى مباشر وأخير مع «إيدن» شخصيًا. وكان رأيه «أن «إيدن» يتأرجح وأن دفعة واحدة فى «الاتجاه الصحيح» سوف تدفعه إلى موقف لا يمكن الرجوع فيه وخصوصا أنه «يتمنى» ولكنه لم يعثر حتى الآن على ذريعة يراها مناسبة، فإذا قدمنا له هذه الذريعة فسوف يسبقنا إلى ما يريد ونريده معه». واقترح «شال» أن يذهب بنفسه إلى مقابلة مع «إيدن» الذى تعرف به عن قرب فى سنوات سابقة. ووافق «موليه» واقترح أن يذهب «ألبير جازييه» - وهو صديق قديم لـ «إيدن» أيضا - مع الجنرال «شال» للقاء «إيدن».

وأرسل «موليه» برقية شفرية إلى «إيدن» يقترح عليه فيها مقابلة مبعوثين فرنسيين على مستوى عال يعرضون عليه اقتراحا قد يجده رئيس الوزارة البريطانية نافعا ومفيدا.

وبدأ «إيدن» يتصرف وكأنه يعيش فى قصة بوليسية. فقد رد بـ «**أنه سوف يقابل المبعوثين الفرنسيين سرا فى المقر الريفى لرئيس الوزراء فى «تشيكرز»، وأن عليهم أن يستعملوا مطارا صغيرا بالقرب منه هو مطار «نورث هولت» وأن يتجنبوا مطار لندن**».

ووصل «شال» و«جازييه» إلى تشيكرز» فى الساعة الثالثة صباحا يوم ١٥ أكتوبر. واستقبلهم «إيدن» على الفور ولم يكن معه إلا وزير الدولة للشئون الخارجية «أنتونى ناتنج» ورئيس سكرتاريته الخاصة.

ويروى ناتنج» فى مذكراته تفاصيل ما دار فى هذا الاجتماع السرى، وبوصفه أحد المشاركين فيه فإن شهادته يمكن اعتبارها قاطعة فى هذا الصدد:

[«شرح الجنرال «شال» خطة عمل توصل إليها الفرنسيون وتبدأ المرحلة الأولى فى هذه الخطة بهجوم إسرائيلى على سيناء وفى اتجاه قناة السويس، وبعده بعدة أيام تطلب بريطانيا وفرنسا من الطرفين المتحاربين (مصر وإسرائيل) أن يسحبا قواتهما بعيدا عن منطقة قناة السويس لأن الأعمال الحربية سوف تؤثر على سير الملاحة فيها كما تؤدى إلى تدمير مرافقها وتخطرهما بأن قواتهما المسلحة (قوات بريطانيا وفرنسا) سوف تحتل منطقة القناة بغرض حمايتها لمصلحة العالم. وهكذا فإن «الفصل بين الطرفين المتحاربين يصبح هدف بريطانيا وفرنسا المشروع حماية القناة».

وتمضى رواية «ناتنج» على النحو التالى:

«ولم يدخل الجنرال «شال» فى تفاصيل العمليات وإن كان قد قال «إن قوة مشتركة بريطانية ـ فرنسية يمكن أن تشق طريقها من البحر لاحتلال بورسعيد. كما إن عدة ألوية من المظليين يمكن أن تهبط لاحتلال الإسماعيلية والسويس».

ويواصل «أنتونى ناتنج» شهادته فيقول:

«إن «إيدن» لم يعد قادرا على إخفاء فرحته فقد أعجبته الخطة الفرنسية ووافق عليها على الفور»]

وحاول «ناتنج» إقناع «إيدن» بأن «ينام» على الخطة يوما أو يومين ويقلبها فى ذهنه ويتشاور فيها مع من يرى من أعضاء مجلس الوزراء البريطانى، ولكن «إيدن» لم يكن قادرا على الصبر فاتصل تليفونيا بـ «سلوين لويد» الذى كان لا يزال فى نيويورك ـ يطلب منه أن يعود فورا لأن «**أشياء مثيرة تحدث هنا**». وعاد «سلوين لويد» والتقى بـ «إيدن» يوم ١٦ أكتوبر بعد الظهر وحين حاول أن يطلعه على تفاصيل ما جرى فى نيويورك طلب منه «إيدن» أن ينسى كل هذا «الكلام الفارغ» (**Rubbish**) ثم بدأ يطلعه على خطة الفرنسيين. وذهب «ناتنج» الذى فشل فى إقناع

«إيدن» بالتروى - إلى مقابلة «سلوين لويد» يرجوه أن يتأنى فى متابعة اندفاع «إيدن». وكانت لدى «سلوين لويد» نقطة واحدة تشغله وقد لخصها فى قوله لـ «ناتنج» **«لنفرض أننا قمنا بغزو مصر، فكيف سيتاح لنا الخروج منها بعد ذلك؟»**.



وعاد الجنرال «شال» والوزير «ألبير جازييه» إلى باريس وحضرا اجتماعا رأسه «موليه» وتم إبلاغ الإسرائيليين بعد ذلك أن البريطانيين على استعداد للعمل. وانضم الإسرائيليون فورا إلى الاجتماع الذى رأسه «موليه» وقام الجنرال «شال» بعرض خطته على خريطة أمام المجتمعين. وطلب الفرنسيون فى هذا الاجتماع من الإسرائيليين ردا مباشرا على خطة بريطانية - فرنسية مؤداها أن تبدأ إسرائيل وحدها بالهجوم على جبهة عريضة تصل إلى القناة. ثم تتخذ القوات الفرنسية والبريطانية شكل القوات التى تنقذ السلام والقناة وذلك بالتدخل فى مرحلة تالية(١).

ومرة أخرى وافق الإسرائيليون بكل سعادة وبدأت المناقشات المكثفة حول تفاصيل العمليات. ووصلت الأمور فى بعض الأحيان إلى درجة تثير السخرية فقد كان «سلوين لويد» حريصا على أن يكون هناك «مغزى أخلاقى» للتدخل البريطانى الفرنسى. واقترح إمعانا ومبالغة فى إظهار الفصل بين الغزو الإسرائيلى - والتدخل البريطانى الفرنسى - أن تثبت قواتهما حيادها بأن تغير مرة واحدة على المواقع الإسرائيلية، وأن ترتب أمر هذه الغارة بحيث تكون الخسائر فى أقل حد ممكن. وحينما وصل هذا الاقتراح إلى «ديفيد بن جوريون» رئيس الوزراء الإسرائيلى فقد أعصابه من النفاق البريطانى وقال لـ «شيمون بيريز» «إنهم يريدون أن **يعاملونا كالنبلاء الذين يمارسون غرامهم مع الوصيفات فى المطبخ دون أن يسمحوا لهن بالدخول إلى غرف النوم»**.



---

(١) محاضر الاجتماعات كما وردت فى تقرير الدكتور «مايكل بريشر».

وفى الحقيقة فإن «ديفيد بن جوريون» لم يكن راضيا كل الرضا عن الخطة البريطانية الفرنسية، وكانت مخاوفه أكثر من ناحية البريطانيين.

وقد زادت مخاوفه حين وجد أن إسرائيل سوف يكون عليها أن تحارب وحدها فى المرحلة الأولى من الخطة قبل أن تلحق بها بريطانيا وفرنسا.

وخلال المناقشات المفصلة لخطط العمليات التنفيذية ظهر لديه عنصر جديد يزيد من قلقه، فقد تبين أن فرنسا ليست لديها قاذفة مقاتلة صالحة للمشهد الافتتاحى للحرب وهو تدمير الطيران المصرى. ومعنى ذلك أن البريطانيين كان عليهم أن يتحملوا هم المهمة بواسطة قاذفتهم المقاتلة الشهيرة «كانبيرا».

وركز «ديفيد بن جوريون» طلباته فى النهاية بأن قال لوفد عسكرى فرنسى زار إسرائيل ضمن عملية التنسيق:

«إن هناك أشياء لا أطمئن إليها بعد وأريد فيها أكبر قدر ممكن من الضمانات».

ثم عدها كما يلى:

«١ - أريد أن أطمئن بطريقة قاطعة أن بريطانيا معنا».

«٢ - لست مستعدا أن نكون وحدنا فى المعركة ضد «ناصر» أكثر من ساعات معدودة».

«٣ - قبل أن تنتهى هذه الساعات أريد تعهدا مكتوبا من الحكومة البريطانية بان سلاح الطيران المصرى سوف يتم تدميره فور انتهاء هذه الساعات الأولى».

[٣]

واقترح «جى موليه» عقد اجتماع سرى ثلاثى بين فرنسا وبريطانيا وإسرائيل. ووافق «إيدن» رغم معارضة شديدة من بعض وزرائه الذين كانوا على علم بالموضوع وأولهم «ناتنج».

ويوم ٢٢ أكتوبر، وتحت جنح الظلام، استقل «بن جوريون» طائرة فرنسية من

مطار صغير قرب تل أبيب متوجها إلى باريس، وصحبه في الرحلة كل من «موشى ديان» و«شيمون بيرين» و«موردخاى أون» مدير مكتبه. ونزلوا سرا فى مطار «فيلا كوبلاى» قرب «سيفر». ومساء اليوم عقد «بن جوريون» والوفد المرافق له أول اجتماع مع الجانب الفرنسى الذى ضم «جى موليه» رئيس الوزراء و«كريستيان بينو» وزير الخارجية و«برجيس مانورى» وزير الدفاع.

وبدأ الاجتماع بأن طلب «مانورى» إلى بن جوريون» تقييمه للموقف فى الشرق الأوسط. وطبقا لتقرير الدكتور «مايكل بريشر» الذى اطلع على مذكرات «شيمون بيرين» و«ديان» عن وقائع الاجتماع. فإن «بن جوريون» بدأ بشرح عام للموقف فى الشرق الأوسط وعن العداء العربى لإسرائيل وعن روح الحرب العربية التى أثارها «جمال عبد الناصر» وأشعلها بدعوته القومية ثم أشار إلى صفقة السلاح المصرية مع الاتحاد السوفيتي وإلى غارات الفدائيين المصريين فى عمق إسرائيل وإلى تحكم مصر فى الممرات المائية للمنطقة وانتهى إلى القول بأن ذلك يضع إسرائيل أمام موقف بالغ الخطورة ويحتم عليها المبادرة إلى العمل قبل أن يستوعب الجيش المصرى سلاحه الجديد. ثم أوضح أن إسرائيل كانت على استعداد للعمل وحدها إذا اقتضى الأمر. ولكن تقديرها كان أنها سوف تتعرض لخسائر فادحة إذا ما أقدمت على ذلك. وكانت مستعدة لهذه الخسائر تدفعها ضريبة تقيها خطر التدمير الكامل إذا ما أتمت مصر استعدادها. «ومن حسن الحظ أن إسرائيل وجدت الآن حليفا قويا هو فرنسا وهو يخص فرنسا بالذات لأنه أصبح واثقا منها، وأما بريطانيا فهو ما زال حائرا فى شأنها ومترددا».

ثم قال «بن جوريون»[1] «إن لدى خطة أريد أن أعرضها عليكم بشأن الشرق الأوسط وقد تبدو لكم خيالية. إذا استطعنا ضرب «ناصر» ووضعنا القناة تحت إشراف دولى وتمكنت إسرائيل من السيطرة على مشارف إيلات ـ منطقة «طابا» ـ وتم تجريد سيناء من السلاح فإن الموازين كلها سوف تنقلب فى الشرق الأوسط. وبهذه الكيفية سوف تسترد فرنسا لنفسها من جديد موطئ قدم فى الشرق

---

(١) مذكرات «بيرين» ص ١٢٣ـ١٢٤.

الأوسط عن طريق إسرائيل ولبنان ويتحقق كسب للغرب بأسره بما فى ذلك الولايات المتحدة ويتم وقف التوغل السوفيتى فى هذا الجزء من العالم ويستعيد الإنجليز نفوذهم فى العراق ويضمنون مواردهم البترولية». وأضاف «بن جوريون»: «علينا أن نضع خطة سياسية يوافق عليها «أيزنهاور» أيضا أو فى القليل لا يبدى اعتراضا عليها. وعندى شخصيا إعجاب عظيم بالشعب البريطانى لنظامه الديمقراطى. ولكنى أستريب فى قوة «إيدن» وأمانته».

ورد عليه «جى موليه» - طبقا لمذكرات «بيريز» - قائلا: «إن الخطة التى عرضها رئيس الوزراء لا تبدو لنا خيالية على الإطلاق بل إنها خطة جيدة».

وواصل «بن جوريون» كلامه فقال:

«إن «ناصر» يزداد قوة والسوفييت يعززون نفوذهم فى المنطقة، ولعلنا نستطيع فى النهاية إقناع الولايات المتحدة بتأييد عمل مشترك. أما فيما يتعلق بالمشاركة البريطانية، فإن أى تأخير بعد الآن ربما كان مميتا. وإنى أعرف «إيدن» شخصيا وأنا واثق مطلق الثقة من أنه متحمس للعمل المشترك وليست لديه أهداف مزدوجة ولكن موقفه المحلى آخذ فى التدهور».

وحاول «بن جوريون» أن يتطرق للموقف المحتمل للسوفييت وقاطعه «كريستيان بينو» بأن «السوفييت منشغلون باضطرابات المجر كما أن الولايات المتحدة منشغلة بانتخابات الرئاسة، وأما عن الإنجليز فنحن واثقون من استعدادهم للعمل. والعمل بسرعة قبل أن يبدأ موسم الشتاء فى البحر الأبيض المتوسط وتنشط عواصفه مما يعوق حركة الأساطيل الكبيرة».

وعاد «بن جورين» إلى الكلام فقال «ليس هناك ما يمنع الاتحاد السوفيتى من إرسال آلاف المتطوعين إلى الشرق الأوسط».

ثم بدأ «بن جوريون» يثير نقطة لم تخطر على البال فقال «إننى أريد أن أطرح الاعتبارات الأخلاقية هنا، فالخطط العسكرية التى رأيتها لا تدخل فى الحساب وجهة النظر الأخلاقية. وإذا بدأت إسرائيل الحرب فسوف تدمغ بأنها دولة معتدية والعالم لا يحب العدوان ونحن لا نستطيع أن نواجهه بمفردنا، ولذلك فلا بد أن تدخلوا معنا فى

نفس التوقيت حتى لا ينصب اللوم علينا وحدنا. نحن نقترح القيام بعمل تعاونى. وإذا وافقتم فسوف نبدأ غدا إذا أردتم. وفى الوقت الذى نتحمل فيه العبء البرى فإن عليكم من أول لحظة أن تتحملوا أنتم والبريطانيون مسئولية الجو. دعونا نضع خطة ثلاثية يوقع الانجليز عليها، وننطلق لتنفيذها فى الأسبوع المقبل وسوف نتكمن من الانتهاء منها بسرعة ويعود جنودكم إلى ديارهم قبل عيد الميلاد».

وفى الاجتماع التالى تقدم «ديان» بخطة معدلة تلبى كل الاحتياجات وكانت خطوطها الرئيسية كما يلى:

«١ ـ الجيش الإسرائيلى يبدأ العمل فيقوم بهجوم يبدو أنه مجرد عملية انتقام واسعة النطاق وليس حربا شاملة وإذا اقتنع المصريون بذلك فسوف يترددون فى تحويلها أيضا إلى حرب شاملة ولا يرسلون طائراتهم لضرب المدن الإسرائيلية. وفى نفس الوقت تقوم إسرائيل بإسقاط كتيبة مظلات فى ممر متلا وتعلن عن وجود قوات لها قرب منطقة قناة السويس».

«٢ ـ ينتهز الانجليز والفرنسيون فرصة هذا الإعلان الإسرائيلى ثم يقررون التدخل العسكرى للدفاع عن القناة شريطة أن لا تنقضى فترة أكثر من ست وثلاثين ساعة بين بداية العمل الإسرائيلى وبداية التدخل الانجليزى الفرنسى».

«٣ ـ لضمان الدفاع عن إسرائيل تتولى فرنسا منفردة مسئولية الدفاع الجوى عن المدن الإسرائيلية ومسئولية الدفاع البحرى عن الشواطئ الإسرائيلية، ولا بد أن تصل ثمانية أسراب من الطيران الفرنسى إلى إسرائيل قبل ثمان وأربعين ساعة من ساعة الصفر».

«٤ ـ يتولى الطيران الفرنسى مسئولية حماية وإمداد الكتيبة الإسرائيلية التى يتم إسقاطها فى ممر تلا».

ووافق الطرف الفرنسى على خطة «ديان» المعدلة وثارت مسألة موافقة بريطانيا على هذه الخطة واشتراكها فيها. وقال «بن جوريون» إنه «لن يصدر الأمر بالتنفيذ إلى الجيش الإسرائيلى إلا إذا حصل على موافقة الإنجليز».

واتصل «موليه» بـ «إيدن» عن طريق خط تليفونى مؤمن ووافق «إيدن» على إرسال «سلوين لويد» فورا للاشتراك فى اجتماعات «سيفر» السرية. ووصل «سلوين لويد» فى الساعة السابعة من مساء يوم ٢٢ أكتوبر وكان يرافقه السير «باتريك دين» وكيل وزارة الخارجية البريطانية. واشترك «سلوين لويد» فى المحادثات على مضض فقد كان يشعر بحرج شديد من التنسيق المباشر مع إسرائيل على هذا النحو وما يمكن أن يحدثه مثل هذا التنسيق من آثار سلبية - إذا انكشف أمره - على أصدقاء بريطانيا فى المنطقة. ولكن «بن جوريون» كالعادة أساء فهم مسلك «سلوين لويد» وقال صراحة فى الجلسة: «**إن وزير الخارجية البريطانى يتجنب النظر فى عينى ويفضل أن يوجه كلامه إلى الفرنسيين وكأننا نحن مجرد توابع**».

وفى نهاية المناقشات قال «سلوين لويد» إنه «مضطر للعودة إلى لندن بسرعة ليعرض على «إيدن» تفاصيل الخطة فى شكلها النهائى». وركب طائرته وعاد إلى لندن والكل ينتظرونه فى سيفر».

ووافق «إيدن» على الخطة ولم يعد «سلوين لويد» إلى الاجتماع بهذه الموافقة وإنما آثر أن يبعث بها مع «باتريك دين».

وأصر «بن جوريون» على أن الاتفاق لابد من وضعه على ورقة مكتوبة يوقعها الأطراف. وبالفعل تمت صياغة الاتفاق واستغرق ورقتين وقعهما «ديفيد بن جوريون» عن إسرائيل «وكريستيان بينو» عن فرنسا والسير «باتريك دين» عن بريطانيا(١).

---

(١) كان نص اتفاقية «سيفر» طبقا لتقرير الجنرال «موشى ديان» كما يلى:

● فى مساء يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ تقوم القوات الإسرائيلية بشن هجوم واسع النطاق على القوات المصرية، بهدف الوصول إلى منطقة قناة السويس فى اليوم التالى.

● عندما تعرف الحكومتان البريطانية والفرنسية بهذه التطورات، فإنهما سوف توجهان يوم ٣٠ أكتوبر نداء بالتوازى إلى الحكومتين المصرية والإسرائيلية يتضمن المعانى التالية:

إلى الحكومة المصرية:

- وقف إطلاق نار كامل.

- سحب كل القوات المسلحة إلى مسافة عشرة أميال بعيدا عن قناة السويس. =

ثم اتفق على تحديد ساعة الصفر بغروب شمس يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ واتفق أيضا على أن تظل اتفاقية «سيفر» ونصوصها سرا لا يذاع على الإطلاق.

وفى نهاية الاجتماع الأخير قام «ديفيد بن جوريون» بتطبيق نسخته من الاتفاقية مرتين ووضعها فى جيب «جاكتته» الداخلية. ثم كان تعليقه الأخير «أن «إيدن» لم يحسن التصرف ولست مدينًا له بشىء، ومع ذلك فقد حققنا هنا فى «سيفر» جميع أهداف إسرائيل.

- القبول بصفة مؤقتة باحتلال المواقع الرئيسية على القناة بواسطة قوات بريطانية فرنسية، وذلك لضمان حرية المرور فى القناة لكل البواخر من كل الأمم، وإلى حين وصول ترتيبات نهائية مضمونة.

إلى الحكومة الإسرائيلية.

- وقف إطلاق نار كامل.
- سحب قواتها المسلحة مسافة عشرة أميال إلى الشرق من القناة.

● تخطر الحكومة الإسرائيلية بأن الحكومتين البريطانية والفرنسية قد طلبتا إلى حكومة مصر أن توافق على الاحتلال المؤقت للنقط الرئيسية على قناة السويس بواسطة قوات بريطانية فرنسية، وإذا رفضت أى من الحكومتين هذا النداء، أو إذا تأخرت فى إعلان موافقتها عليه خلال اثنتى عشرة ساعة، فإن القوات البريطانية الفرنسية سوف تتخذ الإجراءات الضرورية للتأكد من قبول طلباتها.

● إن حكومة إسرائيل لن تكون مطالبة بقبول شروط النداء المرسل إليها فى حالة ما إذا تأخرت الحكومة المصرية فى قبول النداء الذى سوف تتسلمه.

● إذا لم تستجب الحكومة المصرية إلى شروط النداء فى الموعد المحدد فإن القوات البريطانية الفرنسية سوف تقوم بالهجوم على القوات المصرية فى الساعات الأولى من صباح ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦.

● للحكومة الإسرائيلية أن تبعث بقواتها لاحتلال الشواطئ الشرقية لخليج العقبة وجزر تيران وصنافير، لكى تضمن حرية الملاحة فى الخليج.

● إن إسرائيل لن تقوم بمهاجمة الأردن فى فترة العمليات ضد مصر، وإذا حدث أن قام الأردن بمهاجمة إسرائيل خلال هذه الفترة، فإن الحكومة البريطانية لن تساعد الأردن».

الفصل السادس

ميادين القتال

[١]

بدأ الهجوم الإسرائيلى على سيناء فى الساعة الخامسة بعد الظهر بتقدم اللواء السابع المدرع فى اتجاه موقع «الكونتيلا». وبعد خمس دقائق من بدئه تلقى «جمال عبد الناصر» أول نبأ عنه وقد حملته وكالة الأنباء الأمريكية «يونايتد برس». كان فى بيته وكان يشارك فى احتفال عيد ميلاد ابنه «عبد الحميد». وقرأ «جمال عبد الناصر» التقرير ثم ناوله إلى «عبد الحكيم عامر» القائد العام للقوات المسلحة. ثم غادر الاثنان الغرفة التى كان يجرى فيها حفل عيد الميلاد، وتوجها إلى غرفة مكتب الرئيس فى بيته، ومنها اتصل «عبد الحكيم عامر» تليفونيا برئاسة أركان حرب الجيش المصرى فى كوبرى القبة يستفسر عن أية معلومات لديها. لقد وزعت القيادة الإسرائيلية أنباء الهجوم على وكالات الأنباء فى نفس اللحظة التى دارت فيها محركات الدبابات. وبدأت التفاصيل ترد دقيقة بعد دقيقة.

□

كان التحرك العسكرى الإسرائيلى مفاجئًا لجمال عبد الناصر ولم ير سببًا واضحًا يبرره فى هذا التوقيت بالذات. فقد كان الموقف على خطوط الهدنة المصرية هادئًا طوال الأسابيع الأخيرة. فمنذ بدأت أزمة القناة ولاح خطر التدخل العسكرى البريطانى الفرنسى فى منطقتها ـ تقرر سحب مجموعة الجيش الرئيسية من سيناء وترك ست كتائب فيها فقط، وكانت الفكرة من السحب أن لا تنعزل قوات سيناء عن الدلتا إذا ما قام الانجليز والفرنسيون بهجوم يستهدف قناة السويس. وجرى

توزيع الكتائب الست التى بقيت فى سيناء على طول خطوط الهدنة مع إسرائيل بوضع كتيبتين فى منطقة «أم قطف» وكتيبتين فى منطقة «الشيخ زويد» وكتيبتين فى منطقة «العريش» تعززان قوات الحرس الوطنى الموجودة فى قطاع «غزة». كانت المواقع المصرية شبه خالية إلى درجة دفعت الجنرال «بيرنز» كبير مراقبى الهدنة إلى أن يكتب تقريرا لـ «داج همرشولد» السكرتير العام للأمم المتحدة يقول له فيه «إن تقلص حجم القوات على الخطوط المصرية يمثل إغراءً شديدا لإسرائيل».

ولكن «جمال عبد الناصر» استبعد أن تقترب إسرائيل من هذا الإغراء فى هذه المرحلة.

كان تقديره وقت اشتداد خطر التدخل البريطانى الفرنسى - «أن إسرائيل سوف تتردد حفاظا على صورتها العامة فى آسيا وأفريقيا وأمام الرأى العام العالمى عموما - فى القيام بدور التابع لاثنتين من الدول الاستعمارية الكبرى».

وفى نفس الوقت كان تقديره وبعد تراجع خطر التدخل البريطانى الفرنسى عقب انتهاء مناقشات مجلس الأمن - «أن إسرائيل لن تسارع بالعمل المسلح وإلا فإنها سوف تظهر نفسها فى صورة من يعيد تأزيم الموقف فى الشرق الأوسط بعد أن بدت احتمالات انفراجه، وأن ذلك سوف يعرضها للوم شديد ويضعها فى موقف سياسى صعب قد تفضل تجنبه.»

وهكذا بدأ الهجوم الإسرائيلى على مصر فى ذلك اليوم عملا غير مفهوم فى أهدافه ومقاصده.

وترك «جمال عبد الناصر» بيته وتوجه إلى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة فى كوبرى القبة وهو ما زال يتساءل عن أهداف الهجوم الإسرائيلى مستبعدًا تماما إمكانية تواطؤ إسرائيل فى عمل مشترك مع بريطانيا وفرنسا.

كان اهتمامه قبل ذلك بساعات قليلة متجها إلى الأردن فقد تكررت التحرشات الإسرائيلية له (طبقا لخطة الخداع الاستراتيجية ولم يكن «جمال عبد الناصر» بالطبع على علم بها فى تلك الساعات)، ولقد ركز من جانبه على تدعيم دفاعات

الأردن وبعث إليه بشحنات من الأسلحة وأسراب من الطائرات هدية من مصر. وتلقى من الملك «حسين» ملك الأردن خطابا بتاريخ ٢٧ أكتوبر (أى قبل يومين اثنين من بدء الهجوم الإسرائيلى) يشيد بهذه المساعدة قال فيه الملك «حسين»: «إن الأردن صابر وهو يتلقى من مصر العزيزة العون الأخوى ويرى المشاركة القوية المتمثلة فى شحنات الأسلحة من مصر الشقيقة والطائرات النفاثة التى تضمها مصر العرب إلى قوة سلاح الأردن الجوى ليجد نفسه قويا بهذا التأييد الصادق وفخورا بهذا الإسهام المشجع...»(١).



ومن الغريب أن «جمال عبد الناصر» لم يتنبه إلى احتمال التواطؤ حتى بعد أن قرأ نص البيان الإسرائيلى عن نزول قوات إسرائيلية فى منطقة قرب قناة السويس (عملية ممر «ميتلا»). فقد راح يقرأ سطور هذه البيان وهو جالس فى مكتب القائد العام للقوات المسلحة ويعيد قراءته ويتصل بهيئة العمليات ثم يبدى استغرابه لإقحام اسم «قناة السويس» فى البيان(٢). لم يخطر له التواطؤ لا لأنه أحسن الظن بـ «إيدن» و«موليه». ولكن لأنه كان يعرف أن شبهة التواطؤ مع إسرائيل كفيلة وحدها بإسقاط كل نظم الحكم الموالية للانجليز فى المنطقة. كما تؤدى إلى زيادة النقمة على فرنسا فى شمال أفريقيا. لقد تصور أنه إذا أرادت بريطانيا وفرنسا غزو مصر فإنه من الخير لهما مهما كانت المصاعب والمشاق أن تجيئا إلى مسرح العمليات جهارا نهارا فى استعراض للقوة واضح وقاطع.

وبنفس المقدار أنه إذا أرادت إسرائيل أن تهاجم فما عليها إلا أن تستغل أكداس السلاح الذى حصلت عليه وتخترق الحدود المصرية وحدها فى عمل محدود ومحصور.

---

(١) النص الكامل لخطاب الملك «حسين» منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (١٨٠).

(٢) كنت مدعوا على عشاء مبكر مع السفير اليونانى فى القاهرة وكانت العشاء فى فندق «مينا هاوس» وهناك اتصل بى الرئيس «جمال عبد الناصر» الذى طلب إلىّ أن ألحق به فى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة.

أما أن يتعاون الكل معا فى خطة سرية على النحو الذى ظهر فيما بعد فهذا ما استبعده من أول لحظة وظل يستبعده لساعات طويلة.

وهكذا كانت قراراته منذ وصل إلى رئاسة القوات المصرية موجهة لمقابلة الهجوم الإسرائيلى. وكانت هناك خطة طوارئ معدة لهذا الاحتمال وقد راجعها «جمال عبد الناصر» مع رؤساء أفرع القوات المسلحة فى اجتماع عقده معهم بسرعة، بينما كانت تحركات التشكيلات تجرى بالفعل على رمال الصحراء.

كانت خطة المواجهة المصرية تقوم على ثلاثة عناصر:

١ ـ على الكتائب الست الموزعة على خطوط الهدنة أن تتمسك بمواقعها لمدة ٤٨ ساعة، وألا تسمح للقوات الإسرائيلية بأن تندفع فى العمق.

وكذلك كان على قوات الحرس الوطنى فى غزة أن تتجنب الاشتباك فى القطاع فإذا فرض عليها أن تشتبك دخلت معركة خنادق بهدف كسب الوقت.

٢ ـ فى ظرف ٢٤ ساعة لا بد أن تكون الفرقة المدرعة الرابعة قد عبرت قناة السويس إلى الشرق وتقدمت إلى نقطة تجمع فى موقع «بير روض سالم» فى قلب سيناء، حيث كان التقدير أن تدور المعركة الأساسية فى ضرب الهجوم الإسرائيلى.

٣ ـ يقوم الطيران المصرى بغارات شبه استطلاعية فى مدى الـ ٢٤ ساعة المقبلة بحيث يكون مستعدا لمساندة المدرعات فى المعركة الأساسية. وأما البحرية فقد كان دورها مقيدا فى المراحل الأولى عن تقدير بأن منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط تعج بالأساطيل.

وصباح يوم ٣٠ أكتوبر كان «جمال عبد الناصر» لا يزال يستبعد احتمال التواطؤ إلى درجة أنه طلب منى أن أتوجه إلى السفير الأمريكى الجديد «ريموندهير» لإبلاغه بـ «أن وحدات الدفاع الجوى المصرى رصدت مقاتلة نفاثة من طراز «كانبيرا» تحلق على ارتفاع عال فوق بورسعيد وبحيرة «البردويل» ومنطقة الزعفرانة، وأن مثل هذه التصرفات فى الوقت الذى تشهد فيه سيناء عمليات عسكرية واسعة النطاق ضد إسرائيل. هو نوع من الاستفزاز الذى يؤدى إلى تعقيدات قد تصبح خطيرة».

ولم تمض غير ساعات قليلة حتى دعى السفير المصرى فى لندن والسفير المصرى فى باريس إلى وزارة الخارجية فى كل من العاصمتين لكى يتسلم كل منهما إنذارا بريطانيا - فرنسا يطلب إلى كل من مصر وإسرائيل الانسحاب بعيدا عن قناة السويس لمسافة عشرة أميال لأن وجود الجيوش المتحاربة بعيدا عن الممر المائى الحيوى مسألة ضرورية لسلامته ولصالح العالم.

والآن بدا شبح التواطؤ ماثلا للعيان ولكن «جمال عبد الناصر» كان غير قادر على التصديق ولعله لم يصدق تماما إلا عندما انتهت فترة الإنذار فى الساعة السادسة بعد الظهر بتوقيت القاهرة - وبدأت أول غارة للطائرات البريطانية على مطار «ألماظة» الملاصق لبيته.

وقد شاهد «جمال عبد الناصر» الغارة بنفسه فقد سمع أزيز الطائرات المغيرة، بينما هو فى مكتبه فى البيت مجتمعا مع السفير الإندونيسى فى القاهرة الذى جاء يحمل إليه رسالة من رئيسه «أحمد سوكارنو».



وهرع «جمال عبد الناصر» إلى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة، فقد كان تطور الأمور الآن يقتضى إعادة النظر فى الخطط المصرية.

كان مكتب «عبد الحكيم عامر» حينما دخل إليه «جمال عبد الناصر» مزدحما بعدد من الزوار بينهم بعض أعضاء مجلس الثورة القدامى وعدد من الوزراء وعدد من قادة القوات المسلحة. وكان الجو مشحونا بالقلق والعصبية ونتيجة لهما احتدت الآراء وانقسمت إلى رأيين غالبين:

● **الرأى الأول** - وقد تبناه «عبد الحكيم عامر» - وهو منطق الوطنية الشهيدة التى يتحتم عليها أن تقاتل فى مواقعها ومهما كانت الظروف إلى آخر طلقة وإلى آخر رجل.

● **والرأى الثانى** - وقد تبناه السيد «صلاح سالم» عضو مجلس قيادة الثورة السابق - وكان محكوما بالمنطق «الواقعى» الذى وجد مصر تواجه ثلاثة أعداء فى

وقت واحد بينهم اثنتان من القوى الكبرى. وهو حجم من القوة لا قبل لمصر بمواجهته. ومن ثم فقد اقترح «صلاح سالم» بـ «أسى وحزن» أنه لا خيار أمام «جمال عبد الناصر» غير الاستسلام وبسرعة قبل أن يتمكن الطيران المعادى من تدمير مرافق مصر الحيوية وتمزيق جيشها وتهديم مدنها.

وفى اللحظة التى دخل فيها «جمال عبد الناصر» القاعة كان «صلاح سالم» يشرح رأيه الواقعى، ولم يتراجع «صلاح سالم» عما كان يقوله وإنما كرره أمام «جمال عبد الناصر» وأضاف إليه «أنك قمت بخدمة عظيمة لهذا البلد وضحيت كثيرا من أجله، والآن فقد كتبت عليك المقادير أن تضيف لتضحياتك تضحية أخرى وأن تقبل تسليم نفسك. إن «إيدن» أعلن فى خطابه أن الحرب تستهدفك أنت وليس الشعب المصرى فإذا عرفوا أنك على استعداد لتسليم نفسك توقفت الحرب على الفور». ثم استطرد «صلاح سالم» قائلا إنه «يعرف إن السير «همفرى تريفيليان» السفير البريطانى فى القاهرة لم يغادرها بعد وإذا توجه «جمال عبد الناصر» لمبنى السفارة وسلم نفسه فإن ذلك كفيل بحل الأمور».

ولم يفقد «جمال عبد الناصر» أعصابه لهذا الذى سمعه فقد أدرك أن أبعاد الموقف أهم من أى اعتبار يتعلق بالأشخاص. ومضى يشرح وجهة نظره فقال **«إنه لو كان يعرف أن المعركة هى شخصه لابتعد بأى وسيلة عن مسرح الحوادث، ولكن المستهدف هو مصر وشعبها وإذا لم يقف الشعب المصرى فى هذا الموقف ويخوض المعركة دفاعا عن وطنه ومستقبله، فإن مصير الأمة العربية كلها يصبح معرضا للضياع».**

ثم توجه «جمال عبد الناصر» إلى مكتب رئيس هيئة أركان الحرب تاركا زحام مكتب القائد العام، وهناك دعا إلى اجتماع محدود حضره بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة السابق المشاركون فى الحكم وقتها، ودعى إلى الاجتماع وزير الخارجية الدكتور «محمود فوزى» وعدد محدود من القادة العسكريين والمستشارين السياسيين.

وكان اتجاه الاجتماع مؤيدا لوجهة نظر «جمال عبد الناصر» وإن كان الدكتور

«محمود فوزى» قد أبدى ملاحظة قال فيها «إن كل شىء يتوقف على أوضاع الاستعداد فى القوات المسلحة وعلى إمكانيات تعبئة الشعب لحرب طويلة. وفى كل الأحوال فإن المعارك لا تخاض فى ميادين القتال وحدها وإنما تخاض فى ساحات السياسة الأوسع والأكبر، وأنه حتى إذا استطاعت قوات الغزو أن تحتل منطقة قناة السويس فإنه على ثقة بقدرة مصر وأصدقائها على خوض معركة ناجحة فى الأمم المتحدة تعبئ العالم ضدهم وترغمهم على الرحيل».

وطرح «جمال عبد الناصر» خطته لمواجهة الموقف الطارئ وكان أول بند فيها هو ضرورة إرجاع الفرقة المدرعة الرابعة التى عبرت فى الليلة السابقة إلى سيناء ووقف تقدم كل التشكيلات الأخرى التى كان مفروضا أن تلحق بها.

وأن على الكتائب الست فى مواقعها المتقدمة فى سيناء أن تواصل مقاومتها كما كان مقررا لمدة ٤٨ ساعة لكى تتمكن الفرقة الرابعة من إتمام انسحابها عائدة إلى الدلتا. واعترض «عبد الحكيم عامر» لأن سحب القوات الآن «عار يلحق بنا». ورد عليه «جمال عبد الناصر» بأنه «إذا كنت ستنسحب لتقاتل فى معركة أحسن لك ولمعركتك ولخططك فهذا ليس عارا فالعار هو أن تنسحب للهرب».

ولم يقتنع «عبد الحكيم عامر» وقرر «جمال عبد الناصر» أن يتحمل المسئولية بنفسه فأصدر قراره بالانسحاب من سيناء ووصل به الأمر إلى حد أنه اتصل بنفسه، على خطوط الاتصالات العسكرية بعدد من قادة الكتائب يقول لهم إن «الخطة المصرية للحرب يجب تعديلها بعد أن أصبح نزول الانجليز والفرنسيين فى منطقة قناة السويس محققا. وإذا حدث ذلك فإن الجيش سيجد نفسه مشطورا إلى قسمين أحدهما يواجه الهجوم الإسرائيلى فى سيناء معزولا عن قواعده، والثانى يخوض المعركة ضد الغزو الإسرائيلى محروما من نصف قواته. وأن الأولوية الأولى يجب أن تتركز ضد الغزو البريطانى الفرنسى فإذا ما تم دحره حان الوقت لمواجهة إسرائيل».

كان المنطق بسيطا ومقنعا واستجابت القوات واستعاد «عبد الحكيم عامر» أعصابه عندما وجد أن تحركات القوات تسير وفق الخطة الجديدة بما فيها أن

الكتائب الست المتمركزة على خطوط الهدنة شمال سيناء كانت تحارب معركة تمكنت فيها من إيقاف تقدم الجيش الإسرائيلى للمدة التى كان مطلوبا منها أن تقاتل فيها لمنع تقدمه وهى ٤٨ ساعة.

كانت بقية خطة «جمال عبد الناصر» فى المواجهة تقتضى إبعاد الطيران المصرى تماما عن المعركة لأنها أصبحت غير متكافئة وليس مهما تدمير الطائرات المصرية على الأرض لكن المهم الحفاظ على الطيارين المصريين وعددهم محدود.

وبعد ذلك كانت هناك ضرورات الاستعداد لحرب شعبية ممتدة ضد الاحتلال فيما لو استطاعت قوات الغزو أن تتغلب على القوات النظامية للجيش المصرى.

وأخيرًا كان هناك القرار بضرورة تعطيل قناة السويس لوضع العالم أمام واقع جديد (وكانت هناك خطة طوارئ جاهزة لإغراق باخرة محملة بالأسمنت فى عرض المجرى لسده فى اللحظة التى يكون فيها ذلك ضروريا).

[٢]

لقد أثيرت دعايات كثيرة حول معركة إسرائيل فى سيناء سنة ١٩٥٦، ولذلك فقد يكون من المهم فى البحث عن الحقيقة الاعتماد على مصادر يمكن أن تكون محايدة أو علمية أو عميقة فى بحثها عن الحقيقة. والواقع أن إسرائيل بذلت قصارى جهدها لتحويل الجيش الإسرائيلى إلى أسطورة بعد حرب سيناء، وكانت هذه هى ملاحظة الجنرال «حاييم لاسكوف» رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى السابق فى تقريره الرسمى بعد الحرب عن عمليات سيناء(١):

«إننا حاولنا بناء أسطورة حول الجيش الإسرائيلى وحول فكرة أنه جيش لا يهزم وأردنا أن يكون لهذه الأسطورة تأثير ضخم على معنويات الجيش والشعب

---

(١) تقرير الجنرال «لاسكوف» مسجل فى مضابط لجنة الأمن والشئون الخارجية فى الكنيست الإسرائيلى وقد أحيط بسرية كاملة حتى تمكن الملحق العسكرى الأمريكى فى إسرائيل من الحصول على نسخة منه. وقد أشار إليه تقرير «هندريكس» عن تفاصيل المعركة.

وقد أضاف الجنرال «موشى ديان» إلى ذلك دعاية شخصية لذاته على أساس أن وجود قائد له سمعة أسطورة هو جزء من أسطورة الجيش نفسه. ولكن الخطر يجيء إذا صدقنا هذه المقولة وخلصنا بين الدعايات التى نقولها للآخرين والحقائق التى يجب أن نعترف بها لأنفسنا».

وقد كتب الجنرال «لاسكوف» ملاحظات عن تنفيذ الخطة «قادش» (الاسم الرمزى لعملية إسرائيل فى سيناء، ويلاحظ أن الاسم الرمزى للعملية يحمل إيماءة تاريخية تشير إلى حرب رمسيس الثانى فى فلسطين) . ووردت فى أقوال الجنرال «حاييم لاسكوف» الملاحظات التالية :

«١ - إن الخطة «قادش» وضعت سنة ١٩٥٥ ولم تختبر فى مناورات عامة قبل تنفيذها سنة ١٩٥٦».

«٢ - إن العملية يجب ألا تؤخذ مقياسا لكفاءة القيادات لأن رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى دخل معركة سنة ١٩٥٦ عارفا مقدما أن بريطانيا وفرنسا سوف تلحقان به، وبالتالى فقد كان فى موقف مريح يمكنه من الانتظار. وكان قراره الأول عدم التورط فى أية اشتباكات كبيرة مع الجيش المصرى حتى يتحقق التدخل الانجليزى الفرنسى».

٣ - وفى تأكيد ذلك فإن الطيران الإسرائيلى لم يقم بشل فاعلية الطيران المصرى كما كان يجب أن يفعل لو أن إسرائيل كانت ستحارب وحدها. «لقد كنا نعرف أن الطيران الإنجليزى تكفل بعملية ضرب الطيران المصرى».

«٤ - إن العملية «قادش» تغير هدفها قبل أيام من تنفيذها فلم يعد الهدف هو فتح الممرات المائية أو سيناء وإنما تغير الهدف فأصبح أول بند فى التوجيه الاستراتيجى للحرب هو «خلق حالة تهديد على قناة السويس».

«٥ - إن العمليات التى جرت فى سيناء كانت محدودة جدا لعدة أسباب :

(أ) إن ستة ألوية من الجيش المصرى سحبت من سيناء فى نهاية ١٩٥٥ وأوائل ١٩٥٦ لكى يعاد تسليحها وتدريبها على السلاح السوفيتى.

(ب) بعد نشوء أزمة تأميم شركة قناة السويس وتصور مصر أن خطر الحرب تحول من ناحية إسرائيل إلى ناحية توقع غزو انجليزى فرنسى وشيك. فإن مصر سحبت كل قواتها من سيناء تقريبا باستثناء ست كتائب (أم قطف. الشيخ زويد. العريش).»

«٦ - إن المعارك فى سيناء دارت فى موقعين:

(أ) مجموعة اللواء السابع التى قامت بالهجوم على «أم قطف» بقيادة الجنرال «سمحونى» وقد تمكنت القوات المصرية من وقف الهجوم بعد أن تكبدت القوات الإسرائيلية خسائر مما دعا الجنرال «ديان» إلى أن يطير بنفسه إلى منطقة قيادة اللواء السابع ويلوم« سمحونى» لأنه تسرع بالهجوم. ولم يكن الجنرال «سمحونى» على علم بالاتفاق الإسرائيلى ـ الفرنسى ـ البريطانى، وبالتالى لم يكن يدرك أنه لا داعى لمعارك تنتج عنها خسائر لا لزوم لها إذا كان الهدف سوف يتحقق من تلقاء نفسه عندما تضطر القوات المصرية إلى الانسحاب لتواجه الإنزال الانجليزى الفرنسى. وقد قال «ديان» لـ «سمحونى» لماذا تدفع خسائر بالعشرات من رجالك لتحقيق هدف سوف تحصل عليه بدون قطرة دم واحدة بعد بضع ساعات». إن موقف الجنرال «سمحونى» يمكن تبريره بأنه كانت يريد أن يندفع بالهجوم ولم يكن لديه علم بالخلفية السياسية.

(ب) أن كتيبة المظلات التى أسقطت فى ممر «ميتلا» لخلق حالة التهديد قرب قناة السويس كانت تحت القيادة الفعلية للعقيد «شارون». وقد تورطت هذه القوات فى معارك عنيفة مع الكتيبة المصرية التى كانت متمركزة فى موقع «سدر» وخسرت ٤١ قتيلا و٦٨ جريحا. ولم ينقذ موقفها إلا غارات الطيران الفرنسى على مواقع الكتيبة المصرية».

وقد انتهى «لاسكوف» فى تقريره إلى أن حرب السويس على الناحية الإسرائيلية يجب ألا تؤخذ كدرس فى الأداء العسكرى لعدة أسباب:

«١ - إن قائد الجيش كان مشغولا بالترتيبات السياسية أكثر من انشغاله بقيادة الجيش».

«٢ - أن الخطة الإسرائيلية كانت باستمرار مترددة لأنها كانت لا تثق بأن حلفاءها الانجليز والفرنسيين سوف ينفذون التزاماتهم فى المواعيد المتفق عليها».

«٣ - ونتيجة لذلك فإن القيادة السياسية وقيادة الجيش كانوا على استعداد وحتى آخر لحظة للإعلان عن أن العملية لم تكن إلا غارة أكبر على الخطوط المصرية. فإذا تأكدوا من تقاعس حلفائهم فسوف يسهل عليهم أن يصدروا الأمر بالانسحاب على أساس أن الغارة حققت أهدافها».

«٤ - إن الانجليز حاولوا إخفاء اتفاقاتنا معهم إلى درجة أن طائرة بريطانية أطلقت نيرانها على جنودنا الذين أرادوا تقديم المساعدة لطيار بريطانى أصابت المدفعية المصرية طائرته فأرغم على الهبوط».

«٥ - كان جو عدم الثقة بين الحلفاء محسوسا حتى إن إسرائيل قبلت وقف إطلاق النار منفردة يوم ٤ نوفمبر شرط أن توافق مصر، وتراجعت إسرائيل عن قبولها بضغوط حلفائها. ولكنه لم يكد يمضى يوم واحد حتى كان هؤلاء الحلفاء (بريطانيا وفرنسا) قد قبلوا وقف إطلاق النار وطلبوا من إسرائيل أن تقبله».

«٦ - إن القوات الإسرائيلية دخلت «شرم الشيخ» وهى الهدف النهائى للعملية - بعد وقف إطلاق النار وبعد أن أتمت القيادة المصرية انسحاب قواتها بالكامل من شبه الجزيرة. وقد وصل الجنرال «ديان» إلى «شرم الشيخ» فى طائرة صغيرة من طراز (Piper) قبل أن تصل إليها القوات الإسرائيلية وكان مطمئنا لأنه يعرف أنه لم تعد فيها قوات مصرية».



وقد كتب الملحق العسكرى الأمريكى البريجادير «أ. ستيوارت» تقريراً عسكريا لوزارة الدفاع فى واشنطن[١] يتشابه فى كثير من نقاطه مع تقرير الجنرال

(١) وثائق وزارة الدفاع الأمريكية - ١٩٥٦.

«لاسكوف»، وقد جاء فى تقرير الملحق العسكرى الأمريكى ما نصه: **«إن العيب الأساسى للعمليات الإسرائيلية كان سوء تنظيم وتخطيط وتوجيه الحملة من جانب قيادة عسكرية لم يرتفع مستوى تقديرها للعمليات إلى مستوى قادة جيش عصرى فكان أقرب إلى أسلوب حرب العصابات منه إلى أسلوب الحرب الحديثة».**

وقد أشار «ستيوارت» فى تقريره إلى وقائع محددة منها «أن الطائرات الإسرائيلية أغارت على وحدات إسرائيلية». و «أن سرية من مدرعات اللواء السابع الإسرائيلى اشتبكت بمدافعها مع سرية من دبابات اللواء السابع والثلاثين الإسرائيلى». ومضى الملحق العسكرى الأمريكى فى تقريره يقول: **«لقد فشل اللواء العاشر المشاة واللواء السابع والثلاثون المدرع الإسرائيليان فى هجومهما على موقع «أم قطف» حيث حارب المصريون بأحسن مستوى من مستويات القتال وذلك بسبب بطء اللواء العاشر وتسرع اللواء السابع والثلاثين وعدم التنسيق فى العمل بينهما مما دعا الجنرال «ديان» إلى عزل بعض القادة أثناء سير العمليات».**

[٣]

كان الغزو البريطانى - الفرنسى لمنطقة قناة السويس مأساة لأصحابه منذ البداية وحتى النهاية.

كانت أول فجوة مفتوحة فى العملية كلها هى أن بريطانيا وفرنسا معا تريدان إثبات استقلال قرارهما عن الولايات المتحدة الأمريكية التى أصبحت زعامة التحالف الغربى وقيادته، كما أنها خزينة تمويله القادرة، وقد كان واضحا فى لندن وباريس أن الولايات المتحدة تعرف ما يفكر فيه حلفاؤها وإذا كانت لا توافق عليه فهى بالقطع لن تتدخل لمنع وقوعه. وكان هذا إحساس «إيدن» و«موليه» إلى جانب تقديرهما بأن «أيزنهاور» مشغول بمعركته الانتخابية وإذا خرج منها فائزا كما هو متوقع ووجد أن حلفاءه قد حققوا له مطلب الكل المشترك بـ«إسقاط ناصر» فإنه سوف يكون سعيدا باقتسام الغنائم دون تكلفة من التضحيات.

كان «أيزنهاور» يعرف لأن خطابات «إيدن» له لم تخف عنه شيئا إلا تفصيلا واحدا وهو الخاص بالتواطؤ مع إسرائيل. ومع ذلك فقد كان تقدير «إيدن» أن «أيزنهاور» لا بد أن يكون قد عرف بكل التفاصيل عن طريق وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وغيرها من أجهزة العمل السرى الأمريكى.

وتكشف مجموعة الخطابات المتبادلة بين الاثنين فى تلك الأيام عن حدود الخلاف بينهما، وأنه يتصل بالوسائل ولا يصل إلى الأهداف.

كتب «إيدن» لـ «أيزنهاور» - طبقا لملف مراسلاته مع رؤساء الدول المحفوظ ضمن مجموعة أوراقه فى مكتبة «آبيلين - كانساس» - يقول للرئيس الأمريكى: «إننا نحن وأنتم قدنا العالم مرات عديدة فى حروب دافعنا فيها عن الحرية والديمقراطية وسوف تكون مأساة إذا جئنا اليوم وتخلينا عن هذه الرسالة أمام دكتاتور صغير يريد لنفوذنا فى التاريخ أن يختفى تماما». ورد عليه «أيزنهاور» يقول له «إننى لا أريدك أن تستعمل مثل هذه اللغة فى الحديث عن التاريخ. إنك تجعل من «ناصر» شخصا أكبر مما هو فى حقيقته وسوف يكون خطأ على وجه التأكيد إذا تصرفنا معه على نحو يجعل منه بطلا لكل العرب. إن «ناصر» ينتعش بالمواقف الدرامية وعلينا أن نستنفده خطوة بعد خطوة بدون مشاهد درامية حتى نعيده إلى حجمه الطبيعى فيسقط وحده دون أن تسقط معه مصالحنا فى العالم العربى».

وكتب «أيزنهاور» فى مذكراته يوم ١٦ سبتمبر يقول:

«من سوء الحظ أن «ناصر» يدير القناة بطريقة أحسن وأكفأ من الانجليز والفرنسيين، ولذلك فإن تفكير «إيدن» فى استعمال القوة ضده سوف يبدو سخيفا».

وفى ٢٦ أكتوبر كتب «أيزنهاور» فى مذكراته: «لقد رأيت اليوم تقريرا عن مهمة استطلاع قامت بها طائرات «يو ٢» (U2) فوق إسرائيل وظهر لخبرائنا أن فرنسا أعطت إسرائيل ٦٠ طائرة «ميستير» بدلا من ٢٤ صرحنا بها رسميا».

ثم كتب «أيزنهاور» فى مذكراته فى نفس اليوم: «إن إسرائيل على وشك أن تطلق

خططها الهجومية، وهدفهم كما يتضح لى لا ينحصر فى سيناء فقط ولكنهم يريدون خطف الضفة الغربية للأردن».

وكتب «أيزنهاور» فى مذكراته أيضا فى نفس يوم ٢٦ أكتوبر يقول: **«كيف نستطيع أن نبنى «سعود» كمنافس لـ «ناصر» فى العالم العربى وفى نفس الوقت نكبح جماح حلفائنا الأطلسيين وهم على وشك أن يطلقوا العنان لحماقاتهم؟ عرض علىَّ «هوفر» (وكيل الخارجية الأمريكية) خطة لإسقاط «ناصر» تقوم بها إحدى وكالاتنا ولم أوافق عليها لأنه يسهل كشفها!»**.

ويلقى مساعده العسكرى الجنرال «جود باستير» ضوءا إضافيا على هذه الخطة فيقول فى يومياته بنفس التاريخ: «إن الرئيس رفض فكرة اغتيال «ناصر» على أساس أن عملا من هذا النوع فى الجو المتوتر الحالى فى الشرق الأوسط سوف يؤدى إلى إلهاب المشاعر فى المنطقة. ومن رأى الرئيس تأجيل ذلك حتى يحدث فى جو لا يكون فيه الاهتمام العالمى مركزا على هذه البقعة من العالم».

وفى اليوم التالى يسجل «أيزنهاور» فى مذكراته: «جاءنى «فوستر» يقول إنه قابل عددا كبيرا من أعضاء مجلس الشيوخ وهم يرحبون بأن تتورط بريطانيا فى الشرق الأوسط وأن تتوقف الملاحة فى قناة السويس حتى يضطر البريطانيون والفرنسيون إلى شراء بترول أمريكى. وقد رددت عليه قائلا: «من أين سيأتون بالمال لكى يدفعوا لنا ثمن هذا البترول؟».

وأكثر من ذلك فإن «أيزنهاور» طلب إلى «دالاس» أن يدعو «أبا إيبان» السفير الإسرائيلى فى واشنطن - إلى مكتبه ويبلغه رسالة منه إلى «بن جوريون» نصها كما يلى طبقا لمذكرات «أيزنهاور»:

(اذهب وقل لـ «بن جوريون» إنه إذا كان سيمضى فيما يفعله الآن مطمئنا إلى أننى سوف أسكت مراعاة للأصوات اليهودية فى الانتخابات فإنه سوف يكون قد ارتكب خطأ كبيرا. إننى سوف أتصرف وفقا لمصالح الولايات المتحدة سواء فزت فى الانتخابات أو خسرت الرئاسة. قل لهم إن أهدافنا لا تختلف عن أهدافهم

ولكنى لا أريد أن تتم عملية إزاحة «ناصر» بوسائل الاستعمار القديم ووفقا لمصالحه».



وإذا فلم يكن هناك سر خفى عن «أيزنهاور»، بل إن قراره يوم ٢٧ أكتوبر بضرورة ترحيل كل الرعايا الأمريكيين فى مصر قاطع فى دلالته أنه كان يعرف كل شىء. وقد ترك للآخرين الحبل وعندما بدأوا يلفونه حول أعناقهم راح هو يشد ليحكم الخناق. واختلفت لغته وتسارعت خطاه.



كان «إيدن» فى حالة يرثى لها. فقد بلغت به العصبية إلى درجة كشفت كل أسباب الضعف الكامنة فى شخصيته والتى كان يعرفها القريبون منه وإن كان الرأى العام الواسع لم يكن يعرفها.

بالنسبة للرأى العام الواسع ظل «إيدن» على صورة النجم الدبلوماسى الذى استقال من وزارة «تشمبرلين» أيام «ميونيخ» وخدم مع «تشرشل» سنوات الحرب ثم خلفه فى رئاسة الوزارة. ولكن مظهر الرجل لم يكن تعبيرا عن مخبره. فى الداخل كان «إيدن» شخصية متوترة إلى أقصى حد، ومع السنين فقد جلده على العمل أيضا، وفى انتظار إرث «تشرشل» نفد صبره، وبزواجه من فتاة تصغره بربع قرن فقد ما تبقى من توازنه.

وفى الأيام الحرجة من أزمة السويس - بعد أن تم ترتيب التواطؤ وقبل أن يبدأ الغزو - كان «إيدن» يعمل من سريره مستلقيا عليه معظم اليوم، وفى غرفة نومه كان يقابل الوزراء والقواد «العسكريين وكبار مستشاريه»!

ويصف «ويليام كلارك» المستشار الصحفى لـ «إيدن» أنه ذهب إلى مقر رئاسة الوزارة (١٠ داوننج ستريت) لتلقى تعليمات من «إيدن» يوم ٣٠ أكتوبر ورأى «كلاريسا تشرشل» فى حديقة البيت الخلفية تأخذ حمام شمس، فقد كانت تحب أن تظهر فى المناسبات العامة دائما وقد لوحت الشمس بشرتها البيضاء. وفى داخل

البيت كان زوجها فى غرفة نومه مستلقيا على سريره فى بيجامة خضراء وحوله فوضى من الأوراق والتقارير. وعند باب غرفة النوم وجد رئيس السكرتارية الخاصة يجرى من الغرفة مذعورا لأن «إيدن» ثار عليه وقذفه فى وجهه بملف أوراق تبعثرت صفحاته فملأت وسط القاعة. وعلق «كلارك» بأن «ذلك لم يكن هو المناخ الأمثل لرئيس وزراء بريطانى يقود فيه معركة من أدق وأخطر ما واجهته بريطانيا».



ويمكن رد بعض ما كان يعانيه «إيدن» فى تلك الظروف إلى أسباب موضوعية تضاف إلى مكامن الضعف فى شخصيته.

فقد كان طرفا فى عملية تواطؤ نزلت بالتاريخ إلى مستوى المؤامرة. ثم إنه كان يقود بلدا منقسما على نفسه فى مواجهة أزمة خطيرة ولم يكن واثقا من صلابة شركائه فى مؤامرة التواطؤ فلم يكن فى أعماقه معجبا بالجمهورية الفرنسية الثالثة ولا بقادتها، ثم إنه كان يحس فى أعماقه أن التواطؤ مع إسرائيل لغم قابل للانفجار فى أى لحظة تحت المصالح البريطانية فى الشرق الأوسط. وفوق هذا كله فقد كانت علاقته بـ «أيزنهاور» وبـ «دالاس» مشدودة على الآخر.

وغادر فراشه ظهر يوم ٣٠ أكتوبر ليحضر اجتماعا لمجلس الوزراء يحضره القادة العسكريون وبينهم الجنرال «كيتلى» القائد العام لقوات الغزو الذى وصل من قبرص لحضور الاجتماع حاملا بعض مطالب القيادة العسكرية لقوات الغزو وأولها مطلبهم بتحديد الهدف الاستراتيجى للحرب، وبمعنى أصرح ما الذى يتعين عليهم أن يفعلوه إذا نجحوا فى احتلال منطقة القناة، وهل يتعين عليهم التقدم منها إلى القاهرة علما بأن حجم قوات الغزو التى تجمعت فى قبرص ومالطا ليست كافية على وجه التحقيق لبلوغ هذا الهدف؟ فإذا اقتصرت مهمة القوات على منطقة القناة، فمعنى ذلك أنها سوف تجد نفسها فى حرب استنزاف طويلة مع الجيش المصرى فضلا عما يمكن أن تواجهه من احتمالات المقاومة الشعبية فى المنطقة بأسرها.

وكان جو الاجتماع مشوشا إلى أبعد حد، وكان كثيرون من القادة العسكريين أنفسهم على غير اقتناع بالخطط التى أعدها. وحدث قبل أن يلتئم شمل الاجتماع أن التفت الأميرال اللورد «مونتباتن» إلى «وليام كلارك» المستشار الصحفى لرئيس الوزراء وقال له «إننى لا أحسدك على ما سوف يتعين عليك القيام به فى الأيام القليلة القادمة. هذه أكثر حرب يصعب تبريرها على الإطلاق».

وعرض «إيدن» على الاجتماع مشروع خطاب ينوى إرساله إلى «أيزنهاور» قبل أن يعلن رسميا نبأ الإنذار البريطانى الفرنسى لمصر، كما عرض على الاجتماع أيضا نص خطاب آخر لـ «منزيس»، ثم انفض الاجتماع ونصف حضوره من الوزراء على الأقل يفكرون فى الاستقالة غير مقتنعين بما قاله لهم رئيس الوزراء ورافضين خططه للأيام القادمة.

وفور انتهاء الاجتماع تلقى «إيدن» تقريرا مفصلا عما حدث فى مجلس الأمن. فقد تقدمت الولايات المتحدة بقرار يدعو إلى وقف القتال فورا بين مصر وإسرائيل ويطالب إسرائيل بالعودة إلى خطوط اليوم السابق ويلمح إلى إدانة إسرائيل بالعدوان. وأدرك «إيدن» أن «أيزنهاور» بدأ يتصرف علنا وينفذ سياسة تهدد عملية التواطؤ كلها وتضع بريطانيا فى الموقف الصعب. وطلب توصيله بـ «أيزنهاور» على التليفون، وجاءه الرد بأن الرئيس الأمريكى ليس فى مكتبه ويستحيل الاتصال به تليفونيا خلال الساعات القادمة. وأحس «إيدن» بنذر الشؤم.



فى هذا الوقت كان «أيزنهاور» يناقش الموقف مع «دالاس» ويقوم له - طبقا لتقرير «إيميت هيوز» مستشار الرئيس الصحفى وكاتب خطاباته - ما نصه: «لقد عرفت من قراءة التاريخ أن هناك قوى عظمى تصرفت بحماقة فى بعض الظروف ولكنى لا أعرف لهذه الحماقة التى ترتكبها فرنسا وبريطانيا الآن مثيلا من قبل!» وكان «دالاس» يريد أن يعرض على «أيزنهاور» بعض التقارير الواردة من أوروبا والشرق الأوسط وقال له «أيزنهاور» - طبقا لتقرير «هيوز»: «فوستر.. دع هذا كله إلى الصباح

سوف أذهب الآن للعشاء مع «مامى» (زوجته) وبعدها مباشرة سوف أنام وفى الصباح ندرس الموقف كله وسوف نجد أن «إيدن» غرق فى الوحل إلى أذنيه وبعدها نبحث ما يمكن أن نفعله لإنقاذه». وعقب «دالاس» بأن «الولايات المتحدة يجب أن تأخذ موقفا حاسما ليس فقط من أجل أصدقائها فى الشرق الأوسط ولكن أيضا من أجل ما يحدث فى الكتلة الشرقية، فهذه فرصة أمامنا لكى تعرف الشعوب «المستعبدة» للاتحاد السوفيتى أن الولايات المتحدة تقف مبدئيا ضد سياسة القمع المسلح حتى إذا كان القائم به صديقا لها كبريطانيا وفرنسا وليس عدوا كالاتحاد السوفيتى».

وكان آخر تعليق قاله «أيزنهاور» قبل أن يتوجه إلى قاعة العشاء: «إن تصرفاتهم السياسية كارثة واستعدادهم العسكرى كارثة أكبر فقواتهم العسكرية ليست مستعدة لنوع العمليات التى هى مقبلة عليها. إننى كقائد عسكرى قديم لا أريد إلى جانبى فى ميدان القتال حليفا أفضل من الجندى الانجليزى ولكن الجندى الانجليزى المستعد لغزو مصر فى هذه اللحظات ليس جاهزا أو مستعدا للمعركة التى تنتظره».



وكانت تلك حقيقة أكدتها الحوادث ولقد كان قادة الغزو أنفسهم أول من يعرفها وفى مقدمتهم الجنرالات «كيتلى» و«ستوكويل» و«بوفر» ولهذا فقد كان التركيز شديدا على إعطاء الطيران فرصة كافية لضرب الأهداف المصرية كما أن عملية اقتحام الشواطئ المصرية عند بورسعيد كان لا بد أن تسبقها فترة أربع وعشرين ساعة من القصف المركز لمدفعية الأسطول.

ولم يترك هؤلاء القواد شكا لدى قيادتهم السياسية فأوضحوا مبكرا أن حجم القوات البريطانية الفرنسية (خمس فرق أو حوالى مائة ألف جندى) لا يمكن أن يكون كافيا لغزو مصر بعد السيطرة على منطقة القناة. وفى معظم الأحوال فقد كان الرد الذى تلقاه القواد العسكريون هو «أن الخبرة السياسية البريطانية فيما يتعلق بمصر تؤكد أنه فى اللحظة التى يتم فيها توجيه الإنذار ثم يلحق به القصف الجوى.

فإن مصر سوف تستسلم لأن القيادة السياسية سوف تنهار ولأن الجماهير المصرية المصابة بالفزع سوف تخرج إلى الشوارع فى مظاهرات ضد حكوماتها وسوف تحطم وتحرق وينتهى كل شىء فى مصر قبل أن يبدأ الغزو الفعلى».

ويبدو أن بعض العناصر فى السفارة البريطانية - وأولها المستشار الشرقى للسفارة «تريفور إيفانز» - كانوا أصحاب هذا التقدير أو كانوا من المؤمنين به.

وصباح يوم أول نوفمبر وبينما عملية القصف الجوى مستمرة على كل الأهداف فى مصر - كان «تريفور إيفانز» الذى حزم حقائبه استعدادا للرحيل مع غيره من أفراد هيئة السفارة البريطانية - لا يكف عن توجيه سؤال واحد لكل من حوله فى السفارة وهو «**لا بد أن نجد مصدرا نعرف منه ما الذى يحدث فى المدينة وهل قامت المظاهرات وإلى أى حد؟**».

ولم تكن هناك مظاهرات وإنما كان الشعب المصرى كله متمالكا لأعصابه مصمما على المقاومة.

ولا بد من الاعتراف بأن أعصاب البعض لم تكن قادرة على الاحتمال وتصرف بعض الساسة القدامى بالطريقة التى يفهمونها فقد اجتمع بعضهم على عجل بمنطق إنقاذ ما يمكن إنقاذه(١) فرأى بعضهم بضرورة تأليف وزارة تستطيع التفاوض مع الانجليز كما رأى بعضهم بضرورة أن يترك العسكريون الحكم للمدنيين وأن يذهبوا إلى وحداتهم حتى «**نثبت للعالم أننا نجد ولا نهزل ونفعل ولا نقف عن الكلام وشقشقة اللسان**»(٢).

وكانت تلك كلها تحركات على الهامش، بينما كان الشعب كله والجيش يتصديان لقوات الغزو التى نزلت فى بورسعيد ثم تعثر تقدمها من هناك.

---

(١) كان بين هؤلاء الأستاذ «سليمان حافظ» الذى كان نائبا لرئيس الوزراء فى بداية الثورة، وقد اتصل بعدد من السياسيين القدامى وأرسلوا وفدا كان هو بين أعضائه لمقابلة الرئيس «جمال عبد الناصر» ورفض الرئيس استقبالهم وبعد انتهاء الحرب جرى التحقيق معهم.

(٢) وردت هذه العبارات بنصها فى خطاب أرسله إلى «الأستاذ على أيوب» الوزير السعدى السابق وقطب حزب السعديين بخط يده، وقد وضعت الخطاب فى ملفاتى ولم أتحدث به إلى أحد.

الفصل السابع

الإنذار السوفيتى

[١]

لم يكن الشعب المصرى وحده فى المعركة وإنما كان العالم كله تقريبا معه.

كان الغضب ضد المؤامرة على مصر يجتاح القارات والمحيطات فقد اشتعلت نيران السخط ضد أطرف العدوان الثلاثى على طول المسافة الممتدة من الدار البيضاء إلى داكا، وهوجمت المنشآت والسفارات البريطانية والفرنسية فى كل العواصم الأفريقية والآسيوية، وحتى فى أمريكا اللاتينية قال «فيدل كاسترو» الذى كان لا يزال يحارب طغيان الجنرال «باتيستا» أن «قوات الثورة الكوبية فى ذلك الوقت كانت تشعر أنها تخوض من عن بعد معركة مصر».

وكتب «نهرو» إلى «إيدن» يقول له «**إنه ليس واثقا من استمرار بقاء الهند فى الكومنولث**». والغريب أن «اسكندر ميرزا» رئيس باكستان ـ ورغم بعد الشقة بين مواقف الهند وباكستان ـ فعل نفس الشىء قائلا «**إن الضغوط الشعبية قد تفرض على حكومة باكستان أن تنسحب من الكومنولث حتى إذا أرادت هذه الحكومة عكس ذلك**».

وكتب السير «مايكل رايت» السفير البريطانى فى بغداد تقريرا إلى «إيدن» يقول فيه إنه «**ما لم يتوقف الهجوم على مصر بسرعة فلن تكون هناك قوة فى الأرض قادرة على حماية نظام «نورى السعيد» فى بغداد لأن مشاعر الشعب العراقى كلها فى حالة نقمة ضد بريطانيا لم ير ظاهرة مثلها من قبل فى تجربته الدبلوماسية**». وفى الوقت الذى كان «إيدن» يقرأ فيه هذا التقرير كانت مقار الشركات والبنوك فى

العراق وغيرها من المؤسسات البريطانية تتعرض لهجمات متواصلة من جماهير التهبت مشاعرها.

وفى كثير من البلاد الأوروبية ذاتها (اليونان وإيطاليا وإسبانيا وحتى فى ألمانيا الغربية) بلغ السخط ضد بريطانيا وفرنسا مداه.

ولم يكن «إيدن» فى حاجة إلى أن يقرأ عما يجرى فى العواصم البعيدة فى آسيا وأفريقيا وأوروبا ـ لكى يعرف درجة الاستفزاز التى أحدثها غزو مصر. لأن لندن نفسها شهدت أعنف مظاهرات عرفتها فى تاريخها الحافل. وكانت أضخمها تلك المظاهرة التى قادها «أنيورين بيفان» الزعيم العمالى الشهير إلى ميدان «ترافالجار» فملأته عن آخر وفاضت على الشوارع المؤدية إليه وكانت هذه المظاهرة تجسيدا حيا للانقسام الحاد الذى حدث فى الشعب البريطانى. وكان تعليق «أيزنهاور» على هذه المظاهرة فى يومياته هو قوله «**كيف يستطيع هذا المختل أن يدخل حربا بأمة انقسمت على نفسها**»؟



ثم جاء التعبير الأكبر عن الغضب فى دمشق.

كان رئيس الجمهورية السورية السيد «شكرى القوتلى» قد سافر إلى موسكو صباح يوم الثلاثاء ٣٠ أكتوبر. واتصل قبل سفره بالرئيس «جمال عبد الناصر» يسأله عن أخبار الجبهة بعد أن بدأ الهجوم الإسرائيلى عصر اليوم السابق. وطمأنه «جمال عبد الناصر» إلى سلامة الموقف على الجبهة وسأله «شكرى القوتلى» إذا كان يرى من الأفضل تأجيل رحلته إلى موسكو؟ ورد عليه «جمال عبد الناصر» بأنه «يجب أن يسافر كما كان مقررا وبالعكس فإن وجوده فى موسكو فى هذه الأيام قد تكون له أهمية على سير الحوادث». وسأله «شكرى القوتلى» «إذا كان يريد شيئا من الجيش السورى؟» ورد «جمال عبد الناصر» بأنه «لا يريد من الجيش السورى إلا أن يكون متنبها لأن دمشق مستهدفة بقدر ما أن القاهرة مستهدفة».

وسافر «شكرى القوتلى» إلى موسكو وفى مساء نفس اليوم جاء الإنذار البريطانى الفرنسى إلى مصر وبعده بدأ القصف وثارت مشاعر الضباط الشبان فى الجيش السورى، فلم يكن منهم من هو قادر على الانتظار (طبقا لنصيحة «جمال عبد الناصر» لـ «شكرى القوتلى» وقد أبلغها «القوتلى» قبل سفره من دمشق).

وذهب المقدم «عبد الحميد السراج» قائد الشعبة الثانية (المخابرات العسكرية) فى الجيش السورى إلى مكتب قائد الشعبة الثالثة (التحركات) ليسأله «ما الذى ينوى الجيش السورى عمله تطبيقا لميثاق الدفاع المشترك مع مصر بعد أن بدأ العدوان المسلح على مصر؟» وقال له رئيس الشعبة الثالثة «إن ذلك يحتاج إلى قرار سياسى».

وخرج «عبد الحميد السراج» من مكتب رئيس الشعبة الثالثة وتوجه إلى مكتب القائد العام للجيش السورى اللواء «توفيق نظام الدين» وأعاد عليه سؤاله، ثم تطورت المناقشة إلى اقتراح أن يذهب قادة الجيش إلى رئيس الجمهورية بالنيابة السيد «ناظم القدسى» يطالبونه بإصدار قرار يمكنهم من العمل لمساعدة مصر.

واقترح «ناظم القدسى» تأجيل أى قرار فى هذا الموضوع لفترة ٤٨ ساعة «لأن هناك عوامل جديدة فى الموقف».

وعندما عاد المقدم «عبد الحميد سراج» إلى مكتبه فى الشعبة الثانية مصابا بالإحباط وجد إشارة تخطره بظهور قطع بحرية أمام ميناء اللاذقية وبنياس وهو نهاية خطوط الأنابيب التى تنقل بترول العراق إلى البحر الأبيض، وهكذا طرح موضوع أنابيب البترول نفسه على تفكير «السراج» فأمر أحد ضباط لواء البادية أن يذهب على الفور إلى محطات الضخ الثلاث الواقعة فى الأراضى السورية، وأن يوقف عمل أجهزة اللاسلكى فيها بدعوى أن هذه الأجهزة سوف تعطى إشارات للقطع البحرية التى ظهرت أمام الموانئ السورية. وتوقفت أجهزة اللاسلكى.

وكان «عبد الحميد السراج» فى مكتبه حين تلقى مكالمة تليفونية تطلب منه التوجه لمقابلة السيد «صبرى العسلى» رئيس الوزراء فى مكتبه بسراى الحكومة. ودخل

«عبد الحميد السراج» فوجد رئيس الوزراء فى انتظاره ومعه السيد «مجد الدين الجابرى» وزير الأشغال.

ولم ينتظر «صبرى العسلى» حتى يجلس «عبد الحميد السراج» وإنما بادره قائلا «إن السفير الأمريكى كان عنده الآن وإنهم قلقون على توقف اللاسلكى فى محطات الضخ». واستطرد رئيس الوزراء يقول «لو شعر الانجليز أن شيئا حدث للخط فإنهم سوف يقومون بعملية إنزال على المحطات وعلى الخطوط ليضمنوا تدفق البترول». ولم يسكت رئيس الوزراء وإنما مضى يقول بعصبية «هل نقدر نحن على الانجليز؟ هل نقدر نحن على الأمريكان؟».

ورد «عبد الحميد السراج» بأنه «فعلا أمر بتوقف أجهزة اللاسلكى بعد أن ظهرت قطع بحرية أمام شواطئ سوريا، وقد أمر بتوقف هذه الأجهزة لفترة موقتة يستطيع فيها أن يجد موظفين سوريين يحسنون اللغة الانجليزية ليجلسوا بجوار عمال الإشارة فى محطات اللاسلكى ويتأكدوا أنها لا ترسل إشارات إلى القطع البحرية التى ظهرت أمام الموانئ السورية».

وتدخل «مجد الدين الجابرى» وزير الأشغال فى المناقشة فقال «إنه يستطيع أن يجد فى وزارته من موظفى البرق والبريد من يحسنون الانجليزية، وإنه يمكن إرسالهم إلى محطات اللاسلكى ليقوموا بالرقابة على رسائلها».

وعاد «عبد الحميد السراج» إلى مكتبه ليجد إشارة إلى شعبة العمليات تطلب وضع لواء البادية تحت تصرف وزارة الداخلية ليتحول إلى قوة حراسة لخط الأنابيب. وقرر «عبد الحميد السراج» أن الموقف يحتم عليه أن يتحرك بسرعة، فدعا ضابطا مهندسا هو المقدم «هيثم الأيوبى» وكلفه بنسف محطات ضخ البترول من أساسها. وتوقف ضخ البترول تماما إلى البحر الأبيض(١).

وبتوقف الملاحة فى قناة السويس ثم بنسف خط أنابيب البترول - توقف بترول الشرق الأوسط تماما عن بريطانيا وعن كل أوروبا الغربية.



---

(١) حديث مسجل مع السيد عبد الحميد السرّاج.

وهرول «هارولد ماكميلان» وزير الخزانة البريطانى من مكتبه رقم ١١ «داوننج ستريت» - وهو ملاصق لمقر رئاسة الوزراء - إلى مقابلة «إيدن» يحمل إليه نبأ الكارثة الجديد «**لقد توقف بترول الشرق الأوسط تماما، وبدأ الجنيه الاسترلينى يتعرض لضغط عنيف، ويقدر خبراء وزارة الخزانة أن الخسائر فى أسواق العملة سوف تصل هذا اليوم إلى عشرة بلايين جنيه استرلينى. وبهت «أنتونى إيدن»**.

كانت العمليات العسكرية متعذرة والآن انهار الموقف الاقتصادى. وظل «إيدن» صامتا لفترة بعد أن استمع إلى رسالة «ماكميلان» ثم سأله «ما هى توصياتك؟» ورد «هارولد ماكميلان» بأنه «ليس هناك الآن غير خطوتين كل منهما تكمل الأخرى ولا يمكن الاستعاضة بواحدة عن الثانية:

- ☐ **الأولى**: أن توافق الولايات المتحدة على إمداد بريطانيا وفرنسا بالبترول لعدة أسابيع.
- ☐ **الثانية**: أنه فى ظرف تلك الأسابيع يتعين أن تكون الملاحة فى قناة السويس قد عادت إلى حالتها الطبيعية، وأن يتسنى فى أسرع وقت إصلاح خط أنابيب البترول عبر سوريا ليعود إلى التدفق».

ثم أضاف «ماكميلان» سطره الأخير فقال «**وإذا لم يحدث ذلك فليس أمامنا غير الإفلاس الكامل**».

وعقد «إيدن» اجتماعا عاجلا لمجلس الوزراء وتلقى صدمة عمره حينما سمع اللورد «سالسبورى» يقول له «**إن الخطوة العاجلة الآن هى مناشدة «أيزنهاور» أن يوافق على إمداد بريطانيا بالبترول. وسواء أحببنا أو كرهنا فإن «أيزنهاور» لن يصغى لنداء صادر عنك. وليس هناك من يستطيع أن يتوجه بالنداء نائبًا عن بريطانيا سوى «ونستون تشرشل» الذى يملك وحده رصيدا كبيرا من الاحترام لدى «أيزنهاور» ولدى الرأى العام الأمريكى**».

[٢]

كان الطيران البريطانى والفرنسى هو الذى يتولى ضرب مصر طوال الفترة من ٣١ أكتوبر إلى ٤ نوفمبر.

ويوم ٤ نوفمبر بدأت قوات المظلات البريطانية - الفرنسية بقيادة الجنرال «بوفر» تهبط فوق المنطقة الشمالية من قناة السويس وتشتبك مع القوات المصرية فى معارك بالأسلحة الصغيرة، بينما كانت مدافع الأسطول المتحالف (بريطانيا وفرنسا) تطلق أثقل قنابلها على مدينة بورسعيد وعلى ما حولها.

وفجر يوم ٥ نوفمبر تقدمت حاملات الجنود تحت حماية مدافع الأسطول، وبدأت موجاتها تنزل على الشواطئ.

وارتفعت درجة الغليان فى العالم، بينما كانت الأمم المتحدة تشهد أعنف المناقشات وتصدر القرارات بوقف إطلاق النار. وكان «دالاس» شخصيا هو الذى يقود الموقف الأمريكى فى الأمم المتحدة.

وحتى هذه اللحظة كان الاتحاد السوفيتى يصدر البيانات ويشارك فى مشروعات القرارات ويدين العدوان بكل الوسائل لكنه لم يكن قد اتخذ خطوة عملية بعد. وفجأة مساء ٥ نوفمبر تحرك الاتحاد السوفيتى وكانت حركته مفاجئة حتى بالنسبة لـ «جمال عبد الناصر».

كان الاتحاد السوفيتى منذ بدأت الأزمة يعطى إشارات مشجعة ولكنه لم يلزم نفسه بشىء محدد على الإطلاق. وكانت إشارته المشجعة تتخذ فى العادة شكل تصريحات أو مشاهد لها تأثير إعلامى أو سياسى بغير اقتراب عملى من ميادين الحوادث. وربما كانت أكثر مرة ظهرت فيها نوايا التأييد السوفيتى لمصر بعد تأميم قناة السويس، وبعد أن زادت حدة التهديدات الموجهة لمصر - هى تصريحات الزعيم السوفيتى «نيكيتا خروشوف» فى السفارة الرومانية فى موسكو يوم ٨ أغسطس. فقد حضر «خروشوف» حفل استقبال فيها وكان بين الضيوف فيه السير «ويليام هايتر» السفير البريطانى فى موسكو والسفير المصرى السيد «محمد القونى».

وما إن لمح «خروشوف» السفير البريطانى فى أحد صالونات السفارة الرومانية حتى صاح فى وجهه «ها قد أقبل المستعمرون» ثم سأله «كيف تحلمون بإعادة فرض السيطرة على شعب مكافح مثل الشعب المصرى؟» ورد عليه السير «ويليام» قائلا: «إننا لا نريد أن نفرض سيطرة ولكننا نحاول أن نصون حقوقنا». وصاح فيه «خروشوف» «وماذا عن حقوق ومصالح المصريين؟»، ثم استطرد «ولنفرض أن لكم مصالح فهل تحتاجون إلى تعبئة الجيوش وتهديد الآخرين بالحرب لتحقيقها؟ لا تنسوا أنه إذا بدأت الحرب نتيجة لسوء تصرفاتكم فإن كل مشاعرنا سوف تكون مع المصريين. وإذا خاضت مصر الحرب ضدكم فإننا سوف نعتبرها حربا مقدسة وإذا جاء ابنى وطلب أن يتطوع فى الحرب ضد الانجليز فى مصر فسوف أشجعه على التطوع». والتفت «خروشوف» فلمح السفير «محمد القونى» فناداه وقال له «**إنكم قطعتم ذيل الأسد البريطانى بتأميم القناة وإذا تجرأ وهاجمكم بالقوة فانا واثق أنكم سوف تستطيعون تكسير أسنانه**».

وكان سفير باكستان «أخطار حسين» واقفا وراء السفير المصرى ولم يتركه «خروشوف» وإنما توجه ناحيته وقال «لقد كنا قبل قليل نوجه كلامنا للمستعمرين والآن جاء الدور على «**توابعهم**». ودهش «أخطار حسين» وقال لـ «خروشوف» «سيدى الرئيس أنا لا أعرف عن أى مستعمرين تتكلم؟» ورد «خروشوف» قائلا «**ألا تستطيعون أن تكونوا أمناء مع أنفسكم مرة واحدة وتعترفوا بالحقيقة؟**» وحاول «أخطار حسين» أن يتخلص من الحرج فقال لـ «خروشوف» «سيدى الرئيس ما هى الحقيقة؟ الحقيقة شىء نسبى وكلنا نبحث عنها، ولكننا نحتاج إلى المعرفة لكى نتوصل لها فهل لى أن أدعوك لشرب نخب المعرفة التى توصلنا للحقيقة؟» ولم يسكت «خروشوف» وإنما رد قائلا «**لا.. إننى لن أشرب نخبا معك** فإن عندنا مثلا روسيا يقول «**إن الرجل الذى يفقد ثروته يستطيع تعويضها، أما الرجل الذى يفقد شرفه فقد أضاعه إلى الأبد**». » وتدخل رئيس الوزراء «بولجانين» فى الحوار لتهدئة الجو فقال «سوف أقترح حلا وسطا فلنشرب نخب شعب باكستان». ورد «خروشوف» «**إذا كان النخب فى صحة شعب باكستان فإنى أرفع كاسى وأشرب**

نصفه فقط، وأما نصفه الآخر فسوف أحتفظ به حتى يتمكن شعب باكستان من أن يثور فى وجه الأحلاف ويثور ضد الاستعمار كما فعل الشعب المصرى(١)».



وقرأ «جمال عبد الناصر» تقرير «محمد القونى» فى القاهرة وأحس فيه بحرارة التأييد ولكنه على المستوى العملى لم يكن كافيا.

وعندما تلقى «جمال عبد الناصر» الإنذار البريطانى الفرنسى وأثناء جلسة تخطيط لمناقشة الاحتمالات السياسية والدولية بعد بدء العمليات ـ طرح للبحث موضوع رد الفعل السوفيتى تجاه العدوان وما يمكن أن يكون عليه هذا الموقف. ولم يكن هناك أساس صلب يستطيع أن يبنى عليه أحد موقفا إلا الثقة فى أن الاتحاد السوفيتى سوف يتخذ موقفا مبدئيا يشجب العدوان ويؤيد المعتدى عليه سياسيا، وأما بعد هذا التأييد السياسى فلم يكن فى مقدور أحد أن يقطع بشىء.

وحتى عندما تقرر فى هذا الاجتماع أن يكتب الرئيس «جمال عبد الناصر» لكل زعماء العالم طالبا وقوفهم مع مصر فى رد العدوان تردد «جمال عبد الناصر» أمام مشروع خطاب أعد ليرسل إلى «خروشوف». وافق على خطاب لـ «أيزنهاور» بغير تردد ولكنه توقف أمام خطاب لـ «خروشوف». وكانت وجهة نظره أن «الولايات المتحدة الأمريكية فى موقف يختلف عن الاتحاد السوفيتى، فـ «أيزنهاور» يملك أن يضغط على «إيدن» ويلوى ذراعه من حيث هو فى واشنطن. وأما «خروشوف» فلا يستطيع أن يؤثر إلا إذا كان موجودا على أرض المعركة. ولنفرض أنهم أجابونا على طلبنا بالوقوف معنا ثم عرضوا إرسال قوات تجىء إلى مصر وطلبوا تخصيص معسكرات إيواء وقواعد عمل لهذه القوات ـ فماذا يكون موقفنا؟ إن أبسط شىء يحدث لنا فى هذه الحالة هو أن قيادة الحرب سوف تخرج من أيدينا لأنها سوف تتحول إلى مواجهة بين القوتين العظميين وسوف تنضم الولايات المتحدة بالكامل لقوات العدوان، وتصبح مشكلتنا جزءا من المواجهة الشاملة بين

---

(١) تقرير رسمى من السفير محمد القونى إلى الرئيس عبد الناصر وتوجد منه نسختان: إحداهما فى أرشيف منشية البكرى، والاخرى فى ملف وزارة الخارجية.

العملاقين بصرف النظر عن رأينا وإرادتنا». وفى النهاية كتب «جمال عبد الناصر» إلى الزعماء السوفييت أنه «واثق من تأييدهم الكامل لنضال حركة التحرر الوطنى وللشعوب المدافعة عن استقلالها».



وفى الأيام الأولى الثلاثة للحرب كانت الأخبار من موسكو غير مشجعة على الإطلاق، فعندما بدأت محادثات الرئيس «القوتلى» مع القادة السوفييت كان أول بند على جدول الأعمال هو العدوان على مصر، وقال الرئيس «القوتلى» إن «شعوب العالم العربى تنتظر المساندة الفورية والعملية من صديقها الكبير الاتحاد السوفيتى»، ورد عليه «خروشوف» قائلا «إننا أصدرنا بيانات قوية نشجب فيها العدوان»، ورد «شكرى القوتلى» بأن «البيانات بليغة ولكنها لا توقف الجيوش»، وكان رد «خروشوف» «هل تريدنا أن نشعل نار حرب عالمية نووية؟» ورد «شكرى القوتلى» بأن «لا أحد يفكر فى إشعال نار حرب نووية ولكنه لا بد أن تكون هناك وسيلة تساعدون مصر بها عمليا». وكان المارشال «جوكوف» وزير الدفاع أحد المشاركين فى المحادثات وتدخل لأول مرة فى المناقشات وفتح خريطة فردها على المائدة وقال لـ«القوتلى» «هذه هى خريطة الشرق الأوسط فقل لى كيف نستطيع أن نصل بقواتنا إلى مصر؟ سوف يكون علينا أن ندخل إيران ثم العراق ثم الأردن ثم إسرائيل لكى نصل إلى منطقة قناة السويس». وانفجر «شكرى القوتلى» بالضيق وصاح فى المارشال «جوكوف» وقال «أنت تعرض الخريطة أمامى لتعجيزى وأنا لن أنظر إليها ولا أتصور أن المارشال «جوكوف» بطل الحرب العالمية الثانية يجىء إلى مدنى ضعيف الحيلة مثلى ويطلب إليه أن يشير عليه برأى عسكرى؟»

وخرج «شكرى القوتلى» من الاجتماع واستدعى السفير «القونى» ليطلب إليه إبلاغ الرئيس فى القاهرة فورا «**بأن لا يعتمد فى خططه على مساعدة عملية من «الجماعة» هنا (١)**».

---

(١) تقرير رسمى للسفير محمد القونى.

وفى يوم ٤ نوفمبر أتيحت للسفير «القونى» فرصة لحديث مع «خروشوف» أثناء حفل عشاء أقيم تكريما للرئيس «القوتلى» فى الكرملين. وقال السفير «القونى» لـ «خروشوف» إن «مصر فى هذه الساعات العصيبة تعتمد على أصدقائها». ورد عليه «خروشوف» هامسا فى أذنه «**لا تعتمدوا على غير أنفسكم ونحن واثقون أنكم قادرون على تحقيق النصر**».



ومساء يوم ٥ نوفمبر دعى «القونى» إلى مقابلة مع وزير الخارجية «ديميترى شبيلوف» وذهب إلى وزارة الخارجية السوفييتية يسائل نفسه عن سبب استدعائه المفاجئ لمقابلة «شبيلوف»، ولقيه فى الردهة المؤدية لمكتب الوزير رئيس قسم الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية السوفييتية وهو السفير «تساتييسيف» الذى غمز له بطرف عينيه قائلا «إنك سوف تسمع أشياء تسرك»! ودخل «القونى» إلى مكتب «شبيلوف» لكى يسلمه نسخة من الإنذار السوفيتى الموجه لبريطانيا وفرنسا ونسخة من الإنذار الموجه إلى إسرائيل.

كان الإنذار الموجه إلى كل من بريطانيا وفرنسا «يطالب بوقف العمليات العسكرية فورا وبانسحاب القوات المعتدية دون إبطاء»، ويشير بصراحة ووضوح إلى «**أن لندن وباريس ليستا بعيدتين عن مدى الصواريخ النووية**».

وأما الإنذار الموجه إلى إسرائيل فقد اتهمها بأنها «تتصرف إذعانا لإرادة أجنبية ووفقا لأوامر من الخارج، وأن حكومة إسرائيل تعبث على نحو إجرامى غير مسئول بمصير العالم وبمصير شعبها، وتبذر بذور الكراهية لدولة إسرائيل فيما بين الشعوب الشرقية، وهو أمر لا بد أن يترك آثاره على مستقبل إسرائيل ويشكك فى وجود إسرائيل ذاتها كدولة».



وبعث السفير «محمد القونى» بنصوص الإنذارات إلى القاهرة وقرأها الرئيس «جمال عبد الناصر» قبل دقائق من إذاعتها رسميا من موسكو ليعرف بها العالم كله.

وأضاف السفير «القونى» تحليلا سريعا إلى معنى صدور هذه الإنذارات الآن فقال فى برقيته: «إن السوفييت يتخذون مواقفهم الحازمة فى القضايا المبدئية عامة بعد أن تتوافر لها شروط ثلاثة:

١ ـ أن يثبت أصحاب أى قضية وطنية صلابتهم فى الدفاع عن قضيتهم وأن يتحملوا مسئولياتهم قبل أن يطلبوا من الآخرين مساعدتهم وأن يؤكدوا قدرتهم على الصمود المستقل.

٢ ـ أن ينجح أصحاب هذه القضية فى خلق رأى عام قوى فى مناطقهم، وأن يخلقوا تيارا قويا متعاطفا معهم فى العالم كله.

٣ ـ أن يظهر بجلاء من وقائع سير الصراع أن القوة المعادية قد تورطت فى عدوانها إلى درجة تجعل إدانتها أمرا مؤكدا والتصدى لها شيئا مطلوبا على نطاق وطنى وإقليمى وعالمى.

وعندما تتوافر هذه الشروط الثلاثة فإن الاتحاد السوفيتى فى العادة يقر موقفه بحزم وحسم».

وأشار السفير «القونى» فى ختام تقريره الأولى «أنه واثق من أن الاتحاد السوفييتى يعنى ما يقول، وأن الأزمة من هذه الساعة أخذت منعطفا جديدا».



ولم يكن السفير «القونى» مبالغا فيما ذهب إليه، فعندما وصل الإنذار إلى لندن كان له وقع الصاعقة، وحاول «إيدن» أن يتصل بـ «أيزنهاور» ولكن «أيزنهاور» مرة أخرى لم يشأ أن يقبل المكالمة. وطلب رئيس الوزراء البريطانى أن تحول المكالمة إلى «تشيرمان آدامز» كبير المساعدين السياسيين للرئيس الأمريكى. وكان صوت «آدامز» باردا كالثلج ـ وفق تعبير «إيدن» نفسه. فعندما سأله «إيدن» عما إذا كان الرئيس قد اطلع على الإنذار السوفيتى وما هو رأيه فيه؟» كان رد «تشيرمان آدامز» أن «**الرئيس اطلع على الإنذار ولا يعتبره موجها إلى الولايات المتحدة، وعلى الذين تصرفوا منفردين دون الموافقة الصريحة للولايات المتحدة أن يتحملوا عواقب**

تصرفهم». ووضع «إيدن» سماعة التليفون واستدعى مجلس وزرائه لاجتماع عاجل ولم يكن هناك خلاف بين الوزراء على أن «الإنذار السوفيتى بعد ضربة البترول وانهيار الجنيه الاسترلينى، وتعثر عمليات الغزو المسلح لمصر - لا يترك لأحد فرصة».

وبدأ الوزراء يخرجون من القاعة و«إيدن» باق فى مكانه مسمر فى مقعده وكأنما هو قد تجمد فيه وكانت يداه ترتعشان، وأقبل عليه اللورد «سالسبورى» مواسيا ونظر إليه «إيدن» نظرة يأس وقال بصوت متحشرج «**بعد أن يتوقف القتال وتنسحب القوات أعتقد أنه لم يعد يبقى أمامى غير أن أذهب** (يقصد الخروج من رئاسة الوزارة)» ورد عليه اللورد «سالسبورى» بصراحة قائلا «أنتونى.. أظن أن استنتاجك صحيح». وخرج وتركه وحده فى قاعة اجتماع مجلس الوزراء الفسيحة والمغطاة جدرانها بصور رؤساء الوزارات البريطانية السابقين. وقد أصبح محققا أن صورة أخرى سوف تضاف فى القريب إلى متحف الماضى.



فى باريس كان رد الفعل الأول للإنذار هو التحدى واتصل «كريستيان بينو» بـ«سلوين لويد» يقول له إن «الروس يهوشون». ورد عليه «سلوين لويد» بأنه «كان يتمنى لو كان فى استطاعته أن يجارى زميله الفرنسى فى تفاؤله» **ثم أضاف «لقد انتهى الآن اجتماع لمجلس الوزراء وتقرر فيه إيقاف إطلاق النار»**. وصرخ فيه «كريستيان بينو» قائلا «لا يعقل أن نتوقف فى وسط العملية». ورد «سلوين لويد» بأن «ماهو ضرورى يجب أن يسبق ما هو معقول». وطلب «كريستيان بينو» «أن يعمل على إقناع «إيدن» بمواصلة القتال يوما أو يومين» وقال «لويد» إن «ذلك فوق طاقته».

ولم تمض دقائق حتى كان «جى موليه» على التليفون مع «إيدن» وكان «إيدن» لا يزال وحده فى قاعة مجلس الوزراء وكما جرب «بينو» مع «لويد» - جرب «موليه»

مع «إيدن» وكرر عليه «إيدن» أن «أيزنهاور رفض تلقى مكالمته» ورد «موليه» بأن «هذا ليس وقت مكالمات تليفونية، واقترح أن يبعث إلى «أيزنهاور» ببرقية يطلب فيها موعدا فوريا له ولـ «إيدن».» ووافق «إيدن» على الاقتراح وقال «إنه مستعد للسفر فى هذه اللحظة إلى واشنطن».

وأبرق «موليه» إلى «أيزنهاور» يطلب موعدا له ولـ «إيدن» وبعد ساعة جاء السفير الأمريكى فى باريس «ديللون» لمقابلة «موليه» وليقول له إن «الرئيس يأسف لأنه لا يستطيع أن يقابله لا هو ولا «إيدن» قبل قبول وقف إطلاق النار وإلا كان معنى ذلك أن الولايات المتحدة شريكة فى مغامرة الهجوم على مصر بينما هو فى الواقع لا شأن لها بالموضوع كله، فقد رتب من وراء ظهرها وأخفيت تفاصيله عنها عمدا وليس يحق لأطرافه أن يلقوا عليها الآن بالمسئوليات المترتبة عليه».

ثم أوضح السفير الأمريكى «ديللون» إضافة إلى ذلك أن «الرئيس الأمريكى مشغول باحتفالات انتصاره فى انتخابات الرئاسة التى حقق فيها فوزا ساحقا هذا اليوم ـ ٦ نوفمبر ١٩٥٦».

وقبل أن يخرج السفير «ديللون» من مكتب «موليه» قال له بشكل عام إنه «لا يتصور أن هجوما سوفييتيا بالصواريخ على بريطانيا وفرنسا مسألة سهلة فالسوفييت سوف يحسبون حسابا لرد الفعل الأمريكى، لكن المسألة معقدة بأكثر مما يبدو على سطحها».

وأعلنت الحكومة البريطانية ـــ وبعدها بدقائق أعلنت الحكومة الفرنسية ـــ قبولهما لوقف إطلاق النار ولسحب قواتهما من مصر!

[٣]

وفى إسرائيل كان «بن جوريون» مشغولا ساعة صدور الإنذار السوفيتى. فقد كان يستعد لإلقاء خطبة النصر فى الكنيست بعد أن توقفت المعارك فى سيناء

ووصلت القوات الإسرائيلية على الطرق المفتوحة إلى «شرم الشيخ». وفى هذه الخطبة أعلن «بن جوريون» تحديه للدنيا كلها على النحو التالى:

«١ ـ أعلن أن اتفاقية الهدنة مع مصر قد ماتت ودفنت وليس فى الوسع إعادتها للحياة».

«٢ ـ وبناء على ذلك لم يعد لحَدود الهدنة بين إسرائيل ومصر أى احترام».

«٣ ـ وتأسيسا على ذلك فإن السيادة المصرية على سيناء سقطت وأصبح شبه الجزيرة جزءا لا يتجزأ من إسرائيل».

«٤ ـ ثم قال «إننا مستعدون للدخول فى مفاوضات تهدف إلى سلام مستقر وتعاون وعلاقات جوار طيبة مع مصر بشرط أن تكون المفاوضات مباشرة ودون شروط مسبقة ودون ضغط من أى مصدر أيا كان».

«٥ ـ واستدرك قائلا «وإذا لم تكن مصر مستعدة للسلام الآن فسوف تحترم إسرائيل الخطوط الجديدة للهدنة طالما فعلت مصر نفس الشىء».

ثم ختم «بن جوريون» خطابه قائلا: «تلك هى مبادئ سياستنا فى هذه الأوقات العاصفة وليس هناك تراجع عنها»(١).



وفرغ «بن جوريون» من خطاب النصر ليجد أمامه نص الإنذار السوفيتى. وعقد اجتماعا لكبار مستشاريه يتدارس معهم هذا التطور الجديد. وتقرر فى الساعة الواحدة صباحا أن يسافر على الفور وفد إسرائيلى مشكل من «جولدا مائير» و«ديان» و«بيريز» إلى باريس لاستطلاع وجهة نظر الحكومة الفرنسية. وفى الصباح الباكر كان الوفد الإسرائيلى يشترك فى اجتماع عاجل مع «كريستيان بينو» وزير الخارجية و«برجيس مانورى» وزير الدفاع.

ويروى «شيمون بيريز» (٢) تفاصيل اللقاء مع الوزيرين الفرنسيين فيقول:

---

(١) محاضر الكنيست.

(٢) شهادة «شيمون بيريز» فى تقرير الدكتور «مايكل بريشر».

«وجدنا الفرنسيين منقسمين فى الرأى حول مغزى التهديد السوفيتى ولم يكن أى منهما مطمئنا، وقد دافع «بينو» عن موقفهم على النحو التالى «أن فرنسا على استعداد لأن تشاركم فى كل ما عندها ولكنها لا تستطيع إعطاءكم أكثر مما عندها، فليست لدينا وسائل للدفاع ضد الصواريخ وإذا هاجمكم الروس فسنكون بلا حول أو قوة أمام الصواريخ حتى لو هرعنا لمساعدتكم بكل قواتنا». لقد بدا الوزير الفرنسى شديد القلق ونظر إلى التهديد السوفيتى بجدية واضحة وقال لنا «أشير عليكم بأن لا تستخفوا بالإنذار». ثم روى لنا وزير الخارجية الفرنسية الواقعة التالية:

«عندما وصل الإنذار السوفيتى كان المستشار الألمانى «إديناور» مجتمعا مع «جى موليه» فى مكتبه وأطلعه «موليه» على الإنذار فور أن فرغ من قراءته وعلق «إديناور» عليه بقوله لرئيس الوزراء الفرنسى «الأفضل ألا تكون لديكم أى أوهام فهؤلاء الأمريكيون لن يهرعوا إلى مساعدتكم على الرغم من حلف الأطلنطى». وقد أقلقت عبارات المستشار الألمانى رئيس الوزراء الفرنسى وعلى الفور أبرق إلى سفير فرنسا فى واشنطن أن يستطلع الموقف فى العاصمة الأمريكية دون إبطاء. وتوجه السفير الفرنسى فى واشنطن «هيرفيه الفان» إلى البيت الأبيض بغير موعد وقال إنه لن يغادره إلا إذا رأى الرئيس ولو دقيقة واحدة. واستقبله «أيزنهاور» واقفا. وكان ــ وفقا لبرقية من السفير الفرنسى فى واشنطن وصلت قبل دقائق ــ شاحب الوجه وعصبيا، وكرر له المرة بعد المرة قوله «يجب عليكم وقف هذه الحرب.. يجب عليكم الانسحاب من مصر.. إن موقفنا يطابق موقف الأمم المتحدة». وعلى حين غرة التفت الرئيس إلى السفير غاضبا وقال له «دعنى أقل لك هذا يا سيدى أن الحياة لا تعدو أن تكون سلما يصل أعلاه إلى السماء. وإننى شديد القرب من الطرف العلوى للسلم... وأريد أن أقدم نفسى لخالقى بيدين نظيفتين لم تلوثهما حرب نووية».



ويمضى «شيمون بيريز» فى شهادته فيقول: «بعد ساعة من مقابلتنا للفرنسيين اتصل بى فى فندقى «برجيس مانورى» ليقول لى «إننى فى حقيقة الأمر لا أملك دليلا موثقا على ما أقوله لك الآن، فمن رأيى أن التهديد السوفيتى تهويش لأنهم لن يثيروا حربا عالمية ثالثة، ولكن هذا رأى شخصى ليس إلا».

ويصف «ديان» رد فعل «بن جوريون» إزاء الإنذار السوفيتى بقوله فى يومياته «لم يخف «بن جوريون» قلقه العميق تجاه الإنذار السوفيتى ولم يتجاهل الخطر الكامن فيه. ولكن ركبتيه لم ترتعشا ولم يستول عليه الذعر. وكان أكثر ما أثار حفيظته هو اختلاف الرسالة الموجهة إلى بريطانيا وفرنسا عن الرسالة الموجهة إلى إسرائيل وحدها. فالرسالة الموجهة إلينا صيغت بأسلوب الاحتقار والازدراء وحوت تهديدا للوجود الفعلى لدولة إسرائيل»(١).

وتكهرب الموقف فى مجلس الوزراء الإسرائيل بعد ظهر يوم ٧ نوفمبر عندما وصلت تقارير الوفد الإسرائيلى فى باريس كاملة ومعها إضافة جديدة تتمثل فى نسخة من تقرير كتبه «بوهلن» السفير الأمريكى فى موسكو وقال فيه «إن **السوفييت يعتزمون (تسوية إسرائيل بالأرض) فى اليوم التالى**». وحصل الفرنسيون على نسخة من التقرير وأعطوها للوفد الإسرائيلى فى باريس.

كان مجلس الوزراء الإسرائيلى فى حالة اجتماع مستمر ثم وصلته أنباء عن إسقاط طائرة بريطانية من طراز «كانبيرا» فوق الأراضى السورية وساد الظن بأنه لا بد أن تكون هناك فى سوريا محطة رادار بدأ السوفييت فى تشغيلها. وبعثت وزارة الخارجية الإسرائيلية إلى مجلس الوزراء المنعقد مجموعة برقيات تضيف نذرا أخرى، فقد أعلن الأتراك أن طائرات سوفييتية تخترق مجالهم الجوى على ارتفاع عال، وأن الروس طلبوا من الحكومة التركية إذنا بدخول خمس قطع بحرية عبر المضايق التركية للبحر الأبيض.

---

(١) يوميات «ديان» ـ صفحة ١٨٥.

واحتدت المناقشات فى مجلس الوزراء الإسرائيلى وارتفعت الأصوات وتبودلت الاتهامات وأجهش بعض الوزراء فى البكاء واضطر رئيس الدولة «بن زفاى» إلى التوجه عند الفجر إلى اجتماع مجلس الوزراء يطلب سرعة اتخاذ قرار لأن الموقف لا يحتمل الانتظار، وأبلغه «بن جوريون» **أن مجلس الوزراء قرر قبول وقف إطلاق النار وقبول مبدأ الانسحاب من سيناء.**

الفصل الثامن

آخر العمالقة

[١]

عندما كتب الصحفى الأمريكى الكبير «ساى سالزبيرجر» كتابه الشهير «آخر العمالقة» واختار «جمال عبد الناصر» واحدا منهم فى نفس الصف مع «تشرشل» و«روزفلت» و«ستالين» و«أيزنهاور» و«ديجول» و«ماوتسى تونج» و«نهرو» و«تيتو» - بنى اختياره لـ «جمال عبد الناصر» كواحد منهم على أساس إدارته الكاملة لحرب السويس.

وأشار «سالزبيرجر» إلى أن «جمال عبد الناصر» أدار هذه الحرب على المستوى الوطنى والإقليمى والدولى، وعلى المستوى العسكرى والسياسى والنفسى - بكفاءة تستثير الإعجاب فى ظروف شديدة التعقيد وفى مواجهة توازن قوى متشابك وخطير.



ومنذ اللحظة التى تبين فيها «جمال عبد الناصر» أبعاد المسألة مساء يوم ٣٠ أكتوبر، وبعد أن تلقى الإنذار البريطانى الفرنسى - أدرك على الفور أهمية المعركة بالنسبة لمصر وللأمة العربية حاضرا، ومستقبلا، وأنها تحتاج إلى قيادة سليمة فكرا وأعصابا.

ومنذ اللحظة التى بدأ فيها القصف الجوى وبدأت أعصاب بعض القيادات تتوتر وتعالت صيحات تطالب بالقتال إلى آخر طلقة وإلى آخر رجل - كان رأى «جمال عبد الناصر» أن «أخطر المشاعر التى يجب أن نقاومها فى هذه الساعة هو

«الانفعال»». وأضاف أن «الأمة لا تحتاج الآن إلى شهداء قدر حاجتها إلى أبطال، وأن فهمه للتاريخ قد علمه أن الأمم لا تستشهد وإنما يمكن أن يستشهد بعض الأفراد منها. أما الأمة فإن عليها أن تقاتل وأن توفر لنفسها أكبر ضمانات ممكنة لتحقيق النصر ولهذا فإنه لا يريد من حوله عصبية أضاعت قدرتها على التفكير المتزن».

وبهذا المنطق كان قراره بانسحاب الجيش المصرى من سيناء والارتداد إلى غرب القناة حتى تتجمع قوات الجيش المصرى فى أداة ضاربة واحدة. ولم يكن هذا القرار سهلا ولا كان مقبولا من الجميع.

ومن نفس المنطق كان قراره بتوزيع السلاح على المواطنين لأن الجيش يجب أن يشعر أن الشعب معه فى نفس الخندق، وقد جرى بالفعل توزيع مائة وخمسين ألف قطعة سلاح. وكان بعض كبار المسئولين فى وزارة الخارجية يعترضون على ذلك خشية أن يؤدى توافر السلاح فى أيدى بعض المواطنين ـ مع احتمال وقوع حوادث شغب نتيجة لعمليات القصف الجوى المعادى وعمليات الغزو المسلح ـ إلى عواقب يصعب التنبؤ بها. وكان رد «جمال عبد الناصر» أنه «يستبعد تمام حدوث شغب فى هذه الظروف لأن الشعب يغضب ويثور ويحطم إذا أحس أن الحكومة فى ناحية وهو فى ناحية أخرى، وأما إذا أحس الشعب أنه هو والحكومة فى نفس الموقف فإنه يتفاعل معها ولا ينقلب عليها. وأن المسألة مسألة ثقة بالدرجة الأولى».

وفى يوم الجمعة ١ نوفمبر ذهب «جمال عبد الناصر» فى سيارة جيب مكشوفة لأداء صلاة الجمعة فى وسط الناس. وفى صباح ذلك اليوم كانت محطات الإذاعة الرئيسية فى مصر قد ضربت بالقنابل لإسكات صوت مصر وطلب «جمال عبد الناصر» تحويل كل الإذاعات إلى الموجات الإضافية الباقية، وكان أول ما سوف يذاع عليها هو صلاة الجمعة بما فيها خطابه للمصلين بعد انتهاء شعائر الصلاة.

ووقف «جمال عبد الناصر» على منبر الأزهر ليعلن بصوت مشحون «**إننا جميعا سوف نقاتل ولن نستسلم وسوف أقاتل معكم إلى آخر قطرة من دمى وسوف يقاتل كل الشعب الذى أصبح السلاح فى يده جنبا إلى جنب مع الجيش**».

وعندما خرج «جمال عبد الناصر» من الأزهر كانت القاهرة كلها قد تدفقت إلى طريق موكبه فى صيحة واحدة مدوية «حنحارب.. حنحارب» وهى الصيحة التى أصبحت شعار تلك الأيام الوحيد. واستطاعت هذه الصيحة أن تجمع الشعب المصرى على هدف واحد، وأن تكتسح أمامها صدمة المفاجأة التى وجدت مصر نفسها فيها تواجه فى ميدان القتال اثنتين من القوى الكبرى فى العالم ومعهما إسرائيل.

ولكن هذا البحر الهادر من المشاعر الإنسانية لم ينس «جمال عبد الناصر» فى ذلك اليوم أن هناك إجراءات حان وقتها. وهكذا عاد من صلاة الجمعة ليصدر عدة قرارات أولها: «**استرداد كل منابع البترول المصرى من الشركات الإنجليزية التى كانت تحتكره**». وتم الاستيلاء عليها فى نفس اليوم واعتبرها «جمال عبد الناصر» خطوة مكملة لتأميم القناة. وكان بينها أيضا قرار بـ«**فرض الحراسة على كل المصالح البريطانية والفرنسية فى مصر**»، وكانت تشمل البنوك وشركات التأمين وشركات التجارة الخارجية وغيرها. واعتبر «جمال عبد الناصر» أن وضع الحراسة على هذه المصالح هو تدعيم للاستقلال الاقتصادى فى نفس الوقت الذى تخوض فيه مصر معركة حربية لتأكيد الاستقلال الوطنى. وكان بينها أيضا قرار بـ«التحفظ على ممتلكات حوالى ستة آلاف من الأجانب» معظمهم من اليهود الذين لا ينتمون إلى جنسيات معروفة وإن كانوا يحملون جوازات سفر من بعض الدول حصلوا عليها لمجرد ملاءمة الظروف. واعتبر «جمال عبد الناصر» أن هذه تصفية نهائية لما تبقى من عصر الامتيازات الأجنبية، وكان ذلك صحيحا إلى أبعد حد فإن ثروات طائلة تجمعت فى يد هذه الفئات من الأجانب فى عصر الامتيازات الأجنبية. وبعد إلغاء الامتيازات سنة ١٩٣٧ اختفت النصوص الشكلية التى أعطت الحصانة لهؤلاء، لكن الثروات التى حصلوا عليها ظلت فى أيديهم.

ومساء ذلك اليوم طلب «جمال عبد الناصر» إعداد حقيبة له وذهب إلى مقر مجلس قيادة الثورة فى «الجزيرة» ليعمل ويعيش فيه، وكانت وجهة نظره أن جميع المحاربين الآن بعيدون عن أسرهم وهو واحد منهم، ومن ناحية أخرى فلم يكن يريد

أن يكون فى هذه اللحظات مع زوجة وأبناء، وأن تتأثر قراراته ولو من بعيد بأية مشاعر قرب عائلى بما يحمله من عواطف أو انفعالات.



ولقد فضل «جمال عبد الناصر» أن تخوض مصر المعركة العسكرية وحدها لأنها لا تستطيع أن تتحمل مسئولية ما يمكن أن يجرى على أراض عربية أخرى قد لا يستطيع أن ينجدها بقوات مصرية فى الوقت المناسب. وكان تفضيله أن تقف الأمة كلها مع الشعب المصرى بمشاعرها وبما تستطيع عمله دون القتال المسلح.

ومن هذا المنطق كان رده على السيد «شكرى القوتلى» رئيس جمهورية سوريا بأنه «لا يريد شيئا من سوريا الآن سوى تأييدها السياسى، وأنه من الأفضل أن يمضى الرئيس «القوتلى» فى برنامجه المقرر لزيارة الاتحاد السوفيتى».

وحين اتصل به الملك «حسين» تليفونيا من عمان متحمسا بمشاعره وعواطفه ليسأله عما يطلبه من الأردن وجيشه فى هذه الظروف؟ كانت نصيحة الرئيس «جمال عبد الناصر» إليه على التليفون «إننى أرجوكم ألا تطلقوا طلقة رصاص واحدة على الخطوط الإسرائيلية. ومصر لا تريد الآن من الأردن إلا أن يحافظ على نفسه». وكان «جمال عبد الناصر» على علم بتربص إسرائيل بالضفة الغربية للأردن أو أجزاء منها وكان مصمما على حرمانها من أية فرصة فى هذه الظروف وعدم إعطائها أية ذريعة لتحقيق مطامعها.

ولم يقم «جمال عبد الناصر» بأى تحريض على تعطيل خط أنابيب البترول الذى يمر بسوريا، رغم أنه يعرف أهميته الحيوية فى المعركة.

وأكثر من ذلك ففى أول نوفمبر تلقى مدير مكتبه السيد «على صبرى» رسالة من «كيرميت روزفلت» يقول فيها «إن حكومة الولايات المتحدة بما فيها الرئيس تتمنى أن تبذل مصر أقصى مساعيها لإقناع السوريين بالمحافظة على خطوط الأنابيب ومحطات الضخ الثلاث الواقعة فى الأرض السورية، وأن أى تعرض لها يمكن أن تترتب عليه مشاكل كبيرة تؤثر على الغرب كله».

وعرضت رسالة روزفلت على «جمال عبد الناصر» بالطبع وكان قراره إخطار «عبد الحميد السراج» برسالة «كيرميت روزفلت» دون التعليق عليها بالموافقة أو بالرفض. فقد كان حريصا على أن يعرف السوريون حقيقة الموقف، وأن يتصرفوا وفق هذه المعرفة. وعندما قام «عبد الحميد السراج» بنسف محطات الضخ وخطوط الأنابيب كان «جمال عبد الناصر» سعيدا وبعث لـ «السراج» رسالة من كلمتين: «**سلمت يداك**».



وفى اجتماع عقده «جمال عبد الناصر» مع الدكتور «محمود فوزى» قبل سفره إلى نيويورك لحضور اجتماعات الأمم المتحدة التى تناقش العدوان على مصر - حدد «جمال عبد الناصر» موقف مصر من مختلف القوى الدولية على النحو التالى(١):

«١ - إن **فرنسا** لا أمل فيها وليس هناك ما نحرص عليه فى علاقاتنا معها فى الوقت الراهن، ومن المناسب تركها لإسرائيل تورطها إلى آخر الشوط وتحرج مركزها - وللثورة الجزائرية من ناحية أخرى تستنزف قواها وترهقها».

(تلقت الثورة الجزائرية أكبر شحنة من السلاح من مصر أثناء احتدام المعارك على جبهة قناة السويس).

«٢ - إن **بريطانيا** قضية تختلف عن قضية فرنسا، فبريطانيا الآن منقسمة على نفسها لأن نصف شعبها على الأقل يقف ضد العدوان فى عاصمته ويتظاهر ضده ويضغط على حكومته وعلى رئيسها بشكل مؤثر وفعال وهذا عنصر ملىء بالاحتمالات التى يمكن الاستفادة منها».

وهكذا فتح «جمال عبد الناصر» قناة اتصال مباشر مع عدد من زعماء حزب العمال الذى تعرف عليهم وبينهم «أنيورين بيفان» نائب رئيس الحزب و«جورج

(١) محضر اجتماع عقده الرئيس «جمال عبد الناصر» فى مجلس قيادة الثورة بالجزيرة لوضع خطوط عمل الوفد المصرى فى نيويورك.

براون» الذى أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية واللورد «شنويل» الذى كان وزيرا للدفاع (رغم أنه من أصل يهودى).

وكان من أغرب الرسائل التى تلقاها «شنويل» من «جمال عبد الناصر» فى ذلك الوقت رسالة يسأل فيها الرئيس المصرى - وزير الحرب البريطانى السابق سؤالا لم يخطر لأحد على بال وهو «إننى أريد أن أستشيرك فى الطريقة التى نعامل بها الجنود أو الضباط البريطانيين الأسرى فى يد قواتنا؟ فنحن لا نستطيع أن نعتبرهم أسرى حرب بمقتضى اتفاقيات «برن» لسبب واضح، وهو أن الهجوم البريطانى على أراضينا جاء دون إعلان رسمى للحرب، فإذا عاملناهم كمجرمين أو مخربين تسللوا إلى أراضينا فسوف يكون الحكم عليهم بالإعدام؟» وحمل «شنويل» هذا السؤال إلى مجلس العموم وفجره فى الجلسة كقنبلة وثارت ثائرة المجلس وبدأت صيحات الأعضاء تصرخ فى وجه «إيدن»: «مجرم.. مجرم.. استقل.. استقل». ولم تهدأ الضجة إلى درجة أن «إيدن» ووزراءه اضطروا إلى مغادرة قاعة المجلس.

ولم يرض «جمال عبد الناصر» من جانبه بإعلان الحرب على بريطانيا، واكتفى بقطع العلاقات معها ومع فرنسا. وكانت وجهة نظره أنه إذا أعلن الحرب من ناحيته فسوف يكون مضطرا بعد عودة قناة السويس إلى حياتها الطبيعية أن يمنع بواخر بريطانيا وفرنسا من المرور فى قناة السويس كما هو الحال مع إسرائيل استنادا إلى حالة الحرب، وكان فى قرارة نفسه يدرك - رغم كل الظروف - أن تطبيق هذا الحظر على إسرائيل شىء - وتطبيقه على بريطانيا وفرنسا شىء آخر وإلا فإنه يكون قد عقد المسائل لنفسه بأكثر مما هو ضرورى.

وكان طبيعيا أن يتم التحفظ على الرعايا البريطانيين الذين لم يتيسر ترحيلهم من القاهرة خصوصا هؤلاء الذين فرضت عليهم الظروف أن يظلوا فى مصر حتى آخر لحظة كالصحفيين ومراسلى وكالات الأنباء. وتقرر التحفظ عليهم جميعا فى فندق «سميراميس» وأرسل إليهم «جمال عبد الناصر» - مدير الاستعلامات فى وزارة الإرشاد القومى البكباشى «عبد القادر حاتم» ليخطرهم بأنهم ضيوف على

مصر حتى تنتهى الأزمة وليسوا سجناء فيها، والدليل على ذلك أن أكبر فنادق القاهرة قد خصص لهم.

وعندما قامت مدافع الأسطول البريطانى بدك مدينة بورسعيد وتمكن المصور السويدى «أندرسون» من التقاط فيلم سينمائى ومجموعة من الصور المؤثرة للدمار الذى حل بالمدينة ـ كان «جمال عبد الناصر» حريصا على أن يصل الفيلم السينمائى ومجموعة الصور المكملة له إلى لندن بأسرع ما يمكن، وسلمت هذه الشحنة كلها إلى «جورج براون» الذى طلب فى نفس اليوم من رئيس مجلس العموم تخصيص قاعة فى المجلس يقوم فيها بعرض فيلم وصور تلقاها عما حدث لمدينة بورسعيد. وفى العرض الأول للفيلم وللصور كان فى القاعة تسعون عضوا من أعضاء مجلس العموم».

«٣ ـ إن موقف **الولايات المتحدة الأمريكية** هو أكثر المواقف حساسية فى العملية بأسرها، وهو يقتضى مرونة وسرعة فى الحركة بغير حدود. فالولايات المتحدة مختلفة مع حلفائها فى الوسائل، وقد تكون متفقة معهم فى الهدف. لكننا الآن نواجه ما هو واقع ولا نشغل أنفسنا بما هو محتمل.

وهكذا كتب «جمال عبد الناصر» إلى «أيزنهاور» يطلب تأييده. وهكذا أيضا أجرى «جمال عبد الناصر» فى وسط ظروف المعركة ستة لقاءات تليفزيونية مع المحطات الكبرى فى الولايات المتحدة كان من بينها لقاء مع «إدوارد مورو» المعلق التليفزيونى الذائع الصيت. ثم إنه كان حريصا على استقبال السفير الأمريكى عدة مرات أثناء ساعات الذروة فى المعركة.

وحدثت واقعة طريفة فى يوم ٣١ أكتوبر، وفى الوقت الذى كانت فيه القنابل البريطانية تسقط على القاهرة. فقد اتصل بى السفير الأمريكى «ريموند هير» يطرح علىّ مشكلة تواجهه تتلخص فى أن البروفيسور «كريسويل» أكبر علماء الآثار الإسلامية فى العالم. وهو بريطانى يعيش فى مصر، وجد مكتبته ومجموعة ملفاته كلها توضع تحت الحراسة كما هو الحال بالنسبة لكل الرعايا البريطانيين. ولكن

«كريسويل» ـ شأنه شأن كل عالم حريص على جهد عمره ـ اقترح حلا آخر وهو أن يهدى كتبه وملفاته للجامعة الأمريكية فى القاهرة لكى ينقذها من مشاكل الضياع والزحام فى ظروف الحراسة. وقد حاول هو ـ «ريموند هير» ـ أن يقنع الدكتور «عبد المنعم القيسونى» ـ وزير المالية والمشرف على تطبيق إجراءات الحراسة ـ بهذا الحل، ولكن الدكتور «القيسونى» أبلغه بأنه «لا يستطيع أن يتصرف فى هذه المسألة وحده. ثم إنه لا يستطيع فى هذا المناخ السائد أن يحصل على إذن بهذا الاستثناء للبروفيسور «كريسويل».

وقال لى السفير الأمريكى: «إننى فى شدة الخجل وأنا أرجوك أن تنتهز فرصة لعرض هذه المسألة على الرئيس، والحقيقة أننى أطلبها لأنى أعرف أنها صيانة لأحسن الدراسات عن آثار مصر الإسلامية».

وقد فوجئ السفير الأمريكى وكذلك البروفيسور «كريسويل»، حينما أبلغت الاثنين بموافقة الرئيس على الطلب، وكانت الدموع فى عينى البروفيسور «كريسويل» وهو يقول لى «إن هذا القرار يعبر عن احترام للقيم الحضارية. ومن سوء الحظ أن بلدى لا يتصرف الآن بطريقة حضارية لكن رئيس مصر أكد بقراره وفى هذا التوقيت أن روح الحضارة ما زالت حية فى مصر». وقال لى السفير الأمريكى «إنه بعث خطابا خاصا إلى «دالاس» عن الواقعة وتفاصيلها».

«٤ ـ إذا كان موقف الولايات المتحدة هو أكثر المواقف حساسية ـ فإن موقف الاتحاد السوفيتى هو أهم المواقف خصوصا بعد الإنذار السوفيتى الذى أحدث أثرا هائلا فى الأزمة، ثم إنه فتح الطريق أمام «جمال عبد الناصر» لكى يبعث إلى «خروشوف» يشكره ويطلب فى نفس الوقت فتح الباب أمام صفقة سلاح جديدة تعوض خسائر مصر فى المعارك. ولقد كانت العلاقات مع الاتحاد السوفيتى تقتضى إدارة واعية تعطيه حقه، وفى نفس الوقت تحافظ على استقلالية القرار المصرى. وقد وضعت هذه المسألة للاختبار العملى حينما عرض على الجمعية العامة للأمم المتحدة موضوع تدخل الاتحاد السوفيتى بالقوة فى البحر ـ وقد توافق فى التوقيت مع أزمة السويس ـ وطلب السفير السوفيتى فى الأمم المتحدة من الوفد

المصرى تأييد الاتحاد السوفيتى عند التصويت على مشروع قرار يدين تدخلها. وتشاور الدكتور «فوزى» مع الرئيس «جمال عبد الناصر» الذى قرر «أن تمتنع مصر عن التصويت ففى ظروف عادية كان يتحتم عليها تأييد مشروع قرار الإدانة ومجاملة للاتحاد السوفيتى فإنها تمتنع عن التصويت وهذا قصارى ما تستطيع الوصول إليه وإلا فإنها تتخلى عن مبادئها تحت ضغوط الظروف» - وللحق فإن الاتحاد السوفيتى تفهم هذا الموقف.

«٥ - إن الأمم المتحدة سوف تكون واحدة من أهم ساحات الصراع على فكر العالم وضميره. وعندما سمع «جمال عبد الناصر» أن «داج همرشولد» السكرتير العام للأمم المتحدة فاجأ مجلس الأمن بطرح استقالته من منصبه لأن اثنتين من الأعضاء الدائمين فى مجلس الأمن خرقتا الميثاق بالعدوان على مصر، كما خرقتا البيان الثلاثى - وهما الأغلبية فيه - بالتحالف مع إسرائيل - سارع «جمال عبد الناصر» بإرسال برقية إلى السكرتير العام للأمم المتحدة يرجوه العدول عن استقالته لأن مستقبل «العدل الدولى كله فى الميزان ولا بد أن يقف أصحاب المبادئ وقفة صلبة وحتى النهاية دفاعا عن قيمه». ومع أن استقالة «همرشولد» كان يمكن أن تكون إحراجا لا يحتمل بالنسبة لبريطانيا وفرنسا - فإن بقاء «همرشولد» كان ضروريا لاستمرار المعركة على فكر العالم وضميره».

[٢]

مع نهاية الأسبوع الأول من نوفمبر ١٩٥٦ ساد وقف إطلاق النار على جبهات القتال وفقا لقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة. ووفقا لنفس القرارات، فقد تقرر أن تجيء إلى مصر قوة طوارئ دولية تابعة للأمم المتحدة لكى تتولى الإشراف على وقف إطلاق النار ومراقبة عملية انسحاب قوات العدوان، ثم للمرابطة على خطوط الهدنة لمنع تجدد الاشتباكات بين مصر وإسرائيل.

ووافق «جمال عبد الناصر» على فكرة قوات الطوارئ التى اقترحها «ليستر

بيرسون» وزير خارجية كندا عارفا منذ اللحظة الأولى أنه سوف يخوض معركة عنيفة[1] حتى تظل فكرة قوات الطوارئ فى إطارها لا تخرج عنه. وكذلك وافق على خطة الأمم المتحدة لتطهير قناة السويس بمعونة الأمم المتحدة وإعادتها للملاحة مرة أخرى، وكان يدرك منذ اللحظة الأولى أيضا أن هذه معركة أخرى وإلا تحول تطهير القناة بمعونة دولية إلى مقدمة لإدارتها دوليا.



وكانت اللهفة على تطهير القناة أكبر، وبالتالى جاءت معركتها أسرع. واقترح «همرشولد» السكرتير العام للأمم المتحدة أن يشرف الجنرال «هويلر» الذى أصبح مساعدا فنيا للأمين العام - على عملية التطهير. وكان «جمال عبد الناصر» قد عرف من التقارير التى قرأها أن الجنرال «هويلر» نائب سابق لقائد سلاح المهندسين فى الجيش الأمريكى، ولذلك فقد أحس أن الولايات المتحدة الأمريكية وراء اقتراح «همرشولد» بتعيينه مسئولا عن عملية تطهير القناة.

وتم إبلاغ «همرشولد» أن مصر توافق على اقتراح تعيين الجنرال «هويلر» ولكنها تطلب كشفا بأسماء جميع معاونيه للموافقة عليهم قبل أن توفدهم الأمم المتحدة إلى مصر. وحاول «هويلر» أن يقنع «همرشولد» أن هذا تدخل مصرى فى عملية التطهير وأن حقه فى اختيار مساعديه الذين يعتقد بكفاءتهم لا ينبغى أن يعلوه اعتبار آخر. وقام الدكتور «محمود فوزى» بإبلاغ «همرشولد» باعتراض مصر فالتطهير يجرى فى مرفق تملكه مصر ويقع فى أراضيها وأية مخالفة لذلك تعتبر خرقا لسيادتها لا تقبله. واضطر «هويلر» أن يعرض أسماء مساعديه وأن يكتب كشفا لـ «همرشولد» بأسمائهم.

وفى اليوم التالى تلقى «همرشولد» رسالة اعتراض من مصر على نائب الجنرال «هويلر» وكان مهندسا أمريكيا بارزا أيضا وهو المستر «جاك كونورز» - وكان

---

(١) نصوص مجموعة من البرقيات المتبادلة بين القاهرة والوفد المصرى فى نيويورك منشورة فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت أرقام (١٨٣ - ومن ١٨٥ إلى ١٩٩ - ومن ٢٠١ إلى ٢٢٥).

اعتراض مصر عليه يستند إلى معلومات تلقتها بأن «كونورن» سبق له العمل فى إسرائيل.

ثم جاءت الأزمة الثانية مع «هويلر» فقد وقف «إيدن» فى مجلس العموم فى محاولة لتغطية مهانة الانسحاب وقال «إن بعض قطع الأسطول الملكى البريطانى سوف تشترك فى عملية التطهير وإن ممثل الأمم المتحدة المسئول عن العملية وافق على الفكرة». وطلب الدكتور «فوزى» من «همرشولد» إيضاحا وكان الإيضاح الذى تلقاه الدكتور «فوزى» هو أن «ما قاله» «إيدن» مبالغ فيه والحقيقة بشأنه هى أن البحرية البريطانية حملت معها إلى بورسعيد معدات المهندسين بما فيها الكراكات وأن الجنرال «هويلر» وجد أن هذه الكراكات موجودة قرب مواقع العمل فى التطهير فعلا، وأنه لا بأس من استعارتها ورفع علم الأمم المتحدة فوقها واستعمالها فى عملية التطهير بدلا من المجيء بمعدات جديدة من مواقع بعيدة». وأبلغ «همرشولد» فى نفس اليوم بأن «مصر لا تقبل مثل هذا الترتيب لأن من شأنه أن يحدث لبسا وتداخلا بين قوات الغزو وملحقاتها وبين عمل جهاز الأمم المتحدة». وعندما حاول الجنرال «هويلر» أن يتهرب بدواعى السرعة واحتياج العالم الملهوف إلى قناة السويس أبلغ بأن «النار سوف تطلق على أية معدات بريطانية أو فرنسية تقترب من مواقع التطهير، وأنه يجب عليه العدول عن فكرته من أساسها حفاظا على سلامة مهندسيه».



وجرب الجنرال «هويلر» أن يؤكد حريته فى العمل بغير رقيب عليه إلا توجيهات الأمم المتحدة. وأخطر «همرشولد» بأن مهمة الجنرال «هويلر» يجب أن تتم بالتنسيق مع «محمود يونس» مدير هيئة قناة السويس ونائب رئيس مجلس إدارتها والمسئول عن الملاحة فيها. وشكا «همرشولد» للدكتور «فوزى» من تشكك مصر فى الجنرال «هويلر» فأكد له الدكتور «فوزى» باسم الرئيس «جمال عبد الناصر» أن «الحكومة المصرية لا تشكك فى نوايا الجنرال «هويلر» وإلا لاعترضت عليه. ثم إنها تعتبر أن عملية تطهير القناة لا يمكن أن تتم بمعزل عن الإدارة المصرية لهيئة قناة السويس

لأن جهاز التطهير التابع للأمم المتحدة سوف يكون عليه أن يسلم نتائج عمله فى النهاية لهيئة قناة السويس المصرية وليس لغيرها، فإذا لم تكن شريكة معه فى كل خطوة فإن المواصفات الفنية المطلوبة لسلامة الملاحة فى القناة قد تتأثر، فالهيئة المصرية وليس غيرها هى التى تعرف احتياجات القناة».

ولم يكن أمام الجنرال «هويلر» غير القبول.



وبعد أيام ذهب «محمود يونس» إلى مقابلة الجنرال «هويلر» وأبلغه أنه تلقى من القاهرة تعليمات بأن يتوافق الجدول الزمنى لتطهير القناة مع الجدول الزمنى لانسحاب القوات البريطانية والفرنسية من بورسعيد. واحتج الجنرال «هويلر» بـ «أنه مكلف من الأمم المتحدة بمهمة فنية لا علاقة لها بالسياسة». وأبلغه «محمود يونس» بأن «القاهرة لسوء الحظ لا توافقه على هذا الرأى، بل هى مقتنعة بالربط بين العمليتين، فالعدوان هو الذى تسبب فى تعطيل القناة ولا يمكن أن تصبح القناة مستعدة للملاحة والعدوان لا يزال قائما». ثم أضاف «محمود يونس» أن القاهرة ترى «أنه طالما بقيت قوات العدوان فى بورسعيد فإن احتمال تجدد القتال وارد وليس معقولا أن نقوم اليوم بإصلاح شىء ثم نجده غدا يتهدم أمام عيوننا». وقال الجنرال «هويلر» لـ «محمود يونس» إنه مضطر لإبلاغ «همرشولد» بما سمعه منه الآن. ورد «محمود يونس» بأن «السكرتير العام للأمم المتحدة يعرف الآن فعلا بما أبلغه به فقد نقله إليه الدكتور «فوزى» وزير الخارجية».

[٣]

كانت المشاكل تتراكم بين السلطات المصرية وبين جهاز الأمم المتحدة لتطهير قناة السويس. وقرر السكرتير العام للأمم المتحدة «داج همرشولد» أن يطير بنفسه إلى القاهرة، وأن يلتقى بالرئيس «جمال عبد الناصر» بنفسه وخصوصا أنه كان يريد أن يصاحب أول مجموعة من قوات الأمم المتحدة تصل إلى الشرق الأوسط.

ولقد أراد «همرشولد» أيضا أن يحل بعض المشاكل التى ثارت فى الأيام الأخيرة عن مهمة قوات الطوارئ فعلى هذه الجبهة أيضا تراكمت مشاكل كثيرة.

وقد وافقت مصر على ترشيح «همرشولد» للجنرال «بيرنز» الكندى (كان من قبل كبيرا لمراقبى الهدنة) - ليكون قائدا لقوات الطوارئ. وأثناء مشاورات تشكيل القوة وضعت مصر إطارا تراه مناسبا لعملها.

كان الإطار الذى وضعته مصر أن تبدأ قوات الطوارئ بالإشراف على جلاء القوات البريطانية والفرنسية من بورسعيد فإذا ما أنهت هذه المهمة وتسلمت مواقع قوات الاحتلال تحتم عليها أن تسلمها للقوات المصرية فى ظرف ٢٤ ساعة.

وبعد إتمام الانسحاب البريطانى - الفرنسى وتسليم بورسعيد للقوات المصرية يكون على قوات الطوارئ أن تتحول إلى جبهة سيناء وتحدد جدولا زمنيا لخطوات الانسحاب، ويطبق هذا الجدول خطوة بعد خطوة طبقا لما سبق اتباعه فى بورسعيد.

ولم يكن الجنرال «بيرنز» مقتنعا بهذا الإطار فقد رأى أنه لا يعطيه المرونة الكافية كما أن قصر المدة بين خروج ودخول قوات أخرى قد يتسبب فى مشاكل يمكن أن تصبح ساخنة. وأصرت مصر على موقفها.

ووضع «همرشولد» بالتنسيق مع «بيرنز» قائمة بالدول التى يمكن أن تدعى للاشتراك بكتائب من جيوشها فى قوات الطوارئ الدولية: وأصرت مصر على أن تكون الهند ويوجوسلافيا وسيلان ضمن الدول المقترحة.

وللمرة الثانية وقع «إيدن» فى نفس الخطأ فقد أعلن فى مجلس العموم أن كندا سوف تشترك فى قوات الطوارئ ومعنى ذلك أن «قوات صاحبة الجلالة الملكة» وبزيها الرسمى سوف تظل موجودة فى المنطقة. ويبدو أن «همرشولد» والجنرال «بيرنز» كانا على استعداد لقبول اشتراك كندا، ورغبة فى سرعة تجميع القوة اتصل الجنرال «بيرنز» بوزير الدفاع الكندى طالبا منه ستمائة جندى على عجل يتوجهون إلى مصر. ووصل الجنود الكنديون بالفعل قادمين من «نابولى» - فى إيطاليا - وفوجئت السلطات المصرية بوصولهم وجرى استيضاح الموضوع مع «همرشولد» فأجاب بما حدث

وأبلغه الدكتور «محمود فوزى» أن «مصر تعترض على وصول الكنديين مبدئيا وعمليا: مبدئيا بالنظر إلى ما قاله «إيدن» فى مجلس العموم، وعمليا لأن ملابس الجنود الكنديين هى نفسها ملابس الجنود البريطانيين وهذا قد يحدث التباسا لدى القوات المصرية فتطلق النار على الكنديين بظن أنهم من الإنجليز». وصدر الأمر إلى قائد حاملة الجنود التى وصلت إلى الإسكندرية بالكنديين بأن تغادر الميناء بهم وأن تخرج من المياه الإقليمية المصرية. وأطاع قائدها ولم يكن أمامه غير ذلك. لكن الجنرال «بيرنز» اعتبر القرار المصرى إهانة له وزاد إحساسه بالإهانة حينما اعترضت مصر على اشتراك باكستان بكتيبة فى قوات الطوارئ تحت مبدأ «أنها ترفض اشتراك أى دولة من دول حلف الأطلنطى ودول حلف بغداد فى تشكيل قوات الطوارئ الدولية».

وهكذا وجد «همرشولد» نفسه على الطريق إلى مصر فقد كان عليه أن يناقش هذه التراكمات كلها مع الرئيس «جمال عبد الناصر».

وبدأ «همرشولد» بموضوع كندا فقال للرئيس «إنه هو أيضا تأثر للمعاملة التى عوملت بها القوات الكندية وإنه يعتبر نفسه المسئول عن هذا اللبس الذى حدث بشأنها فلم يخطر له أن الرئيس «جمال عبد الناصر» سوف يعترض على اشتراك كندا باعتبار أن «ليستر بيرسون» وزير خارجية كندا هو صاحب الاقتراح الذى وافقت عليه الجمعية العامة بإنشاء قوات طوارئ تابعة للأمم المتحدة وأن إنشاء هذه القوات يعتبر مبدأ فى احتواء النزاعات الدولية ولا يعقل أن نقبل الفكرة ونرفض اشتراك أصحابها فى تنفيذها».

وابتسم «جمال عبد الناصر» وقال لـ «همرشولد» إنه «يتفهم وجهة نظره ولكنه يرجو من ناحية أخرى أن يتفهم «همرشولد» دواعى تصرفه». ثم أضاف «أنه سوف يراجع قراره ويقبل اشتراك كندا فى قوات الطوارئ على شرط أن يتم ذلك بعد إتمام انسحاب الجنود البريطانيين من بورسعيد حتى لا يحدث لبس بين زيهم وزى الجنود البريطانيين».



وقضى «همرشولد» يوما مع قوات الطوارئ والتقى مع الجنرال «هويلر» المشرف على عملية تطهير قناة السويس، ثم عاد إلى مقابلة ثانية مع الرئيس «جمال عبد الناصر» قبل مغادرته القاهرة عائدا إلى نيويورك.

وفى هذه المقابلة الثانية فتح «همرشولد» مع الرئيس «جمال عبد الناصر» موضوع المقاومة الشعبية فى بورسعيد ضد القوات البريطانية والفرنسية وقال «همرشولد» إن «الجنرال» «ستوكويل» - قائد الغزو - قدم للجنرال «بيرنز» معلومات مفصلة تفيد بأن ضباطا من الجيش المصرى هم الذين يتولون تدريب المقاتلين كما أن هناك خطا منظما لتزويدهم بالسلاح فتح لهذا الغرض عن طريق بحيرة «المنزلة». بل إن معلومات المخابرات العسكرية البريطانية تفيد بأن عددا من ضباط الصاعقة المصريين تسللوا فعلا إلى المدينة وهم يتولون تنظيم المقاومة من داخلها. ثم قدم «همرشولد» للرئيس كشفا بعمليات عسكرية وقعت فى بورسعيد ضد القوات البريطانية والفرنسية راح ضحيتها أكثر من عشرين ضابطا وجنديا، كما قدم قائمة بأسماء وجنود جرى خطفهم. وأضاف «همرشولد» إلى ذلك كله تخوفه من أن تؤدى هذه العمليات إلى تعطيل الانسحاب».

وأوضح له الرئيس «جمال عبد الناصر» أن «الجيش المصرى ملتزم بوقف إطلاق النار ولكن الشعب الذى يعيش تحت الاحتلال يستحيل إلزامه بقرار وقف إطلاق النار طالما هو يرى أعداءه أمامه ويشعر بمهانة تصرفاتهم التعسفية كل يوم».

وفى نهاية حديث طويل قال «همرشولد» أن «انسحاب الانجليز والفرنسيين رغم عنادهم سوف يكون مسألة بالغة السهولة إذا ما قيس بموقف إسرائيل. فهو يعلم أنها لن تنسحب إلا بعد أن تقيم الدنيا وتقعدها. ثم إنه يعرف أيضا أن إسرائيل تركز كل وسائل الضغط المتاحة لها الآن على الرئيس «أيزنهاور».

ثم قال «همرشولد» للرئيس «عبد الناصر» إنه «يفهم أن مصر لا تزال ملتزمة بالنقاط الست التى أقرها مجلس الأمن عندما طرح عليه موضوع تأميم قناة

السويس وهو يريد أن يتأكد من استمرار التزام مصر بهذه النقاط لأنه يعرف أن هذه القضية سوف تطرح نفسها فى الأسابيع القليلة القادمة».

ورد «جمال عبد الناصر» بأنه «لا يستطيع أن يعطى مثل هذا التأكيد بينما هناك جنود أجانب على الأراضى المصرية». ولم ير «همرشولد» فيما يبدو أن الوقت مناسب لفتح الموضوع بتفاصيله وأشار إلى أنه «سوف يكون على اتصال بالدكتور «محمود فوزى» فى الأمم المتحدة وسوف يناقش معه أولا بأول ما يعن له من أفكار».

وحينما نهض «همرشولد» للانصراف قال للرئيس «إنه يعتقد أنه سوف يعود للاجتماع به قريبا فهو يعتزم قضاء عيد الميلاد مع قوات الطوارئ». ثم أضاف «ووقتها نناقش معا مشكلة قناة السويس بما فى ذلك فتحها للملاحة أمام إسرائيل باعتبار أن ذلك حقها كعضو بالأمم المتحدة. ولعلنا أيضا فى ذلك الوقت نستطيع أن نناقش تصوراتكم لمستقبل قطاع غزة».

وخرج «همرشولد» ـ وكانت أجراس الإنذار كلها تدق فى تفكير «جمال عبد الناصر».

الفصل التاسع

الحياة فى كابوس

[١]

صباح يوم ٩ نوفمبر ١٩٥٦ دعا «أيزنهاور» - الذى أعيد انتخابه قبلها بيومين رئيسا للولايات المتحدة لأربع سنوات جديدة - مجلس الأمن القومى الأمريكى إلى الاجتماع فى البيت الأبيض «لبحث آخر التطورات فى الشرق الأوسط».

وعندما التأم شمل المجلس «أيزنهاور» قاعة الاجتماع فوقف الكل وصفقوا له حفاوة وتهنئة. وما كان يتخذ مقعده حتى أفصح عن الهدف الأساسى للاجتماع فقال على الفور «والآن أيها السادة علينا أن نلم القطع والشظايا المتبقية من الشرق الأوسط»(١).

(We have to pick up the bits & pieces in the Meddle East)

وكانت هذه العبارة هى خير تعبير عن رؤيته للموقف فقد بدا الشرق الأوسط أمامه قطعًا وأجزاء مكسورة ومتناثرة وليس هناك من يستطيع أن يجمع هذا كله ويعيد ترتيبه كما يشاء غيره هو وغير الولايات المتحدة الأمريكية.

كان باديا له أن بريطانيا وفرنسا كلتيهما قد فقدا ما كان باقيا لهما فى الشرق الأوسط تماما، لم يبق وجود ولم يبق نفوذ ولم يبق بترول. وفيما يتعلق ببريطانيا فإنها لن تعود قادرة فى مستقبل الأيام على تعويض ما ضاع منها عندما انكشف تواطؤها مع إسرائيل، وحتى إذا غفر لها أصدقاؤها من الحكام العرب التقليديين فإن شعوبهم لن تسمح لهم بأى نوع من أنواع التعبير عن الصفح أو النسيان.

---

(١) تفاصيل اجتماع المجلس عن مذكرات «أيزنهاور» ويوميات مساعده الجنرال «جود باستير».

وكان تقديره أن الاتحاد السوفيتى لم يكسب كثيرًا من الأزمة، وصحيح أن الإنذار الذى وجهه إلى المعتدين قد رفع هيبته ولكنه - أى «أيزنهاور» تصرف على نحو ترك الأطراف جميعا تحت انطباع أن الولايات المتحدة هى التى وجهت الضربة القاضية إلى مخطط العدوان. وكان «أيزنهاور» قد تحرك بسرعة بعد أن جاء الإنذار السوفيتى بمفعوله المقصود. فقد قبل تلقى مكالمة تليفونية من «إيدن» حتى يطمئنه إلى أنه الآن وبعد قبول بريطانيا وفرنسا وإسرائيل لوقف إطلاق النار - سوف يقف إلى جانبه وإلى جانبهم ولن يتركهم لعملية الابتزاز السوفيتى السافر. وقال لـ «إيدن» على التليفون «إن هؤلاء الأولاد الحمر (The red boys) فى الكرملين يظنون أن أمامهم فرصة لكسر حلف الأطلنطى، ويجب أن نثبت لهم أنه سوء تفاهم بين حلفاء، وأنه قد انتهى وعدنا إلى العمل سويا». وحين بدأ «إيدن» يسأل «ما إذا كان «أيزنهاور» قرر شيئا فى موضوع إمداد بريطانيا بالبترول؟» - رد عليه «أيزنهاور» بقوله «إنه شخصيا موافق ولكن «همفرى» (وزير التجارة) متردد وسوف أتولى إقناعه ولك أن تطمئن».

ثم سارع «أيزنهاور» إلى توجيه «هوفر» وكيل وزارة الخارجية الأمريكية إلى إصدار تصريح يقول فيه «إن الولايات المتحدة سوف تقاوم بالقوة أية محاولة لنقل قوات سوفييتية فى الشرق الأوسط». وبعد ساعات قليلة من صدور هذا التصريح أعلنت حالة الطوارئ فى البيت الأبيض لأن معلومات وردت من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تشير إلى أن الاتحاد السوفيتى قام بتجهيز ربع مليون متطوع لنقلهم إلى الشرق الأوسط. ثم جرى إنهاء حالة الطوارئ بعد أن أكدت معلومات لاحقة عدم صحة النبأ. وكان «أيزنهاور» يستعد لاستقبال السير «هارولد كاشيا» الذى تلقى تعليمات من «إيدن» بنقل طلبات بريطانيا التفصيلية إلى الرئيس الذى رضى بتسلمها شخصيا ليطمئن «حليفه» المنهار فى لندن. وفى هذا اللقاء مع السفير البريطانى عاد «أيزنهاور» إلى موضوعه المفضل فقال لـ «كاشيا» إن أنتونى أرغمنى على أن أقف ضده فى محنته فهو لم يفهم نظريتى فى مواجهة بؤر المتاعب فى الدول الصغيرة. إن هذه الدول الصغيرة فى حد ذاتها بلا قوة ولكنها تستطيع أن

تقيم الدنيا وتقعدها إذا اقترب الكبار بالقوة. الحل الوحيد أن تحاصرها وأن تخنقها ببطء، وأن تصفى زعماءها لأنك إذا صفيت هؤلاء الزعماء لا يتبقى شىء. إننى لست صاحب هذه النظرية فى تصفية الزعماء وأول من سمعتها منه هو (الماريشال) جوكوف أيام الحرب وقد سمعتها منه عدة مرات وما زال صوته فى أذنى وهو يقولها: «تخلص من الزعماء مثيرى القلاقل والباقى سهل». لقد كان رأيى دائما أن محاربة «ناصر» خطأ. إذا حاربته بالقوة أضفت إلى قوته. والحل الوحيد هو استنزافه وحصاره وعزله عن العالم العربى وخصوصا «سعود» وسوريا وسوف نستيقظ ذات صباح لنجده واقعًا فى مكانه. أما الحرب فخطأ».

وكان «أيزنهاور» - طبقا لنصوص ما كتب فى يومياته - مقتنعا بأن «جمال عبد الناصر» قد «انتهى أو هو قرب النهاية. فالحرب ضده هزت أعصابه. ثم إنه لا يعرف حتى الآن نوع المشاكل التى تنتظره، وحين يبدأ فى جرد كشوف حساباته فسوف يرى أن موارده لن تكفيه. إنه الآن يتحرك تحت الوهج الباقى من الأزمة ويلعب دور البطل، ولكن هذه محاولة قصيرة العمر، فعليه أن يدفع فواتير كثيرة تنتظره. ويبقى أن نجاحنا سوف يتأكد إذا استطعنا أن نعزله عن العالم العربى، والمهم أن لا نترك له فرصة ليجمع خطوطه، أو ليخدع أصدقاءنا فى العالم العربى.»



والآن صباح يوم ٩ نوفمبر كان «أيزنهاور» فى اجتماع مجلس الأمن القومى يستعرض الموقف ويرتب الأوضاع والبقايا المكسورة والأجزاء المتفرقة كما يراها ليشكل شرقا أوسط جديدا تضعه القوة الأمريكية بكامله فى نطاق نفوذها الإمبراطورى الجديد (**نفس الحلم المستمر** الذى بدأه «روزفلت»، بينما الحرب العالمية الثانية ما زالت دائرة).

وعاد إلى شرح نظريته فيما يتعلق بالخلاص من «عبد الناصر» وأسهب فى التفاصيل، فقال إن «من المهم بعد أن تنقضى فترة الفوران الحالية أن ينقشع الضباب ويظهر «جمال عبد الناصر» خاوى اليدين لم يحصل من الحرب على أية

جوائز». ثم حدد أكثر مجموعة من النقاط لا بد من تحقيقها «لتبديد أى وهم يراود أحدًا بأن «ناصر» قد فاز فى الحرب» وكانت كما يلى:

«١ ــ لا ينبغى أن نتركه يدير القناة وحده.»

«٢ ــ إن إسرائيل لن تتنازل هذه المرة عن حقها فى المرور من قناة السويس وخليج العقبة.»

«٣ ــ لا يمكن السماح لمصر بالعودة إلى قطاع غزة، والأنسب تدويله وإقامة نوع من وصاية الأمم المتحدة عليه.»

ثم ختم «أيزنهاور» عرضه بالإشارة إلى أن «ناصر» ـ وبرغم كل المظاهر ــ فى موقف ضعيف، وإذا دفعناه قليلا فسوف ينكفئ على وجهه».



وكان «جمال عبد الناصر» مشغولا عن هذا كله بأشياء أخرى. كان شديد القلق على أحوال المدنيين فى بورسعيد وسيناء وقطاع غزة تحت الاحتلال، وكانت رسائله تتوالى على الدكتور «فوزى» لكى يثير هذه القضية فى الأمم المتحدة.

وفى يوم ٣٠ نوفمبر كتب بخطه ورقة تعليمات إلى الدكتور «محمود فوزى» أرسلت مع حامل حقيبة ولم ترسل برقيًا وكان عنوانها «سياستنا بالنسبة لموضوع قناة السويس». وكان نصها كما يلى:

[«١ ــ لا يمكن الرجوع إلى الموقف السابق سواء مشروع «همرشولد» أو المشروع الهندى، أو حتى المشروع المصرى، حيث إن هذه المشاريع جميعها موضوعة على أساس حل سلمى. وحيث إن الطرف الآخر لم يرض بالحلول السلمية وفضل استخدام القوة، وحاول الاستيلاء بالقوة على القناة ــ فإن كل ما تستطيع أن تقدمه مصر بالنسبة لمسألة قناة السويس لا يخرج عن ضمان حرية الملاحة حسب اتفاقية ١٨٨٨ وكذلك ضمان الرسوم.

٢ ــ يجب أن نكون مستعدين عند إتمام الانسحاب أى فى يوم ١٤ ديسمبر

١٩٥٦ (الموعد المبدئى الذى حدده «سلوين لويد» لـ«همرشولد») أن نتقدم فورا للجمعية العامة للأمم المتحدة، ونطالب بتعويضات عن خسائرنا نتيجة للعدوان، وكذلك نطالب بلجنة تحقيق من هيئة الأمم المتحدة لتقوم بالتحقيق فى الفظائع التى ارتكبها المعتدون، ويجب أن تكون كل الأضواء فى جميع الأوساط الدولية مسلطة على هذا الاتجاه حتى يطغى على موضوع حل مشكلة قناة السويس، وأن نصل إلى أن يؤجل النظر فى موضوع حل مشكلة قناة السويس إلى أن يتم التحقيق ويتم التعويض.

٣ ــ ربما لاحظت أن بعض الصحف البريطانية والمعارضة بصفة خاصة قد أظهرت بوضوح أن كل ما يمكن الحصول عليه من مصر بعد العدوان، وذلك فيما يختص بتسوية مسألة قناة السويس، هو ضمانات لحرية الملاحة. وهذا يدل على أنه حتى الرأى العام البريطانى أصبح يؤمن أن مصر لن تتساهل كما تساهلت أثناء محادثات نيويورك.

٤ ــ لذلك يجب أن نتشدد فى مطالبنا وفى موقفنا.

٥ ــ أما بخصوص إسرائيل فلابد أن نهيئ الجو من أن إسرائيل ليست دولة بل هى قاعدة للعدوان والاستعمار، وعلى ذلك فلا يمكن أن نعاملها كدولة. وواضح من هذا أننا يجب أن نحبط أية محاولة سواء للصلح مع إسرائيل أو لمرور السفن الإسرائيلية فى قناة السويس. وسنقوم من جهتنا فى القاهرة بحملة تساند هذا الاتجاه.

٦ ــ يجب أن نعتبر هذه التوجيهات على أنها خطة للمستقبل ولا نفصح عنها بل تدور المناورات فى هذا الاتجاه حتى نصل إلى غرضنا.

إمضاء

جمال»]



وفى أول ديسمبر تلقت مصر أخبارًا عن حشود تركية وعراقية على حدود سوريا.

ثم تلقى «جمال عبد الناصر» خطابًا لفت نظره من صديقه «نهرو»، فقد راح «نهرو» يحدثه فى هذا الخطاب بأن اتهامات توجه لمصر أنها راحت تمارس نوعا من الاضطهاد المنظم ضد أشخاص من أصل يهودى(١). وفى نفس اليوم كان «همرشولد» يتحدث مع الدكتور «فوزى» فى نفس هذ الموضوع. كما أن السفير الأمريكى فى القاهرة طلب موعدا عاجلا مع الرئيس مباشرة لينقل له رسالة حول نفس الموضوع من الحكومة الأمريكية.

وأبرق الرئيس «جمال عبد الناصر» إلى الدكتور «محمود فوزى» فى نيويورك بمجموعة من البيانات المحددة حول هذا الموضوع جاء فيها: «.... ولو أن إبعاد الأجانب من صميم أعمال السيادة المصرية وليس لأحد أن يتدخل فيه فإن مصر لا تقوم بعمليات طرد وليس هذا من سياستنا **وكل ما حدث هو أن بعض الأفراد أخرجوا لدواعى الأمن والموضوع كله لا يعدو أن يكون حملة من الدعاية والتشهير. أرجوك إبراز الحقيقة فى هذا الموضوع من خلال تصريحاتك، وأحبذ أن تكون لهجة بيانكم غير عنيفة»**.



ويوم ١٤ ديسمبر توجه الدكتور «محمود فوزى» إلى وزارة الخارجية الأمريكية للاجتماع مع «هربرت هوفر» نائب الوزير (كان السرطان قد اكتشف فى أمعاء «دالاس» ودخل المستشفى). وحضر الاجتماع أيضًا وكيلا الوزارة «ميرفى» و«راونترى». وفوجئ الدكتور «فوزى» بـ«هوفر» يقول له «إن حكومة الولايات المتحدة لديها تقارير تدعو إلى القلق عن نشاط تخريبى تعد له مصر فى عدد من الأقطار العربية بينها الكويت ولبنان». وأردف «هوفر» «قائلا هذا غير نشاط مصر التخريبى

---

(١) نص خطاب نهرو إلى الرئيس جمال عبد الناصر منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (٢٠٠).

داخل إسرائيل». ثم استطرد «إذا لم يتوقف عملاؤكم المتعصبون عل الفور فإن أى أمل فى خلق تفاهم بيننا يساعد على استقرار الموقف ـ سوف ينتهى». ومضى «هوفر» يقول «لا بد أن تعلموا أن الولايات المتحدة لم تعد مستعدة للاعتماد على بترول العالم العربى ولا عادت مستعدة للاعتماد على قناة السويس أو خطوط الأنابيب، فقد اعتمدت برنامجا لبناء ناقلات عملاقة تستطيع الدوران حول رأس الرجاء الصالح». وتمالك الدكتور «فوزى» أعصابه وسأل «هوفر» قائلا «سوف أكون ممتنا لو أعطيتنى معلومات محددة عن هؤلاء المخربين أو عن خططهم». ورد «هوفر» يقول «إن بعضهم ليسوا مصريين ولكنهم يتحركون بإيحاء من عناصر مصرية، وهم يسمون أنفسهم ناصريين وينسبون هويتهم إليكم. وربما كانت الحكومة فى القاهرة لا تعلم شيئا عن هذا النشاط ولعله يجرى من وراء ظهر الرئيس «ناصر» نفسه». وأبدى الدكتور «فوزى» استغرابه من هذه المعلومات وأظهر تشككه فى مصادرها.



وعندما وصلت برقية الدكتور «فوزى» إلى القاهرة كان من رأى «جمال عبد الناصر» أن كل هذا الذى تثيره الولايات المتحدة يندرج تحت بند الموضوعات المؤجلة. ففى هذا الوقت لا ينبغى لمصر أن تحول أنظارها عن موضوع واحد وهو الضغط بكل الوسائل لتحقيق انسحاب قوات العدوان من مصر. «الباقى كله يستطيع أن ينتظر دوره، وأما الانسحاب فلا بد أن يستمر».

كان «سلوين لويد» قد أعطى لـ «همرشولد» تاريخ ١٤ ديسمبر لإتمام الانسحاب. ثم طلب التأجيل ليوم ٢٠.

وفى يوم ٢٢ ديسمبر أتمت قوات الطوارئ تسلم مدينة بورسعيد من قوات الاحتلال، وفى يوم ٢٣ عادت إليها القوات المصرية.

[٢]

حاولت إسرائيل بكل الوسائل تعطيل جلاء القوات البريطانية والفرنسية عن

بورسعيد وفكرت فى خطط كثيرة لافتعال حوادث يمكن أن تؤدى إلى عكس اتجاه الأحداث.

لم يكن «بن جوريون» قادرًا على تصور الحقائق الجديدة التى برزت أمامه تمنعه من تحقيق آماله فى اللحظة التى ظن فيها أن كل شىء أصبح فى قبضة يده.

● لقد أصبح شريكا فى تحالف سياسى وعسكرى يضم بريطانيا وفرنسا وتعاون معهما فعلا فى عمل موحد ضد مصر التى يعرف فى قرارة قلبه أنها عدوه الأكبر. والآن فإن شركاءه على وشك أن يتركوا رأس الجسر الذى حصلوا عليه فى بورسعيد.

● إنه تمكن فى حماية تدخل حلفائه من احتلال كل شبه جزيرة سيناء وأعلن ضمها بالفعل إلى «أرض إسرائيل»، وبانسحاب الانجليز والفرنسيين من بورسعيد فإن الجيش الإسرائيلى فى سيناء سيكون عليه إما أن يحارب معركة باهظة التكاليف أو ينسحب بغير قتال.

● إن الأمم المتحدة استطاعت تكتيل رأى عام قوى ضد إسرائيل، وقد أحرجت شركاتها مع بريطانيا وفرنسا موقفها أمام شعوب العالم التى راحت تصدق ما كانت تقوله مصر من أن إسرائيل أداة فى يد الاستعمار.

● إن الولايات المتحدة تبدو وكأنها لأسباب متعددة: لتضارب مصالح بينها وبين بريطانيا وفرنسا، ولأمل فى استمالة أصدقائها العرب، ولطمع فى السيطرة على بترول الشرق الأوسط بأسره - قد انتهجت سياسة لا تستطيع إسرائيل أن تعتبرها ودية. فقد أدانت تدخلها فى مصر من أول لحظة وظلت تدينه حتى قبل كل أطراف التواطؤ وقف إطلاق النار.

● إن «جمال عبد الناصر» عدوه اللدود حارب معركة السويس كلها بكفاءة وحكمة رفعت قدره فى العالم العربى وفى آسيا وأفريقيا. وإذا خرج من هذه المعركة سليما، فمعنى ذلك أنه سيتحول إلى بطل قومى يستطيع أن يستقطب مشاعر وأفكار الجماهير العربية المحيطة بإسرائيل.

● إن الاتحاد السوفيتى دخل الشرق الأوسط صديقا للعرب ومصدرا لتسليحهم، ومن المؤكد أنه بعد فشل العدوان فإن الاتحاد السوفيتى سوف يفتح أبوابه لمساعدات عسكرية واقتصادية وسياسية - لمصر وللعرب بغير حدود.



وبالنسبة لـ «بن جوريون»(١) فقد كان ذلك كله طبقا لوصفه فى اجتماع لمجلس الوزراء الإسرائيلى عقد يوم ٢٢ ديسمبر: **«كابوسا مرعبا يتمنى أن يستيقظ منه ويتأكد أنه مجرد كابوس»**.

وفى هذا الاجتماع لمجلس الوزراء الإسرائيلى قال «بن جوريون» لوزرائه بعد أن استعرض أمامهم شكل الكابوس الذى يعيش فيه - إنه ليس أمام إسرائيل الآن إلا الولايات المتحدة الأمريكية، «لقد كانوا باستمرار أصدقاءنا وكانوا يتعاطفون مع قضيتنا باستمرار، وقد أرسلوا إلينا كثيرا من المساعدات - لكنهم كانوا أصدقاء والآن فإن هدف إسرائيل يجب أن يكون تحويل الولايات المتحدة الأمريكية من صديق إلى حليف. إن إسرائيل كانت دائمًا تحتاج إلى حليف من بين القوى الكبرى وقد أثبتت الأسابيع القليلة الماضية أنه لم تعد هناك قوى كبرى فى هذا العالم غير الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. والاتحاد السوفيتى لن يكون حليفا لنا ولا حتى محايدا بيننا وبين أعدائنا. وليس أمامنا غير الولايات المتحدة».

ثم دخل «بن جوريون» فى عرض تاريخى لانهيار إمبراطورية الغرب التقليدية فى الشرق الأوسط. وقال إن بريطانيا وفرنسا انتهيتا بالكامل فى الشرق الأوسط وتحولتا من امبراطوريتين عظيمتين إلى دولتين عاديتين فى غرب أوروبا، وكان تصرفهما فى حرب السويس هو فصل النهاية فى تاريخهما الامبراطورى.

ووصل «بن جوريون» فى تأملاته الفلسفية فى تلك الجلسة إلى درجة أنه قال «تمنيت لو أن الروس أرسلوا متطوعين إلى مصر للحرب معها ولو حدث لأرغم «أيزنهاور» على إرسال قوات أمريكية إلى المنطقة ولتغير مجرى الحوادث». وقاطعه

---

(١) يوميات «ديفيد بن جوريون» مجموعة ديسمبر ١٩٥٦.

«ليفى أشكول» (رئيس وزراء إسرائيل فيما بعد) «بأن ذلك يمكن أن يؤدى إلى حرب نووية». ورد «بن جوريون» بشؤم قائلاً «**إذا كان لابد للمعبد أن يتهدم فلماذا يسقط على رؤوسنا وحدنا**».

وكان مجلس الوزراء الإسرائيلى يعرف من شطحات رئيسه «ديفيد بن جوريون» مثل هذه النوبات الفلسفية التى يحاول أن يستعيد فيها دور أنبياء العهد القديم!



وقرر المجلس ضرورة أن تحشد إسرائيل كل مواردها السياسية فى واشنطن لإقناع «أيزنهاور» بأن إسرائيل لا تستطيع أن تنسحب من سيناء ولا من غزة، وأن الكنيست الإسرائيلى وافق على ضم كلتيهما (سيناء وغزة) إلى إسرائيل، وأن الوضع بالنسبة لإسرائيل يختلف عما هو عليه بالنسبة لبريطانيا وفرنسا فقد كان فى وسع الاثنتين الانسحابمن مصر دون ضرر غير ضياع الهيبة، وأما انسحاب إسرائيل فسوف يؤدى إلى ضياع الأمن.

وأبدى «سابير» وزير العدل وجهة نظره بأن إسرائيل تستطيع أيضًا أن تركز على الأمم المتحدة فى نفس الوقت الذى تركز فيه على الولايات المتحدة. وانفجر فيه «ديفيد بن جوريون» قائلا «**إنه ليس لإسرائيل صديق واحد فى الأمم المتحدة وإن كل من فيها أصبحوا أصدقاء ناصر**». ثم قال لـ «سابير» «**علينا أن نفهم أن الأمم المتحدة بالنسبة لإسرائيل هى خلية نحل ليس فيها عسل وسوف يقرصوننا جميعا دون أن نشعر بطعم الحلو على أطراف ألسنتنا. ليس أمام إسرائيل الآن غير الولايات المتحدة**».



وتحركت إسرائيل فى واشنطن على أوسع نطاق. كان «أبا إيبان» سفيرها فى واشنطن يبذل قصارى جهده. وكان «ليندون جونسون»(١) زعيم الأغلبية

---

(١) أصبح «ليندون جونسون» رئيسا للولايات المتحدة سنة ١٩٦٣ بعد اغتيال «جون كنيدى». وكان «جونسون» هو رئيس الولايات المتحدة أيام حرب ١٩٦٧.

الديمقراطية فى الكونجرس ـ فى طليعة الساسة المؤيدين لإسرائيل فى واشنطن. وقد تكفل هو بأن يكون حلقة الاتصال مع «أيزنهاور» شخصيا فى حين يركز «أبا إيبان» على «دالاس» الذى كان قد تماثل للشفاء وغادر المستشفى عائدا إلى مكتبه. وفى نفس الوقت حثت إسرائيل كل أصدقائها فى الجالية اليهودية والصحافة والتليفزيون ودوائر المال والأعمال أن ينشطوا لأن هذا هو الوقت لمساعدة إسرائيل وإذا ضاعت الفرصة فسوف تكون فى خطر.

كان الهدف الإسرائيلى محددا وهو أن تتفهم الولايات المتحدة ضرورات بقائها فى سيناء وفى قطاع غزة، وألا تشارك الولايات المتحدة فى أى ضغط يوجه إليها لإرغامها على الانسحاب.



والتقى «ليندون جونسون» عدة مرات مع «أيزنهاور» وتشير مجموعة أوراق «أيزنهاور» إلى أن الرئيس الأمريكى استمع إلى «جونسون» فى أول لقاء بينهما فى تلك الأيام ثم سأله «ما الذى يريده أصدقاؤنا فى إسرائيل؟ إننى فى بعض الأحيان أجد نفسى عاجزا عن فهم «بن جوريون» وأتساءل فيما بينى وبين نفسى: **هل هو جائع باستمرار لأرض جديدة أم أنه يريد السلام؟»**.

ويستطرد «أيزنهاور» «إننا لا نستطيع أن نجد أمام العالم أى مبرر سياسى أو قانونى يعطى لإسرائيل حق البقاء فى سيناء. معنى ذلك ببساطة أننا سنفقد كل أصدقائنا العرب وسوف نراهم جميعا يتجهون إلى الاتحاد السوفيتى. ثم إن العالم كله سوف يتعاطف مع «ناصر» إذا قرر مواصلة الحرب ضدهم وسوف تكون إسرائيل وحدها أمامه بعد خروج الانجليز والفرنسيين من بورسعيد. وسوف يطلبون أسلحة منا وسوف نجد أنفسنا منساقين إلى صراع فى الشرق الأوسط قد يتحول إلى مواجهة بيننا وبين الاتحاد السوفيتى وهذا شىء مستحيل وعلى «بن جوريون» أن يفهم ذلك. إننى على استعداد لمساعدة إسرائيل لكن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تدفع ثمن هذه المساعدة بحرب ذرية».

وراح «ليندون جونسون» يشرح نظرية الأمن الإسرائيلى لـ «أيزنهاور» وسأله «أيزنهاور» فى نهاية الشرح قائلا «ما هو الهدف الاستراتيجى من احتلال سيناء وهل هو أرض أو أمن؟».

ومضى «أيزنهاور» يقول «إذا كان الهدف أرضا فعليهم أن يتصرفوا كما يشاءون دون مسئولية على الولايات المتحدة. وإذا كان أمنًا فعليهم أن يحددوا لنا بنوده لكى نعرف كيف نساعدهم».

وقال «جونسون» «إنهم لا يطلبون أرضًا جديدة ولكن الأمن هو مطلبهم».

وشدد «أيزنهاور» ضغطه وسأله عن بنود هذا الأمن، ورد «جونسون»:

حقهم فى المرور من قناة السويس وخليج العقبة.

وإصرارهم على أن تعود مصر بشكل مباشر أو غير مباشر إلى قطاع غزة».

ورد «أيزنهاور» على الفور قائلا: **اتفقنا. إن هذه بالضبط هى مطالب الولايات المتحدة من الناحية المبدئية والعملية، وفضلاً عن أنها حق طبيعى لأمن إسرائيل تفهمه الولايات المتحدة وتتعاطف معه ـــ فإنها فى الوقت ذاته ضرورة لتقليص نفوذ «ناصر» وقصه إلى حجمه الطبيعى».**

وسمع «أبا إيبان» نفس الكلام تقريبا من «جون فوستر دالاس» وسمعه كل أصدقاء إسرائيل فى واشنطن. واضطر «ديفيد بن جوريون» إلى التراجع، ولكنه طلب من «أبا إيبان» أن يحصل من «دالاس» على تعهد مكتوب بهذه الضمانات:

- **فتح قناة السويس للملاحة الإسرائيلية.**
- **إنهاء السيطرة المصرية على خليج العقبة.**
- **عدم عودة مصر بإدارتها أو بقواتها المسلحة إلى قطاع غزة.**



وكان «داج همرشولد» يستعد للسفر إلى المنطقة ليقضى إجازة عيد الميلاد مع

قوات الطوارئ فى مصر وينتهز الفرصة لاجتماعه الموعود مع الرئيس «جمال عبد الناصر».

والتقى به «جون فوستر دالاس» وتباحث معه فى طلبات إسرائيل. وأبدى «همرشولد» اقتناعه بهذه المطالب، وقال إنه سوف يلح عليها فى لقائه مع الرئيس «جمال عبد الناصر» فى القاهرة. وسأله «دالاس» عن رأيه فى إنشاء قوة بحرية مشتركة تكون تابعة للأمم المتحدة وتتولى حماية حرية الملاحة فى مضايق العقبة وقناة السويس. وكان تصوره لها أنها مثيل بحرى لقوات الطوارئ الدولية على الأرض. وتحفظ «همرشولد» بأن «الفكرة يمكن أن تكون لها أبعاد خطرة لأن قوة الطوارئ البرية كان يمكن تشكيلها من دول صغيرة بعيدة عن الاستقطاب الدولى، وأما تشكيل قوة طوارئ بحرية فشىء آخر لا تقدر عليه غير القوى البحرية الكبرى، وفى هذه الحالة فلن تكون السيطرة للأمم المتحدة وإنما ستكون هذه السيطرة نزاعا بين القوى البحرية يصعب التحكم فيه».



وحينما سمع «أبا إيبان» من«دالاس» تفاصيل اجتماعه مع «همرشولد» أبدى مخاوفه من «أن السكرتير العام للأمم المتحدة قد لا يكون هو المفاوض المناسب لإقناع «ناصر» وخصوصا أن صداقته الوثيقة مع الدكتور «محمود فوزى» تجعله يتحرج من أن يكون حازما مع مصر. ثم إن السكرتير العام للأمم المتحدة لا يملك قوة تنفيذية وراءه تعزز كلامه وتؤكد موقفه، وأنه ربما كان من الأولى أن تقوم الولايات المتحدة نفسها بالحديث إلى «ناصر» وبطريقة لا تترك له مجالا للشك فى جديتها».

ورد عليه «دالاس» بأن «الولايات المتحدة لا تتصرف فى هذا الموقف بوحى لحظة عابرة أو بإيحاء اتصالات تقوم بها إسرائيل أو أصدقاؤها، وإنما هى تتصرف وفق سياسة جديدة رسمتها للمنطقة وهى مصممة على تنفيذها». ثم استطرد «دالاس» يقول لـ «أبا إيبان» إنك ترى أن بريطانيا انتهت فى الشرق الأوسط وبنهايتها فإن حلف بغداد سوف يصبح واحدا من مخلفات التاريخ، وقد جاء الوقت الآن لكى تتقدم

الولايات المتحدة وتقيم نظاما جديدا فى المنطقة تتحمل فيه المسئولية وحدها ومباشرة. إننا لم نعد فى حاجة إلى التوارى وراء أصدقائنا القدامى، فقد لعبوا أوراقهم بحماقة وخسروا وتركوا وراءهم فى الشرق الأوسط فراغا يتحتم على الولايات المتحدة أن تملأه. إن لدى الرئيس خطة كاملة لمستقبل الشرق الأوسط وهى تتضمن ترتيبات سياسية وعسكرية ومساعدات اقتصادية واسعة سوف ترى وتسمع فى الأسابيع القليلة القادمة، فنحن ننوى أن نتحرك بسرعة وخصوصا أن أصدقاءنا فى المنطقة ومعهم الأصدقاء القدامى لبريطانيا الذين يجدون أنفسهم الآن فى العراء يناشدوننا بان نتقدم إلى حمايتهم وهم يعرفون أنه ليس لهم أمل فى المستقبل إلا بالاعتماد علينا (١)».



فى نفس الوقت تقريبا كان مساعد وزير الخارجية الأمريكية «لوى هندرسون» يقابل الدكتور «محمود فوزى» فى حفل عشاء ـ أقامه تكريما له فى واشنطن السفير المصرى الدكتور «أحمد حسين» ـ ويقول له طبقا لتقرير الدكتور «فوزى» إن «الظرف الحالى هام إلى أقصى درجة بقدر ما هو دقيق، وبأن ما سوف يكون من تطور ومن تصرفات خلال الشهور القليلة القادمة سوف يكون حاسما فى شأن العلاقات بين الولايات المتحدة ومصر. وإن الفرصة سانحة أمام مصر لكى تتبوأ مركزا قويا ممتازا، كما أن الخطر قائم فى أن يسوء مركز مصر وتضيع كل ثقة فيها، وإن الولايات المتحدة لا تضمر سوءا لمصر وأنها ترغب فى التفاهم على أن هذا التفاهم يجب أن يقوم على أساس سليم ومن الجانبين وبنسبة مائة فى المائة».

وعندما وصلت برقية الدكتور «محمود فوزى» إلى القاهرة وقرأها الرئيس «جمال عبد الناصر» وأضاف إليها معلومات تلقاها من مصادر أخرى ـ كان واضحا أمامه بطريقة لا تقبل اللبس أن الولايات المتحدة على وشك أن تدخل المنطقة بخطة جديدة واسعة النطاق.

---

(١) مجموعة أوراق «دالاس» فى جامعة «برنستون» ويوميات «آبا إيبان».

وأرسل إلى الدكتور «فوزى» برقية يطلب إليه فيها أن يبذل كل جهده لاستطلاع خطوط السياسة الأمريكية الجديدة فى المنطقة.

وكان «أيزنهاور» فى تلك الأيام الأخيرة من سنة ١٩٥٦ يستعد لكى يذهب إلى الكونجرس بمشروعه لإعادة تنظيم أمور الشرق الأوسط بأسره فيما عرف بعد ذلك باسم «مبدأ أيزنهاور».

[٣]

لم يكن «دالاس» يتحدث رجما بالغيب حينما قال لـ «آبا إيبان» إن الأصدقاء التقليديين فى المنطقة لبريطانيا يعرفون الآن أنها تركتهم فى العراء، وأنهم لم يعد فى وسعهم أن يواصلوا الاعتماد عليها، ونتيجة لذلك فلم يعد أمامهم مفر من الالتجاء إلى كنف الحماية الأمريكية وحدها.

كان «دالاس» يعرف دون شك بتفاصيل المناقشات التى دارت فى اجتماعات قمة بغداد غداة الغزو البريطانى الفرنسى لمصر. فلقد تدهور موقف أصدقاء بريطانيا فى المنطقة، وكان أكثر ما أساء إليه ما ظهر من حقائق التواطؤ مع إسرائيل، وقررت حكومات إيران وتركيا وباكستان والعراق عقد مؤتمر على مستوى القمة - وبدون اشتراك بريطانيا قائدة الحلف وزعيمته - لكى يبحثوا ما أصبح يواجههم من ظروف جديدة. ودعاهم «محمد رضا بهلوى» الاجتماع فى قصر «المرمر» فى طهران. وكان اجتماعهم صورة حية للتخبط والحيرة وللبحث عن طريق جديد وحليف كبير بديل عن ذلك الحليف الذى هوى فى السويس.

ويضم ملف اللجنة السياسية لحلف بغداد مجموعة من الوثائق السرية الحافلة بالمعانى والدلالات.

تبدأ وثائق هذا الملف فيما بعد حرب السويس بخطاب من السفير البريطانى فى بغداد السير «مايكل رايت» موجه إلى السيد «أحمد مختار بابان» القائم بأعمال رئيس

وزراء العراق ووزير الخارجية (كان رئيس الوزراء «نورى السعيد» قد توجه إلى اجتماع طهران) ـ نصه كما يلى:

[«صاحب المعالى

لا شك أن الحكومة العراقية علمت بالتصريحات التى أفضى بها يوم أمس رئيس الوزارة البريطانية والمتضمنة إيقاف النار (تحت شروط)، وأن حكومتى كانت ترغب فى إعلان الحكومة العراقية بذلك قبل صدور القرار. وقد طلبت منى أن أؤكد لمعاليكم بأن مشاورة الحكومة العراقية فى الوضع الراهن لها وزن ثقيل لحكومتى لاتخاذ هذا القرار.

إن الحكومة البريطانية مطمئنة إلى أن الحكومة العراقية ترحب بالإجراءات المتخذة.

وأضيف إلى ذلك أن حكومتى ستستمر فى بذل جهودها لتأمين انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى المصرية بواسطة هيئة الأمم المتحدة أو بالطرق الأصولية الأخرى.

المخلص

مايكل رايت»]



واجتمع ملوك ورؤساء إيران وتركيا وباكستان والعراق فى قصر «المرمر». وكانوا فى حرج من أن يكون اجتماعهم تحت لواء حلف بغداد وبدون اشتراك بريطانيا، ولهذا قرروا فى الجلسة الأولى أن يجعلوا عنوان اجتماعهم «قمة الدول الإسلامية الأربع» فى طهران.

ومن الغريب أن النقطة الأولى التى تعرضوا لبحثها كانت بالتحديد كيفية إبعاد بريطانيا عن حلفهم ولو مؤقتا لأن استمرار اشتراكها فيه بعد انكشاف تواطئها مع إسرائيل ضد دولة عربية إسلامية أصبح وضعا لا يطاق.

وربما كان خير ما يرسم صورة لهذا الاجتماع هو الاستشهاد هنا ببعض المقتطفات من نصوص هذا الاجتماع.

الشاه: «نحن فى الحقيقة نخدم بريطانيا بقيامنا بهذا العمل (إقناعها ولو مؤقتا بتجميد عضويتها فى حلف بغداد)».

اسكندر مرزا: (رئيس جمهورية باكستان): «إن ذلك سيساعدنا على انضمام الدول الإسلامية الأخرى إلينا».

سهروردى: (رئيس وزراء باكستان): «إننا هددنا بريطانيا بعد هذا العمل (محاولة غزو مصر بالتواطؤ مع إسرائيل)».

الشاه: «طلبنا من البريطانيين أن يتركوا مصر للقوات الدولية وأخبرناهم بأننا نريد أن ننقذ الميثاق وننقذ بريطانيا وبأننا نحتاج دائما إلى بريطانيا وليس هناك مجال لتحقيق ذلك إلا إذا قبلوا مقترحاتنا، وإذا لم يقبلوها فمن الأفضل خروجهم من الميثاق وبقاؤنا نحن فيه، وأن نبقى حلفاء وأصدقاء لهم».

سهروردى: «هناك طريقة أخرى وهى عقد ميثاق جديد يضم دولا إسلامية جديدة، وحتى إذا غيرت بريطانيا موقفها أقترح ضم دول إسلامية إلى هذا الميثاق أو إلى ميثاق آخر».

الشاه: «وبعدئذ تدخل أمريكا ثم بريطانيا».

....

سهروردى: «مهما وعد الانجليز بالانسحاب، فإنهم سوف يبقون على السويس»

الشاه: «هل ذلك ردىء؟»

سهروردى: «كلا حتى تأتى القوى الدولية».

اسكندر مرزا: «لا بأس من التأخير لكى يكون هناك وقت للإطاحة بـ«عبد الناصر».

....

الشاه: «لقد تأخرنا فى اجتماعنا فحصل بعد وقف إطلاق النار، وكان يمكن أن نحصل على فائدة لو بدا أن وقف إطلاق النار كان نتيجة لجهودنا نحن.»

نورى السعيد: «يجب أن نعطى الانطباع بأن إيقاف النار قد حصل بتأثيرنا.»

الشاه: «الأفضل أن نبقى نحن الأربعة متحدين متعاونين ونخرج بريطانيا مؤقتا منه، وندخل إليه بعض الدول العربية وأمريكا.»

....

عدنان مندريس: (رئيس وزراء تركيا): «عندما نبحث الحوادث التى تؤثر على السلام يجب ألا نغفل حادثة ونهتم بحادثة أخرى لا نعطى الانطباع بالتحيز. هذا الاجتماع لا يمكن أن يغمض عينه عن أن هناك فى مناطق أخرى حوادث أهم من هذا الحادث تهدد السلام العالمى».

....

حسين علاء: (رئيس وزراء إيران): «يجب أن نؤكد أننا فى محادثاتنا هذه لم نتجاهل بريطانيا، بل عملنا بناء على تفاهم مع البريطانيين. إن كل نوايانا أن نحافظ على تحالفنا مع بريطانيا، ولكن لجوء بريطانيا للعدوان (بالتواطؤ مع إسرائيل) قد لطم الميثاق وناحيته الدفاعية».

الشاه: «يجب ألا نعطى خصومنا فرصة لاتهام الميثاق بأنه ميثاق عدوانى».

حسين علاء: إن خروج بريطانيا مؤقتا من الحلف قد يؤدى إلى تسهيل دخول دول أخرى كأمريكا وغيرها».

الشاه: «إننى أبلغت السفير البريطانى حرصنا على بقاء بريطانيا فى الميثاق بعد إنقاذه وإنقاذ بريطانيا من الوصمة التى لحقت بنا».

....

اسكندر مرزا: «إننى قلت لممثلى الدول العربية إن الدول الإسلامية يهمها أمر الدفاع عن الدول العربية، وأن الجامعة العربية هى مجموعة لا قوة لها

إذ إنها مجموعة أصفار، وأن حلف بغداد لا يضعف الجامعة بل يقويها، وأن من مصلحة الدول العربية الانضمام إليه، وأن سياسة الحياد لا فائدة منها، وأن «سهروردى» (رئيس وزرائه) أخبر «ماوتسى تونج» بأن الحياد هو تهديد، كما وأنى أخبرت ممثلى الدول العربية بأننا سننظر فى أمر إخراج بريطانيا من الحلف. وعندئذ قال الممثلون العرب إنهم سيكونون سعداء إذا خرجت بريطانيا وأنهم جميعا يريدون انهيار «عبد الناصر».»

نورى (باشا): «لعل مندريس» يعلم أننى فى اجتماعات الميثاق فى بغداد وطهران أثرت موضوع بريطانيا وأكدت عليها وعلى أمريكا ضرورة حل قضية فلسطين لكى لا تستفيد روسيا من هذه المشكلة، إذ إن اللاجئين تربة صالحة وأداة طيعة للشيوعية.»

....

مندريس: «إن هناك ناحية أخرى أثيرت هنا وهى هل نخرج بريطانيا من الميثاق لكى نسهل دخول دولة عربية أخرى إليه؟ أقول مع الأسف أننى لا أقف مع هذا الرأى لأن السبب فى عدم دخول الدول العربية إلى حلف بغداد هو الدعاية الروسية والمصرية. ثم من هى الدولة العربية التى نؤمل دخولها؟ هل هى سوريا؟ إن سوريا الآن هى فى أحضان روسيا ولبنان لها ظروفها الخاصة؟ وماذا يفيدنا دخول المملكة السعودية؟ وهل يمكن دخولها حقيقة؟ وهل حقيقة أن دخول أمريكا إلى الميثاق متوقف على خروج بريطانيا منه؟ إذن فلنبحث هذا الموضوع ولنترك جانبا مؤقتا الناحية العاطفية ولنبحث الموضوع من الناحية المنطقية ولنبدأ بموضوع مصر. إن مصر هى بلد عربى إسلامى أهلها عرب مسلمون ونحن نحبهم ونرجو لهم الخير، ولكن يجب ألا ننسى أن هذه الدولة يحكمها شخص يعمل ضد مصلحتنا».

....

الشاه: لا بد أن نؤكد عزمنا على إنقاذ الميثاق مع بقاء بريطانيا فيه ونحن هنا فى إيران نحتاج إلى محالفة بريطانيا وصداقتها وقد علمت أنا شخصيا مدة طويلة من أجل ذلك. لعله ليس هناك من هو أكثر صداقة لبريطانيا منى ولكن المشكلة هى كيفية إنقاذ الميثاق مع إبقاء بريطانيا فيه؟ إذا لم تكن أمريكا معنا فما هى قوة ميثاق بغداد الآن. يجب الضغط على بريطانيا لتخليص الميثاق وجذب دولة أخرى إليه كأمريكا.

نورى السعيد: «إن مشكلة فلسطين فى رأينا أداة بيد الشيوعية وأن حلها سيؤدى إلى قتل سلاح قوى بيد روسيا وإن «جمال عبد الناصر» هو ضحيتها وهى ـ أى روسيا ـ السبب فى نكبته».

....

(خصص الاجتماع جلسة لمناقشة الأوضاع العسكرية لدوله)

مندريس: أعتقد أن الوقت مناسب للقيام بعمل لتقوية حلف بغداد. لدى بعض الاقتراحات الخام وأولها توجيه دعوة مفتوحة إلى أمريكا وهذا ممكن جدا، ويجب أن نجتهد فى تحقيقه بصورة عاجلة. هل من الممكن استدعاء السفيرين البريطانى والأمريكى وإخبارهما بما تحدثنا فيه؟»

الشاه: «موافق.. نستدعى أولا السفير البريطانى كحليف لنا ثم نستدعى السفير الأمريكى».

مندريس: نستدعى السفير البريطانى لنخبره بأننا ساعدناهم فى ورطتهم الحالية وأننا نريد أمريكا لتقوية الميثاق».

سهروردى: «ماذا سيكون رد الفعل البريطانى؟»

مندريس:«لقد قابلت فى طهران السفير البريطانى، وكانت العلامات مشجعة وربما تجعلهم التطورات الأخيرة الأخيرة أكثر استعدادا».

الشاه: «لقد قلت إننا جميعا سعداء بما حصل لـ «عبد الناصر» ولكننا مع ذلك

يجب أن نتمسك بميثاق الأمم المتحدة. إن إنجلترا وحدها لا تستطيع مساعدتنا ولا بد من وجود أمريكا معنا. إننى مستعد لأن أقول فى البيان الختامى بعد اجتماعنا إن عدم وجود أمريكا فى حلف بغداد هو أحد أسباب الاضطرابات فى هذه المنطقة. هل تذكر فخامتكم ما قلته للأمريكان فى استانبول؟ قلت لهم «إنكم تشجعون الناس على تهديدكم وتعاملون أعداءكم معاملة أحسن من معاملة أصدقائكم، وبهذا تخسرون أصدقاءكم لأنهم يبقون ضعفاء ولا يفيدونكم. هل تعرف أن «تيتو» يملك بليونا وخمسمائة مليون دولار فى أمريكا؟»(١)

....

مندريس: «لا بد من مساعدة بريطانيا. لا ننسى أن ما فعلته أزال خطر مصر ولو مؤقتا وهيبة «عبد الناصر» قد انكسرت».

....



كان أصدقاء بريطانيا التقليديون على وشك أن يقفزوا من سفينتها الغارقة إلى سفينة أخرى وهى الولايات المتحدة. وكانت السفينة الأمريكية على استعداد لالتقاطهم متجهة إليهم تحاول انتشالهم من البحر!.

---

(١) لا يفكر الشاه إلا فى الثروة الشخصية، ولقد أثبتت الحوادث فيما بعد أن «تيتو» لم يكن يملك شيئا فى أمريكا، وأن الشاه هو الذى استطاع تكديس بلايين الدولارات فيها.

الفصل العاشر

لقد تخلصنا منه

[١]

ووصل «همرشولد» إلى القاهرة ليقضى أجازة عيد الميلاد مع قوات الطوارئ الدولية وليقابل الرئيس «جمال عبد الناصر» ويبحث معه كل القضايا المعلقة بعد أن تم انسحاب القوات البريطانية والفرنسية من بورسعيد.

ودعاه الرئيس «جمال عبد الناصر» إلى العشاء معه مساء يوم ٢٥ ديسمبر. ووصل «همرشولد» مع الدكتور «محمود فوزى» إلى بيت الرئيس «جمال عبد الناصر فى الساعة السابعة مساءً وظل فيه حتى الساعة الواحدة صباحا. وكان الاجتماع حافلا بقضايا حيوية جرى بحثها فى جو ودى ساعدت عليه العلاقة الخاصة التى كانت تربط «فوزى» «وهمرشولد» وكان «جمال عبد الناصر» قد بدأ هو نفسه يقدر مزايا «همرشولد» ويعجب بها. ومن ناحية «همرشولد» فإن شخصية «جمال عبد الناصر» بدأت تشده إليها.

بعد مقدمات عادية وصف فيها «همرشولد» بعض أجواء الاتصالات فى الأمم المتحدة وطوف خلالها بعض جوانب الموقف الدولى وتحدث عن زيارته لقوات الطوارئ وصعوبات التنسيق الإنسانى بينهم بسبب اختلاف جنسياتهم، وبالتالى خلفياتهم الحضارية - دخل «همرشولد» إلى موضوعاته الرئيسية.

بدأها «همرشولد» بأن توجه برجاء إلى الرئيس جمال عبد الناصر، أن تقرر الحكومة المصرية منح حصانة دبلوماسية لقيادة قوات الطوارئ وضباطها على أساس أن عملهم هو فى خدمة الأمم المتحدة. وقال «جمال عبد الناصر» إنه «يصعب

عليه أن يستجيب لهذا الطلب فقوات الطوارئ ليست بعثة دبلوماسية لدولة». ثم دعا الدكتور «فوزى» إلى شرح وجهة نظره فى المسألة. ودار حوار مباشر بين «فوزى» و«همرشولد» وتبودلت فى الحوار بين الرجلين بعض مواد القانون الدولى وطال النقاش و«جمال عبد الناصر» يتابع ثم تدخل ليقول «إننى كنت من البداية أشعر باستحالة الاستجابة للطلب، وكان هذا مجرد شعور، وبعد أن استمعت إلى الدكتور «فوزى» فقد أصبحت مقتنعا أن المسألة ليست صعبة فقط وإنما هى مستحيلة حتى قانونيا». وسأل «همرشولد» ضاحكا «هل أستطيع أن أستأنف الحكم؟» ورد «جمال عبد الناصر» بأن «الطلب مستحيل ابتداء واستئنافا وحتى أمام محكمة النقض».

وانتقل «همرشولد» إلى نقطته الثانية فاقترح ضرورة عقد اتفاق بين الأمم المتحدة والحكومة المصرية يقضى بعدم جواز سحب قوات الطوارئ من مواقعها إلا بموافقة مجلس الأمن. واعتذر «جمال عبد الناصر» بأنه «مع وجود دول فى مجلس الأمن لها حق الفيتو فإن قبوله بما يقترحه «همرشولد» معناه أن بقاء قوات الطوارئ فى مصر لم يعد مرتبطا بإرادة مصرية، وهذا يحول قوات الطوارئ من مهمة حفظ سلام إلى شبهة احتلال دولى».

وأحس «همرشولد» أنه لاجدوى من الإلحاح.



واحتفظ «همرشولد» بالنقط الحساسة إلى جلسة ما بعد العشاء. وبدأها بأن شرح موقف الأمم المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية ورأيه هو شخصيا بأن مصر يتعين عليها أن تسمح لإسرائيل باستعمال قناة السويس بغير تحيز ضدها شأنها فى ذلك شأن غيرها من أعضاء الأمم المتحدة. واستأذن الدكتور «فوزى» أن يتولى هو الإجابة على ما قاله «همرشولد»، ومرة ثانية كان الاستشهاد بمواد القانون الدولى. ومرة ثانية تدخل «جمال عبد الناصر» ليقول: «إننى لست خبيرا بالقانون الدولى ولا أدعى لنفسى المقدرة على مناقشة أى قضية على أساسه وبالتأكيد فإننى أحترمه ولكنى واثق من شىء آخر وهو عندى أكثر احتراما من سواه، وهو أن

إسرائيل لن تمر من قناة السويس. «وقال «همرشولد» «وماذا يكون موقفكم إذا ذهبت إسرائيل بشكواها إلى محكمة العدل الدولية؟ إنها سوف تكسب قضيتها بغير شك، وهذا هو رأى جميع مستشارى فى الأمم المتحدة». ورد «جمال عبد الناصر» قائلا «إننى سوف أحدثك بصراحة بعيدة كل البعد عن دبلوماسية الدكتور «فوزى» ورقته. **طالما أنى موجود فى هذا البلد فلن تمر سفينة إسرائيلية واحدة من قناة السويس، إن الفكرة من أساسها مرفوضة بالنسبة لى»**. وعند هذه اللحظة فى الحوار طلب «همرشولد» ملف أوراق كان فى سيارته وفتحه وأخرج منه عددا من جريدة «الجيروساليم بوست» وفردها على صفحة الافتتاحيات، ثم راح يقرأ افتتاحية فيها تقول «إذا فشل «همرشولد» فى إقناع «عبد الناصر» بمرور السفن الإسرائيلية فى القناة فإن عليه أن يستقيل من الأمم المتحدة». **وعلق «جمال عبد الناصر» بقوله «وإذا مرت سفن إسرائيل من قناة السويس فسوف يكون علىَّ أنا أن أستقيل من مصر».**

واعترض «همرشولد» بأن مصر قبلت فى النقاط الست التى وافق عليها مجلس الأمن يوم ١٣ أكتوبر ١٩٥٦ بمبدأ «عزل القناة عن سياسة أى دولة واحدة». ورد «جمال عبد الناصر» قائلا **«هذا ماكنت أتحسب له فقد كنت أخشى طول الوقت أن يستعمل هذا المبدأ لصالح إسرائيل». ثم استطرد يقول لـ«همرشولد» «إننى أريدك أن تعرف أننى أتعاطف مع ظروفك وأحس بالضغوط الهائلة التى تقع عليك من إسرائيل ومن آخرين. ولكننى ببساطة لا أستطيع أن أقبل ما تطلبه منى» وساد الصمت بعض الوقت ثم قطعه «همرشولد» بقوله «إننى أرى أن هناك حديقة خارج مكتبك فهل نستطيع أن نتمشى فى الهواء البارد هناك بدلا من هذه الغرفة التى ارتفعت درجة حرارتها؟» وخرج الثلاثة إلى حديقة بيت «جمال عبد الناصر» وكان «فوزى» و«همرشولد» يتحدثان عن الشعر.**



وعاد الثلاثة إلى المكتب وبدأ «همرشولد» من حيث انتهى فسأل قائلا «إن ما كنا فيه يدعونى إلى التساؤل عن موقفكم الآن من النقاط الست التى أقرها مجلس الأمن.. لقد كان أهمها جميعا هو البند الخاص بـ«عزل القناة عن سياسة أى دولة

واحدة». وقال «جمال عبد الناصر» إن رأيه «**إن هذه المبادئ الستة قد أصبحت الآن جزءا من التاريخ فإن العدوان الثلاثي لم يترك له محلا في الواقع، وإنه حتى الصحف البريطانية وعدد من الساسة البريطانيين أصبحوا مقتنعين بأن هذه النقاط الست قد فات أوانها**».

وتناول الرئيس «جمال عبد الناصر» ملفا كان على مكتبه وقال لـ «همرشولد» «في هذا الملف عشرات المقالات والتصريحات منشورة في الصحف البريطانية تؤيد ما قلته لك». وأبدى «همرشولد» ضيقه وقال «إنني أخشى أن هذا الموقف سيثير متاعب لا حدود لها بالنسبة إلى انسحاب إسرائيل». ورد «جمال عبد الناصر»بأنه «يعرف أن «همرشولد» مفاوض ممتاز لكنه يتمنى أن لا يفعل معه مافعله «منزيس» أو ما يفعله «كريستيان بينو». «وصاح «همرشولد» وقد آثر أن يمنع توتر الحوار «ليس «كريستيان بينو» من فضلك لاتقارنني به قارنني بأي إنسان إلا «بينو».».



كانت غزة آخر بند أراد «همرشولد» إثارته فسأل «جمال عبد الناصر» عن نوايا مصر في شأن القطاع؟ ورد «جمال عبد الناصر» بأنه «**لابد من انسحاب إسرائيل من غزة وإلا فمعنى ذلك أن المعتدي قد كوفئ على عدوانه ثم إن غزة مسئولية مصرية شأنها في ذلك شأن سيناء تماما**». ولم يعلق «همرشولد» وإن كان «جمال عبد الناصر» قد أحس بأن ضيفه لم يقتنع، ولقد سكت لأنه أراد في الغالب أن يحتفظ لنفسه بحرية التصرف مستقبلا.

ولم يكن لديه شك في أن موضوع مرور السفن الإسرائيلية سوف يثار مرة أخرى وسوف يلحق به موضوع خليج العقبة، ثم إن غزة ستظل قنبلة جاهزة للانفجار في أية لحظة.

وأراد «عبد الناصر» أن يلطف جو المقابلة قبل أن تنتهي فقال لـ «همرشولد» «لقد كانت لديَّ شكوى أردت أن أقدمها إليك عن الجنرال «بيرنز». إن الجنرال «بيرنز» يتصرف أحيانا وكأنه قائد قوة دولية مقاتلة وليس قائد قوة تابعة للأمم المتحدة

ومكلفة لحفظ السلام. أحيانا يتصرف وكأنه الجنرال «جرونتر» قائد حلف الأطلنطى». وضحك «همرشولد» ثم استطرد «جمال عبد الناصر» «دعنى أقل لك كلمة من قلبى قبل أن نفترق، لقد كنت أتمنى لو كان فى استطاعتى أن أجيبك إلى بعض ما طلبت فأنا أشعر بحرج لأننى لم أقبل أى طلب مما قدمت لى لكنى لا أستطيع إلا أن أعطى ماهو فى سلطتى وكل ما طلبت منى خارج عن نطاقها، وقد غالبت حرجى وذكرت نفسى بأنك لست طرفا، وإنما كان دورك كسكرتير عام للأمم المتحدة أن تنقل إلىّ طلبات آخرين فإذا رفضتها من جانبى فإن رفضى لها لايعتبر موجها لك».

[٢]

وفور انتهاء اجتماعات قمة حلف بغداد فى طهران تلقت مصر معلومات عن الموضوعات التى جرى بحثها. وفى نفس الوقت كانت تقارير «أحمد حسين» من واشنطن تشير إلى تركيز «أيزنهاور» على سياسته بفصل مصر عن السعودية. وجاء فى تقرير لـ «أحمد حسين» من واشنطن مانصه «إن الرئيس «أيزنهاور» «رمى طوبة» الرئيس «جمال عبد الناصر» وأن تركيزه الشديد الآن ينصب على «سحب» الملك «سعود» بعيدا عنه(١)».

كان واضحا أن قصر الناصرية الملكى فى الرياض على وشك أن يصبح أهم جبهات المواجهة. وأخذ «جمال عبد الناصر» المبادرة وكتب إلى الملك سعود رسالة يحيطه علما بآخر ما سمع. وجاء فى نص الرسالة(٢) :

[«من الرئيس جمال عبد الناصر

إلى حضرة صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز آل سعود

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد

---

(١) تقرير من الدكتور أحمد حسين منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (٢٢٢).

(٢) صورة من الرسالة منشورة فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (٢٢٧).

يطيب لى فى هذه الفرصة أن أوضح لجلالتكم تطور الاتجاهات التى طرأت على سياسة بعض الدول فى منطقة الشرق الأوسط.

فقد تلاحظ تطورا فى اتجاهات دول حلف بغداد تتلخص فى الآتى:

١ - إنه إزاء الاعتداءات البريطانية الفرنسية الإسرائيلية على مصر، فقد أصبح هذا الحلف متجمدا ومهددا بالزوال.

٢ - أدى هذا التطور ببريطانيا وحلفائها إلى التفكير فى تحوير هذا الحلف بحيث يصبح حلفا إسلاميا من ناحية المظهر وعلى أساس أن يضم الحلف جميع الدول الإسلامية والتى لم تكن منضمة إلى حلف بغداد.

٣ - يبدو أنه اتفق على أن تدفع باكستان لبث الدعوة لهذا الحلف الجديد الذى لن يخرج فى أهدافه عن حلف بغداد تحت سيطرة بريطانيا وتحت ستار الدعوة لتكتيل الدول الإسلامية لمناهضة تسرب النشاط الشيوعى فى المنطقة.

٤ - ونحن نرى أن هذه المحاولات مقصود بها مايلى:

(أ) السيطرة على الدول العربية المستقلة وإدخالها فى منطقة النفوذ البريطانى.

(ب) تحطيم الاتفاقيات التى عقدت بين كل من مصر والمملكة العربية السعودية وسوريا والأردن.

(جـ) محاولة عزل مصر عن المجموعة العربية.

(د) الايهام بأن منطقة الشرق الأوسط مهددة بالخطر الشيوعى.

(هـ) صبغ السياسة المستقلة بصبغة الشيوعية.

٥ - ولا يغيب عن بال جلالتكم موقف باكستان الأخير من الاتفاقات المصرية والسعودية والسورية والأردنية والذى لم يخرج عن سعى زعمائها - أى زعماء باكستان - لربط الدول العربية المستقلة بعجلة الدول

الاستعمارية، وهى تستوحى هذه السياسة من بريطانيا. وأن تصريحات رئيس وزراء باكستان «سهروردى» فى هذا الصدد واضحة فقد ذكر فى تصريح يوم ١٠ نوفمبر ١٩٥٦ مايلى: «إنه كانت هناك مصالح ينطوى عليها الإجراء العسكرى الإنجليزى الفرنسى فى مصر ومنها فصل الفريقين المتحاربين - يقصد مصر وإسرائيل - عن بعضهما. وإنه إذا لم يكن الطرفان قد فصلا عن بعضهما وعلى فرض أنه مع إشعال حرب توغلت فيها إسرائيل داخل مصر، أو قاومت فيها مصر بشدة، فإن الحرب كانت ستشمل الشرق الأوسط كله.

وذكر رئيس الوزراء الباكستانى أن بلاده سوف لاتبتعد عن أصدقائها أو تقطع علاقاتها معهم، واتهم مصر بانها كانت تستعد للاستيلاء على إسرائيل ودلل على ذلك بوجود كميات كبيرة من الأسلحة فى حوزة مصر، وقال إن مصر سوف تجد نفسها فى عزلة.

هذا ومن ناحية أخرى صرح وزير الخارجية الباكستانى فى لندن بأن باكستان ستعترف بإسرائيل وأن إسرائيل وجدت لتبقى.

وختاما أرجو من الله أن يوفقنا لما فيه مجد العروبة ونصرتها.

إمضاء

جمال عبد الناصر»]



كان تاريخ رسالة الرئيس « جمال عبد الناصر» إلى الملك «سعود» هو ١٩ نوفمبر ١٩٥٦. وبتاريخ ٢٤ نوفمبر - أى بعد خمسة أيام بالضبط - توجه السفير السعودى فى القاهرة إلى رئاسة الجمهورية ومعه ثلاث رسائل من الملك إلى الرئيس:

الأولى بتوقيع الملك بخط يده «أخوكم سعود» وكان نصها كما يلى:

[«من سعود بن عبد العزيز آل سعود

إلى فخامة الأخ الرئيس جمال عبد الناصر حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله

وبعد

فإننا نرجو أن تكونوا على أتم الصحة والعافية.

لقد زارنى فى الأسبوع المنصرم فخامة السيد اسكندر مرزا رئيس الجمهورية الإسلامية الباكستانية ومكث نحو يومين ثم غادرنا إلى بغداد.

نسأل الله أن يوفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه والسلام.

إمضاء

.... أخوكم سعود»]

وكانت الرسالة الثانية تحمل عنوان «ملحق خير وسرور إن شاء الله» وعلى هامشها توقيع الملك «سعود»:

....

[«لقد زارنا فى الرياض فخامة الجنرال اسكندر مرزا رئيس جمهورية باكستان، وكان الغرض الرئيسى لهذه الزيارة بمثابة ترضية وتقديم اعتذار لنا بمناسبة حملة مغرضة علينا من بعض الصحف الباكستانية بسبب زيارة الباندبت جواهر لال نهرو لهذه البلاد.

وقد تكلم الرئيس الباكستانى عن خطر الشيوعية الذى يتهدد الشرق الأوسط وعن تسرب الشيوعيين إلى مصر وسوريا على هيئة خبراء وفنيين بحجة التدريب على استعمال الأسلحة السوفييتية، بيد أننى أكدت لفخامته أن كلا من مصر وسوريا تكافح الشيوعية ولا تسمح بترويج مبادئها الهدامة فى بلادها وهى لاتتعاون مع روسيا السوفييتية إلا فى نطاق الحصول على الأسلحة اللازمة لها للدفاع عن نفسها، وذلك بعد أن أعيتها الوسائل للحصول عليها من جهات أخرى، مع أننى لا علاقة لى ولا بلادى مع الشيوعية بتاتا.

وتطرق الحديث أيضا إلى حلف بغداد فأفهمت الرئيس بصراحة أنه

لايمكننا أن نوافق على حلف لم نستشر فيه، ونعتقد أنه مضر بالقضية العربية ومن أعضائه تركيا التى اعترفت بإسرائيل. وبريطانيا التى اعتدت على مصر وعلينا من قبل. ولقد ذكر لى الرئيس الباكستانى أنه لايتكلم باسم حلف بغداد وإنما يتحدث باسم الدول الإسلامية المشتركة فيه، وهو يرى أن يزورنا رؤساء هذه الدول فى الرياض لأجل البحث عن زيادة التقارب والتعاون بين المسلمين لما فيه خير الجميع ومصلحتهم المشتركة.»].

وأما الرسالة الثالثة فقد بدأت أيضا بأنها «ملحق خير وسرور إن شاء الله» وحمل هامشها أيضا توقيع الملك سعود وجاء فى نصها:

[«لقد فهمنا فى غضون أحاديثنا مع الرئيس الباكستانى أنهم متأثرون لرفض سيادة الرئيس لأن يوافق على الاجتماع برئيس الوزارة الباكستانية الذى كان يزمع الحضور إلى مصر، ولكنهم أفادوا بأنهم رغم هذا التأثر لن يتحولوا عن موقفهم من مناصرة مصر والوقوف إلى جانبها. ومهما يكن الداعى لهذا الأمر ومهما تكن الظروف غير مناسبة، فقد ترون سيادتكم معنا أنه من الخير فى هذه الآونة الدقيقة توحيد الصفوف والعمل لإزالة ما فى النفوس. ونرجو أن يكون فى إمكان سيادتكم أن توافقوا على استقبال رئيس الوزارة الباكستانية فى فرصة قريبة، وذلك على الرغم من علمنا بأعبائكم الكبيرة ومشاغلكم الكثيرة ،أعانكم الله عليها ووفقكم فيها.»](١).



ورد «جمال عبد الناصر» على رسالة الملك شاكرا له إحاطته بكل جديد، ثم تطرق إلى معلوماته عن رغبة رئيس وزراء باكستان فى زيارة مصر فقال له ضمن رسالته ما نصه(٢):

---

(١) النصوص الكاملة لرسائل الملك «سعود» بما فيها ملاحق «الخير والسرور إن شاء الله» منشورة فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت أرقام (٢٢٨ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣٢).

(٢) النص الكامل لرد الرئيس «جمال عبد الناصر» منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (٢٣١).

[«وقد أوضحنا فى ردنا على سفيرنا فى كراتشى أن يبلغ المسئولين الباكستانيين وجهة نظرنا من أن الوقت غير مناسب لإتمام هذه الزيارة ورحبنا فى الوقت نفسه بأن تتم مثل هذه الزيارة فى المستقبل بعد أن ينجلى الموقف وتنقشع الأزمة الحالية».].

«ثم استطرد «جمال عبد الناصر» فى رسالته للملك «سعود» يقول: [«وبهذه المناسبة أود أن أبين لجلالتكم أن أبواق الدعاية الاستعمارية والموالية لحلف بغداد تستغل هذ الموضوع بطريقة خبيثة الغرض منها بث روح التفرقة بين الدول الإسلامية وإظهار مصر بمظهر الدولة التى لاترحب بالتعاون الإسلامى وإفهام الرأى العام الإسلامى أنها تتجه للتعاون مع الشيوعية.

والله أسأل أن يزيدنا قوة وتماسكا وأن يوفقنا إلى ما فيه الخير للعالم الإسلامى.

إمضاء

جمال عبد الناصر»]



وتقرر أن تقوم السفارة المصرية فى جدة بتسليم الرد إلى الملك وطلب القائم بأعمالها موعدا تحدد له على الفور فى الرياض.

وكتب القائم بالأعمال المصرى فى السعودية الوزير المفوض «إبراهيم محمود» تقريرا عن مقابلته مع الملك والتى حضرها ولى العهد الأمير «فيصل» جاء فيه:

[«دخلت غرفة مكتب الملك وكان يجلس فيها مع سمو ولى عهده الأمير «فيصل» وبعد تبادل التحية طلب منى جلالة الملك أن أقرأ الرسالة ليسمعها الأمير «فيصل» وبعد أن انتهيت من تلاوتها سلمتها لجلالته. فعلق عليها بما يأتى:

قال جلالته «حقا إن مصر إذا نكست برأسها فلا يمكن أى واحد فى الأمة

العربيـة أن يرفع رأسه بعد ذلك. وإنـى أساند مصـر لأنى مؤمن بأن مسـاندتـها دفـاع عن بلادى وعن البلاد الـعـربية وعـن البلاد الإسـلاميـة كلها وسـاسيـر فى ذلك حتى النهـاية. وإنى متفق مع سيـادة الرئيس «جمال عبـد الناصر» من أن البـاكسـتـان تعمل دسـائس. ولكن هل لما قـابلت رئيس جـمـهورية البـاكسـتـان حـصل شىء؟ أو هل لما قـابلتـه وافقتـه علـى مـا يريد؟ أنـا أسـمع لأعـدائى قبل أصدقـائى. إن رفض السـيـد الرئيس لمقابلة رئيس وزراء البـاكسـتـان أعطى لهم فرصة للتشنيع على مصر فى جـرائدهم بـعـدم تـعـاونـهـا مع الدول الإسـلاميـة وقالوا فعلا إن مصر تتجه نحو الشيوعية، ولكن المقابلة كانت تكفيكم شر هذه الحملة».

وهنا تدخل سمو الأمير «فيصل» قائلا : «من السهل كسب الأعداء، ولكن من الصـعب كسب الأصـدقـاء». وأجـبت علـى سـمـوه قـائلا إن سـبب عـدم المقـابلة يرجع أيضا إلى توافق موعـدها مع موعد زيارة «همرشولد». فـقال جلالة الملك «مادامت زيارة «همرشولد» قد انتـهت فيحـسن إذن أن يتفضل السـيد الرئيس بمقابلة رئيس وزراء الباكسـتـان، وإذا كان يريد السيد الرئيس أن أرتب له ذلك فانا حـاضر ومستعد للقيام بذلك».

....

وبعد ذلك تـحدث الأمير «فيصل» قائلا : «هل تـعرف أن الروس قرروا تمويل فرنسا بـالبترول؟» فقلت لـه «كلا لم أسمع بذلك» فقال إنـه «سمع بهذا الـخبر من الإذاعـة» وقال جـلالة الملك «سعـود» لعنة الله عليـهم جميـعـا. وأن الروس هم ألعن شعب، ولذلك فإنى أنصح السيد الرئيس «جمـال عبد الـنـاصر» بـالاعتدال أى لازم نكون معتدلين فى سياستنا. وقد أعلن الإنجليز أنهم سـوف يـخرجون من مصر قبل عيد الميلاد، فماذا يضرنـا أن نصبر عليـهم شهرا آخر.».

....

ثم دق سـيـادة الملك (هكذا فى الأصل) الجـرس وأمـر بـاسـتـدعـاء الشـيـخ

«يوسف ياسين» نائب وزير الخارجية وسلمه الرسالة وقام جلالته واقفا وقال لى وهو واضع يده فى يدى «انتظر مع الشيخ «يوسف ياسين» حتى نتناول طعام الغداء اليوم سويا» فاصطحبنى الشيخ «يوسف ياسين» إلى مكتبه وتصفح الرسالة وقال لى «لازم ندبر طريقة لمقابلة السيد الرئيس مع رئيس وزراء الباكستان حتى نقضى على الدسائس». ثم أنبأنى بخبر تمويل الروس لفرنسا بالبترول. وقال لى إن «سياسات الدول مثل الخط الذى ترسمه عجلة السيارة على الرمال فلا يمكن أن تعرف إذا كانت السيارة آتية من الطريق أو راجعة من الطريق. فأنتم لاتعلمون إذا كانت روسيا معكم أو ضدكم فتمويل روسيا لفرنسا بالبترول يبين لكم نوايا هؤلاء الكلاب.»](١).

وفى اليوم التالى ٢ ديسمبر ١٩٥٦ بعثت السفارة المصرية فى جدة إلى الرئاسة فى القاهرة رسالة الملك «سعود»:

[« تلقيت رسالة فخامة الأخ بالامتنان والشكر لما أوضحه عن موضوع زيارة رئيس وزراء الباكستان وأن المراسلات على عادتنا من تبادل المعلومات والآراء. وإنى متفق مع فخامة الرئيس أن الدعايات المغرضة تعمل بمنتهى الجد والنشاط لكل ما يمكن أن يضعف جبهتنا وتفريق الناس عنا، لكن الله سبحانه وتعالى العالم بحسن نوايانا هو الكفيل بإحباط جميع مساعى من لايريد الخير لنا، وفى اعتقادى أنه يحسن بالسيد الرئيس ألا يمانع فى تعيين موعد لزيارة رئيس وزراء الباكستان لأن ذلك سيقاوم الدعايات المغرضة من جهة ومن جهة ثانية فإن العمل الذى يبذل لكسب أصدقاء ـ ولو بغض النظر عن بعض أشياء ـ فيه المصلحة، فإن رأى فخامة الرئيس أن يبدى هذه الرغبة مباشرة أو أن نبديها نحن بالنيابة عنه، فالأمر متروك لحسن نظره وتقديره».]



(١) النص الكامل لتقرير القائم بالأعمال المصرى فى جدة عن مقابلته للملك منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (٢٢٣ - ٢٢٤).

وتجاهل «جمال عبد الناصر» إلحاح الملك «سعود» على مقابلة رئيس وزراء باكستان وكتب إليه رسالة(1) عن نتائج محادثاته مع «همرشولد» وكتب الملك للرئيس رسالة(2) أخرى يوم ٥ ديسمبر يبدى ملاحظته على حدة الإعلام المصرى ضد العدوان، وقال الملك فى هذه الرسالة «المهم أن نستعمل الحكمة فيما يذاع فى إذاعتنا وفى صحفنا حتى لانزيد فى حقدهم لكى يقوموا بأعمال انتقامية، وقد قيل إنه ينبغى للعاقل إذا انتصر أن يفهم عدوه بأنه انهزم.».

ويوم ٦ ديسمبر أذاعت وكالات الأنباء خطابا لرئيس وزراء باكستان «سهروردى» يقول فيه «**إن معلوماته تؤكد له أن كلا من السعودية ولبنان سوف تنضمان إلى حلف بغداد فى القريب، وأنهما تنسقان السياسة فعلا مع الدول الإسلامية فى هذا الحلف**».

وكان القائم بالأعمال المصرى يومها على موعد مع الملك لتسليمه رسالة الرئيس فبادره الملك - طبقا لتقرير القائم بالأعمال المصرى - قائلا «**هل سمعت خطاب هذا الملعون؟» فقلت «من الذى تقصده؟» فقال «سهروردى رئيس وزراء الباكستان. الملعون يقول إن مصر وقفت وحدها ولم تساعدها الدول العربية، وأن المملكة العربية السعودية ولبنان سوف يدخلان حلف بغداد، وأن عمل بريطانيا فى مصر كان لتأمين حرية الملاحة فى القناة. خطاب ملعون وأنا تبين لى الآن أن «سهروردى» ملعون**».

ودارت مناقشة أمام القائم بالأعمال المصرى بين الملك والأمير «فيصل» والشيخ «يوسف ياسين» حول الرد على «سهروردى وهل يكون تكذيبا أو بيانا(3).



وفجأة اختفت باكستان وظهر العراق مكانها كحلقة وصل مع الحكومة

---

(1) نص رسالة الرئيس «جمال عبد الناصر» إلى الملك «سعود» منشورة بالكامل فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (٢٣٥).

(2) نص رسالة الملك «سعود» إلى الرئيس «عبد الناصر» منشورة بالكامل فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (٢٣٦).

(3) نص تقرير القائم بالأعمال المصرى منشور بالكامل فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (٢٣٧).

السعودية. وتم ترتيب لقاء بين الملك «سعود» وبين الأمير «عبد الإله» ولى عهد العراق، وكان الهدف الأمريكى من ترتيبه هو تصفية الخلافات التقليدية بين السعوديين والهاشميين. وبعث «سعود» إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» رسالة مع أحد أشقائه يرجوه ألا يشك فيه بسبب هذه المقابلة مع «عبد الإله»، فقد حدثت فى عرض البحر وبمحض المصادفة ولم يدر فيها حديث له شأن أو قيمة لأن «عبد الإله» جاء إلى الاجتماع ورائحة الخمر تفوح منه.

وبدأت وكالات الأنباء تحمل معلومات من واشنطن عن زيارة يقوم بها الملك «سعود» إلى العاصمة الأمريكية لإطلاعه على خطوط السياسة الأمريكية فى المنطقة. فقد وجد «أيزنهاور» أن ضربته الكبيرة للفصل بين السعودية ومصر وبين «سعود» و«عبد الناصر» قد حان وقتها.

كان «أيزنهاور» قد تقدم إلى الكونجرس بالمشروع الذى أطلق عليه اسم «مبدأ أيزنهاور» والذى كان يخول الرئيس الأمريكى حق تقديم المساعدات لأصدقاء أمريكا فى الشرق الأوسط والتدخل بالقوة المسلحة لحماية أى واحد يتعرض منهم لـ «تهديد أو خطر تهديد من الشيوعية الدولية أو من المتعاونين معها». دون الرجوع إلى الكونجرس للحصول على تفويض جديد منه.

وكتب «أيزنهاور» فى يومياته فى ذلك اليوم ما نصه «على أى دكتاتور فى الشرق الأوسط أن يحسب منذ الآن حساب أى خطوة يتخذها».

ثم كتب «أيزنهاور» بعد ذلك بالنص «أن **«سعود» هو الشخص الوحيد الذى يستطيع بنجاح أن يتحدى «ناصر» فى قيادة العالم العربى، ويحول حركة القومية العربية من اتجاه الاتحاد السوفيتى إلى اتجاه الغرب».**

وبدأ يستعد لاستقبال «سعود».



وتصف يوميات «أيزنهاور» بعض جوانب زيارة الملك «سعود» وما أحاط بها من ملابسات.

كتب «أيزنهاور» فى يومياته بتاريخ ٨ يناير ١٩٥٧ «إنه قادم ولكنى أسأل نفسى هل سيأتى معه بالحريم؟».

وفى يوم ٩ يناير كتب «أيزنهاور» فى يومياته «اتصل بى «فوستر» تليفونيا. «سعود» مصرّ على أن أكون فى استقباله فى المطار. مستحيل. ومخالف للتقاليد. العادة أن أستقبل الزوار عند مدخل البيت الأبيض ولو استثنيت «سعود» فسوف يطالب الكل بنفس الاستثناء. «فوستر» قال لى إذا لم تجئ لاستقباله فقد يعدل عن رأيه لأن هؤلاء الناس حساسون جدا وتهمهم المظاهر. سوف أذهب».

وفى يوم ١٠ يناير كتب «أيزنهاور» فى يومياته «فاجنر «عمدة نيويورك» خلق لنا مشكلة لا لزوم لها مع «سعود» فهو لايريد استقباله رسميا لأنه معاد لليهود».

وفى مساء اليوم التالى كتب «أيزنهاور» فى يومياته «سعود كان هنا على عشاء رسمى فى البيت الأبيض - كنا بالفراك وكانوا بالعباءات. كان أولاد البترول (يقصد رؤساء مجالس إدارات شركات البترول) يجرون من حول الملك - طبعا أرباحهم هذه السنة كانت خيالية. «سعود» مهتم ببنادق الصيد لكنه يفضل الصيد بالصقور. إننى أختنق من روائح السعوديين والبخور لازال يملأ البيت الأبيض. إنه شخصية من القرون الوسطى - هذا المخبول أعطى لخدم البيت الأبيض بقشيشا ما بين خمسين إلى مائة دولار لكل واحد منهم - إعطاء البقاشيش ممنوع فى البيت الأبيض ولكنى فى هذه المرة حبست لسانى فى فمى، فالمهم أن يدخل معنا «سعود» فى مشروعاتنا - لكنه منطو على نفسه وخجول ولا أعرف بحق السماء كيف يتسنى له أن يتحدى شخصية «ناصر» الجذابة على زعامة العالم العربى.

(He is introspective and shy which hardly qualified him to challenge the charismatic Nasser for Arab Leadrship).

لا أرى أن أمامنا غيره وهو الشخص الذى علينا أن نمسك به».

[٢]

وتحت ضغوط عالمية هائلة واستعداد مصرى عسكرى تمكن من تعويض كل خسائر الحرب خصوصا فى الطيران - بدأت إسرائيل انسحابها من سيناء فى أواخر شهر ديسمبر ١٩٥٦.

ومطأنها مشروع «مبدأ أيزنهاور» الذى قدمه «أيزنهاور» رسميا إلى الكونجرس يوم ٥ يناير ١٩٥٧. ثم سلمتها الولايات المتحدة الأمريكية مذكرة تؤكد فيها حقها فى المرور البرىء (Innocent passage) من مضايق العقبة.

واكتمل الانسحاب من سيناء ولكن «بن جوريون» عاد إلى العناد فى الانسحاب من غزة وكتب إليه «أيزنهاور» يقول له: «إن بقاء القوات الإسرائيلية فى غزة سوف ينسف مشروعه للشرق الأوسط، وإن رجل الدولة يجب أن يضع نصب عينيه أهدافه الكبرى، ولا يتوقف أمام أية اعتبارات مرحلية أو جانبية، ثم أكد له أن القوات المصرية لن تعود إلى سيناء». وتقدمت فرنسا رسميا بمشروع لوضع سيناء تحت الإشراف المباشر للأمم المتحدة.

ولاحظ «جمال عبد الناصر» من متابعته للتقارير أن مكتب الاتصال بين الجيش المصرى وبين قيادة قوات الطوارئ الدولية لايزال فى مطار «أبو صوير». وطلب انتقاله إلى «العريش». وحاول الجنرال «بيرنز» أن يمنع هذا الانتقال لأن بعض الأطراف قد تسىء فهم مقاصده. وتلقى الدكتور «محمود فوزى» برقية من «همرشولد» يرجوه فيها أن تظل قوات الجيش المصرى بعيدة عن قطاع غزة، وأنه حسب معلوماته فإن سكان القطاع لايريدون عودة القوات المصرية.

وفى اليوم التالى اجتاحت قطاع غزة كله مظاهرات مؤيدة لمصر مطالبة بعودة الإدارة المصرية، واشتبكت معها بعض عناصر القوات الدولية.

ثم أعلنت إذاعة القاهرة أن اللواء «حسن عبد اللطيف» وصل فعلا هذه اللحظة إلى مكتب الحاكم العام المصرى لقطاع غزة لكى يتولى مسئوليته هناك. وتلقى «همرشولد» برقية من الدكتور فوزى» يحتج فيها على أن قوات الأمم المتحدة نسيت

مهمتها، فهى الآن لاتحمى سكان غزة وإنما تطلق النار عليهم، وأن الحاكم المصرى العام الذى وصل منذ ساعة إلى غزة سوف يتصل بالجنرال «بيرنز» لتنسيق أوضاع الأمن.

وقبل أن تغرب شمس النهار كان الحاكم المصرى العام قد استدعى وحدات من الجيش المصرى إلى دخول غزة لحماية سكانها، وأبرق الجنرال «بيرنز» إلى «همرشولد» يسأله رأيه وهل يطلب إلى قواته أن تقاوم المصريين وهى لاتقدر على ذلك ولا هى مستعدة له، ثم إنه لايستطيع أن يطلب مساعدة الإسرائيليين لأن ذلك يهدم مهمة الأمم المتحدة فى الشرق الأوسط من أساسها؟» ورد عليه «همرشولد» بأنه على اتصال بالحكومة المصرية لبحث هذا التطور الخطير فى الموقف بالطرق السياسية.

وانهالت على مكتب «همرشولد» مكالمات تليفونية من «دالاس» ومن «آبا إيبان» ومن «سلوين لويد» ومن «كريستيان بينو». وكان رد «همرشولد» أنه سيطير إلى القاهرة ليعالج الموقف بنفسه مع الرئيس «جمال عبد الناصر».

وكان الأمر الواقع قد أصبح أمرا وقعا.

الفصل الحادى عشر

من الذى انتصر؟

[١]

وأعلنت مصر من طرف واحد ضمانا بحرية الملاحة فى قناة السويس على أساس اتفاقية القسطنطينية ١٨٨٨ ـ وزاد الهياج فى الغرب.

لقد انتهت حرب السويس، وقد حققت مصر كل طلباتها واستردت كل حقوقها فيما عدا واحدا وهو منع إسرائيل من المرور فى خليج العقبة.

وجاء الملك «سعود» إلى مصر فى محاولة لـ «تطمين الخواطر» بعد زيارته للولايات المتحدة. وتحدث معه الرئيس «جمال عبد الناصر» يرجوه أن يستعمل نفوذه لدى الولايات المتحدة الأمريكية التى أعطت ضمانا مكتوبا لإسرائيل بمسئوليتها عن حق المرور البرىء فى خليج العقبة.

وقام الملك وهو فى القاهرة باستدعاء السفير الأمريكى «ريموند هير» وسلمه رسالة منه إلى صديقه العظيم الرئيس «أيزنهاور» ـ خاصة بخليج العقبة وهو طريق مرور الحجاج إلى الأماكن المقدسة.

كانت رسالة الملك إلى «أيزنهاور» شفهية وأكدها الملك بعد ذلك برسالة مكتوبة من الرياض. ورد عليه الرئيس «أيزنهاور» برسالة مكتوبة جاء فى نصوصها مايلى:

«ياصاحب الجلالة:

شكرا لكم على رسالتكم المرسلة من القاهرة بتاريخ ٢٨ فبراير ١٩٥٧ والمرسلة من الرياض بتاريخ ٤ مارس، وعلى تلطفكم بإرسال المذكرة

الخاصة بسير أعمال اجتماعاتكم الأخيرة فى القاهرة. ولقد سارت الحوادث بسرعة منذ تسلم هذه الرسائل وإنى لأعلم بأنكم تشاركوننى السرور فى أنه قد تم الآن انسحاب إسرائيل من غزة والعقبة، ولكن هناك أمامنا مشاكل هامة».

....

ووصل الرئيس «أيزنهاور» فى خطابه إلى موضوع خليج العقبة فقال للملك ما نصه:

«عندما ننظر إلى موقفنا فيما يتعلق بخليج العقبة والسلامة الإقليمية والأمن لمملكتكم وما يتطلبوه من مرور الحجاج ومن عدم تدخل فى تنقلاتهم إلى البلاد المقدسة ندرك أن هذه اعتبارات ذات أهمية بالغة، ولكن كما تعلمون فإننا نعتقد بأن سفن جميع الأمم ينبغى أن تكون قادرة على التنقل الحر البرىء فى مرورها عبر خليج العقبة، وذلك بمقتضى المبادئ المقبولة للقانون الدولى حسبما ذكرت الحكومة المصرية فى مذكرتها إلى السفير الأمريكى بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٥٠.

لقد اتفقنا خلال مباحثاتنا الأخيرة على أن إيجاد علاقات ودية متينة بين الولايات المتحدة وشعوب المنطقة مع المحافظة عليها يجب أن يعتمد على الثقة المتبادلة، وقد أعربتم جلالتكم عن تقديركم لتوضيحاتنا عن المشاكل التى نشأت فى علاقتنا مع بعض الدول العربية، وإننا بدورنا قابلنا بالتقدير الأسلوب الذى نقلتم به جلالتكم تلك التوضيحات للزعماء العرب الآخرين».

....

وأنهى الرئيس «أيزنهاور» خطابه بالاعتذار عن إرسال نائبه «ريتشارد نيكسون» لزيادة المملكة العربية السعودية:

«ونأسف لأن مشاغله لاتسمح له فى الظرف الحاضر أن يحظى بشرف ضيافتكم والله يحفظكم.

صديقكم المخلص

دوايت أيزنهاور»(١)



وأراد الملك مواصلة التوسط لدى الرئيس الأمريكى فى موضوع خليج العقبة الذى تعهد ببذل جهوده فى سبيله وخصوصا أن جزر «تيران» و«صنافير» الواقعة فى وسط الخليج والتى كانت مصر تمارس منها عملية الحظر على الملاحة الإسرائيلية هى فى الأصل جزر سعودية معارة لمصر بحكم التحالف بين البلدين.

وهكذا كتب الملك إلى الرئيس «أيزنهاور» خطابا جديدا فى ٢٦ مارس بدأه على النحو التالى:

«من سعود بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية

إلى الصديق العظيم فخامة الرئيس دوايت أيزنهاور

رئيس الولايات المتحدة الأمريكية»

....

وجاء فى البند الثانى من هذه الرسالة قول الملك بالنص:

«ولابد لى من القول أنى لا أكون مبالغا حين أذكر لفخامتكم أن تقرير حق لإسرائيل بالمرور فى خليج العقبة، الذى هو ـ كما تعلمون ـ خليج مغلق ومياهه إقليمية لاتخضع للمعايير المصطلح عليها دوليا للخلجان والمضايق المفتوحة ـ سيكون له صدى فى العالمين العربى والإسلامى ونعتبره خرقا للحقوق الدولية المقررة واعتداء على المقدسات الإسلامية، فضلا عن أنه لايقربنا من الأهداف التى اتفقنا على أن تتضافر جهودنا المشتركة للوصول

(١) النص الكامل لخطاب «أيزنهاور» إلى الملك «سعود» منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (٢٤٠).

إليها. وكما ذكرت لفخامتكم فى مناسبات سابقة، أن الأمر يتعلق بحقوق تاريخية ودينية وجغرافية لا لبلادى فحسب، ولكن للعالمين العربى والإسلامى. وأنكم لتعلمون مآرب إسرائيل التوسعية ونواياها العدوانية وتنكرها لقرارات الأمم المتحدة فى الماضى القريب. نعم إنى لا أشك فى صدق نواياكم حين تذكرون فى كتابكم أن هذه الحقوق ستحترم. ولكن مجرد إقحام إسرائيل على خليج العقبة ومضايقه والإقرار لها بحقوق فيها ينطوى فى ذاته على أخطار لايمكن التكهن بمداها.»

وفى النهاية وقع الملك خطابه: «صديقكم الوفى سعود»(١).



وبعث الملك بنسخة من خطابه إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» وكان سعيدا بها. ولكن السعادة لم تطل فقد توجه السيد «عبد الله الفضل» إلى رئاسة الجمهورية يحمل برقية من الملك إلى الرئيس نصها كما يلى:

«مستعجل جدا منتظر الجواب

هذه لسفيرنا عبد الله الفضل. قف تبدأ.

من المعلوم لديكم أنه سيقوم لزيارتنا «كميل شمعون» رئيس جمهورية لبنان وسيكون ذلك يوم الجمعة القادم. قف.

أخبروا فخامة الرئيس «جمال عبد الناصر» أن ضابطا من المكتب الثانى (المخابرات السورية) سيصل إلى الرياض ويشترك مع أناس مصريين فى اغتيال الرئيس «شمعون». قف. الخبر لانعتقد صحته ونجزم أنه لايوجد عربى يوجد عنده شيمة أو وفاء، يمكن أن يفكر فى مثل هذا العمل وعلى الأخص وهو فى ضيافتنا أحببنا أخباركم بهذا من باب الاحتياط، ونحن على يقين من أنه يزعجكم مثل هذا الخبر مثلما يزعجنا وإن صح لاسمح الله ذلك سيتخذ جميع الاحتياطات اللازمة انتهى.»(٢)

---

(١) نص خطاب الملك سعود إلى الرئيس أيزنهاور منشور فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (٢٤١).

(٢) صورة للبرقية التى سلمها السفير السعودى منشورة فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (٢٤٢).

وبادر «جمال عبد الناصر» على الفور فبعث للملك بأنه لا يعرف عن الموضوع شيئا ولا يتصوره وليس مستعدا لقبوله. لكنه بدأ يشعر أن الدسائس بينه وبين الملك سعود تزداد كثافة وإلحاحا!

وفى اليوم التالى كان للمَلك نصيحة أخرى سلمها سفيره إلى رئاسة الجمهورية فى القاهرة نصها كما يلى:

«أخبروا فخامة الأخ الرئيس «جمال عبد الناصر» بأن إسرائيل بعد الصدمة التى لاقتها من انسحابها من غزة والعقبة وما تبع ذلك، نعتقد أنهم سيقومون بمفاجآة من المفاجآت لانستطيع التكهن بها، ولذا نرى اتخاذ الحيطة والحذر والحزم لسائر الاحتمالات التى يمكن أن تأتى بها إسرائيل واتخاذ العدة لكل احتمال. وإن رأى سيادتكم اجتماع مندوبين من قبلنا نحن الأربعة: سوريا ومصر والأردن والمملكة السعودية لبحث أى خطة دفاعية فنحن حاضرون لذلك، على أننى أوصى بالهدوء والسكينة على الحدود فى هذه الأوقات الدقيقة لأنه لو حدث شىء من جانب العرب اتخذوه حجة على العرب تأييدا لمآربهم وحجبهم. والهدوء والسكينة وضبط النفس أعتقد أنه من المصلحة إن شاء الله. وقد أبرقنا بذلك لأخينا الملك الحسين وأخينا فخامة الرئيس شكرى القوتلى.

ونسأل الله أن يوفقنا جميعا للخير.»(١)



وبدأ الرئيس «أيزنهاور» يضغط على الملك «سعود» ليتوسط لدى الرئيس «جمال عبد الناصر» لكى يقبل تعديلات أمريكية تريد الولايات المتحدة إدخالها على الضمان المصرى المنفرد بحرية الملاحة فى قناة السويس. وكانت هذه التحفظات الأمريكية تريد أن تعود إلى النقط الست الصادرة عن مجلس الأمن يوم ١٣ أكتوبر.

وطلب الرئيس «جمال عبد الناصر» إلى الدكتور «محمود فوزى» إعداد مذكرة عن

---

(١) صورة لرسالة الملك «سعود» للرئيس «جمال عبد الناصر» منشورة فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (٢٤٣).

وجهة النظر المصرية فى رفض التحفظات الأمريكية(١) وإبلاغها للسعودية وسوريا والأردن(٢).

كان «أنتونى إيدن» قد تعلل بالمرض وابتعد عن رئاسة الوزارة للعلاج يوم ١٤ نوفمبر ١٩٥٦.

وكان الرأى العام البريطانى لايريده مرة أخرى فى رئاسة الوزارة. وذهب أقطاب الحزب. وفى مقدمتهم «سالسبورى». فأبلغوا «إيدن»: «إن سوء الحظ قد قاده إلى مخاطرة وصلت ببريطانيا إلى وضع خطير وإنه لم يعد أمامه إلا أن يقدم استقالته من الحزب ومن رئاسة الحكومة». وذهب اللورد «سالسبورى» عميد الحزب إلى مقابلة مع الملكة يرجوها أن تختار رئيسا للوزراء غير «أنتونى إيدن» وخيّرها بين «هارولد ماكميلان» وبين «راب باتلر»، وقالت الملكة للورد «سالسبورى» إنها «لاتعطى نفسها حق الاختيار وأنها تتفهم أسباب المحافظين فى الخلاص من «إيدن» وأنها هى نفسها كانت فى بعض اللحظات على وشك أن تتشاور مع زعماء الحزب لاختيار خليفة لـ «إيدن» حين بدا أن سياسته سوف تؤدى إلى تحطيم الكومنولث، فالحفاظ على الكومنولث مسئوليتها الدستورية، وأما اختيار خليفة لـ «إيدن» فإنها لاتريد أن ترجح أحدا بل إنها سوف تكلف من يراه حزب الأغلبية». وقال لها اللورد «سالسبورى»: «سيدتى، لو كان لى أن أشير لأشرت بـ «ماكميلان» فهو أقدر على جمع شمل وطن مزقته الحوادث وإمبراطورية تهتز قوائمها».

واستدعت الملكة يوم ٩ يناير ١٩٥٧ «هارولد ماكميلان» لتشكيل وزارة جديدة. وحين ذهب «ماكميلان» يتشاور فى التشكيل الجديد مع «ونستون تشرشل» قال له الأب الروحى العجوز للمحافظين:

«لقد كنت واثقا أن «أنتونى» سوف يقودنا إلى كارثة، ولكنى لم أتصورها بهذا

---

(١) النص الكامل للمذكرة المصرية برفض التحفظات الامريكية منشورة فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (٢٤٦).

(٢) صورة لتأشيرة الرئيس «جمال عبد الناصر» بخط يده يطلب إرسال هذه المذكرة منشورة فى الملحق الوثائقى لهذا الكتاب تحت رقم (٢٤٥).

الحجم. لو كنت مكانه لما واتتنى الشجاعة للإقدام على هذا الجنون. ولما واتتنى الشهامة للهرب منه بهذه الطريقة المهينة.»



وبعد عودة القوات المصرية إلى غزة كان «بن جوريون» ى مأزق مستحكم فلم يكن قادرا على قبول الأمر الواقع، ولم يكن قادرا على تغييره وذهب إلى مستعمرة «سد بوكر» يفكر ويتأمل ثم قال لـ «ديان» و«شيمون بيريز» اللذين ذهبا إليه هناك لإقناعه بإنهاء اعتزاله والعودة إلى تل أبيب لأن الناس بدأوا يتساءلون عن غيابه ويقلقون له، وقال لهما «بن جوريون» **«إننى مشفق على إسرائيل فقد ظهر فى مصر فرعون جديد ولا أجد فى أعماقى قوة موسى الذى قاد شعبه إلى الخلاص». ثم قال لهما «إنه يفكر فى اعتزال السياسة وقضاء ما بقى من عمره فى مستعمرة «سد بوكر» يعمل راعيا للغنم مثل أنبياء إسرائيل القدامى».** وقال له «موشى ديان» إن «إسرائيل مازالت فى حاجة إليك».

لكن «بن جوريون» كان مأخوذا بفكرة الاعتزال «فقد ضاعت عليه وعلى إسرائيل فرصة تاريخية نادر وكان مؤمنا أنه لاذنب له فيما انتهت إليه ولكنه قدر الشهداء».

ولم تبارح فكرة الاعتزال رأس «بن جوريون» حتى أعلنها ذات مساء وتوجه قبل غياب الشمس إلى مستعمرة «سد بوكر» فى وسط صحراء النقب.

....

....

ولم ينقض عام حتى كان الجيش الفرنسى فى الجزائر قد قام بانقلاب تحت قيادة الجنرال «شال» وسقطت الجمهورية الثالثة كلها فى باريس، وعاد «ديجول» إلى السلطة ليعلن قيام الجمهورية الفرنسية الرابعة.

....

....

ونزل الستار على المعركة الأولى فى حرب الثلاثين سنة!